كتاب الهلال

د. لويس عوض



مذكرات طالب بعثة

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال . ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
FAX -3625469 : فاكس

العدد ٦٠٩ - جماد ثان - سبتمبر ٢٠٠١
NO- 609- SE - 2001

أسعار بيع العدد فئة ٧٠٠ قرش
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الأردن ٣ دينارات - الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريال - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبى/ أبوظبى ٢٠
...طين ٤ دولارات -

darhilal...

مذكرات طالب بعثة

د. لويس عوض

الغلاف بريشة الفنانة

تحية حليم

مقدمة المؤلف :

– ١ –

فى أوائل شهر مايو ١٩٦٥ فوجئت بكتيب أزرق الغلاف من القطع المتوسط لا تتجاوز صفحاته خمسا وعشرين عددا ، يصلنى بالبريد من الاسكندرية ، وجدته على مكتبى بجريدة «الأهرام» وما أن تصفحته حتى فغرت فمى دهشة فقد اشتمل هذا الكتيب على صفحات من كتاب كنت قد كتبته فى ١٩٤٢ ثم ضاعت منى أصوله من نحو عشرين عاما ، وهذا الكتاب هو «مذكرات طالب بعثة» .
وبعد ساعة أو نحوها جاءنى لطفى الخولى ، وهو يشغل المكتب المجاور لى فى «الأهرام» يعلن عن أنه تلقى بالبريد نسخة من هذا الكتاب ولم تمض ساعات حتى كنت قد تلقيت نحو عشر مكالمات تليفونية من أدباء معروفين من بينهم توفيق الحكيم وحسين فوزى ، كل منهم يعلن نفس الشئ ويستفسر عن الأمر .

وكان مصدر دهشتى أن ناشر هذا الكتاب لم تكن لى به معرفة سابقة شخصا أو اسما . وقرأت على صفحة الغلاف أن اسمه «كنارى» ، وهو اسم مستعار كما هو واضح ، ثم قرأت فى الصفحة الثانية والثالثة نبذة قدم بها كنارى هذا الكتاب يفتخر

فيها عن تصرفه بالنشر فى كتاب من قلم غيره ، مع اشارة تدل على أن هذا الكتيب هو العدد ١٢ من مطبوعات سلسلة تسمى نفسها «رسالة العامل» وتصدر عن دار فى الاسكندرية تسمى نفسها «دار النشر للجميع» وتذكر أن اسم رئيس التحرير هو حسنين محمود حسنين ، وان الإدارة فى ٤ شارع لويجى ستانى ، محرم بك ، اسكندرية ، وعدت إلى الغلاف من جديد فقرات «دار النشر للجميع : ابريل ١٩٦٥» . وقرأت «كشف وتحقيق كنارى» .

وانتابنى وقتئذ شعوران غريبان : شعور بالغضب أن أرى شخصا لا أعرفه يتصرف فى عمل من أعمالى بالنشر دون إذن منى ، وشعور بالفرح لأنى تيقنت من أن أصول كتابى الضائع «مذكرات طالب بعثة» لم تضع نهائيا بعد عشرين عاما من افتقادى إياها ، وأن هناك نسخة واحدة منه على الأقل فى مكان ما بالاسكندرية مع هذا المجهول الذى يسمى نفسه كنارى . ثم استجد فى نفسى شعور ثالث هو شعور القلق . إذا كان كنارى هذا أو سواه يملك نسخة من أصول الكتاب هذه السنوات الطوال، فلماذا اختار هذا الوقت بالذات لنشر نموذج منه على الناس ؟ إن الكتاب «تجربة بالعامية» قد كتب عام ١٩٤٢ أيام إن كانت تؤرقنى

مشكلة الازدواج اللغوى فى مصر وعلاقتها بالتعبير الأدبى . وقد كان آخر عهدى بهذه المشكلة عام ١٩٤٧ حين كتبت مقدمة ديوانى «بلوتولاند» الذى نشرته فى تلك السنة وهو من إنشاء الفترة ١٩٣٧ - ١٩٤٠ . ومنذ ١٩٤٧ انصرفت تماما عن التفكير فى مشكلة اللغة وعن بحثها لسببين : أحدهما انى اعتقدت أن مهمتى قد انتهت بطرح القضية على الرأى العام فى مقدمة الديوان ، وكل عود إلى الموضوع تزيد لا نفع فيه مادمت قد بسطت وجهة نظرى كاملة فى «المقدمة» والسبب الثانى هو أن مشكلة الازدواج اللغوى والتعبير الأدبى تؤرق الأديب الخالق أكثر مما تؤرق الأديب الناقد. فكل من يكتب للمسرح أو يكتب الحوار فى الرواية أو فى القصة القصيرة عليه أن يجابه هذه المشكلة باستمرار ، وعليه أن يتخذ منها «موقفا» عمليا .

أما أنا فصناعتى الأولى هى صناعة الناقد والأستاذ ، وليس فيما أقوله للناس ناقدا أو استاذا ما يتعذر علىّ أداؤه بالعربية الفصحى . وبالتالى فان هذه المشكلة ليست من مشاكلى الشخصية فى التعبير الأدبى ، وقد جردت على مجلة «الرسالة» ومجلة «الثقافة» فى ١٩٦٤ و١٩٦٥ حملة مسعورة متصلة كانت المدفعية الثقيلة فيها ستة وعشرين مقالا مسلسلا كتبها عنى

الأستاذ محمود شاكر في «الرسالة» وكان محور هذه الحملة رأيي بأن المعرى كان مطلعا على تراث اليونان ورأيى بأن اللغة العامية تصلح أداة للتعبير الأدبى . أما نقد نظرياتى فى المعرى فقد كان أمرا مفهوما بغض النظر عن شطط الاستاذ الناقد في التعبير عن قصده لأن بحثى «على هامش الغفران» الذى نشرته فى جريدة الأهرام كان متعاصرا مع مقالات الأستاذ الناقد وغيره من الناقدين ، ولكن الذى عجز الناس عن فهمه هو تركيز نقادى على نظريتى فى أصالة التعبير الأدبى العامى ، رغم أنى لم أكتب شيئا فى هذا الموضوع منذ ثمانية عشر عاما ، وتصويرى فى صورة أداة يحركها المبشرون والمستعمرون للقضاء على اللغة العربية رغم أن آرائى فى العامية والفصحى ليست إلا امتدادا لخط طويل يمتد نظريا من ابن خلدون إلى رفاعة الطهطاوى إلى لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى ويمتد عمليا من شعراء الموشحات الاندلسية والمواليا إلى عثمان جلال إلى بيرم التونسى إلى صلاح جاهين وعشرات من كتاب المسرح المعروفين فى السنوات المائة الأخيرة . وهكذا بدأت أتصور احتمال أن يكون تصدى حسنين محمود حسنين «كنارى» لنشر نموذج من هذه التجربة العامية جزءا من مخطط الحملة الرجعية المجردة على فى

مجلات وزارة الثقافة بقصد تغذية هذه الحملة بعد أن مجها الناس لتكرار كلامها ولاسفافها لعلها أن تمتد بعملية نقل الدم هذه ستة وعشرين مقالا آخر . ولكن رغم هذا الغضب وهذا القلق فان شعوري بالفرح لظهور الكتاب الضائع كان أقوى من كل شعور آخر .

وكانت هناك أسئلة عديدة تملأ رأسي لم يكن هناك مناص من الاجابة عنها : من يكون كناري هذا ؟ ماذا يريد ؟ وكيف وصلت أصول الكتاب إلى يده ومتى ؟ وكيف يمكن استردادها منه ؟ وماذا ينبغي أن يكون موقفي منه بعد أن حجب عني أصول كتابي أو بعد أن سمح لنفسه بالتصرف فيها دون إذن مني ؟ وماذا ينبغي أن أفعل بالكتاب لو نجحت في استرداده ؟

استطعت أن استنتج أن كناري وحسنين محمود حسنين شخص واحد ، وأن استنتج أيضا أنه صحفي من صحفيي الاسكندرية ، ولكن بقي الدليل طبعا . أما : ماذا يريد ؟ فقد بقي سؤالا حائرا في رأسي ، ولاسيما وان الطريقة التي نشرت بها هذه الملزمة كانت تدعو للحيرة حقا . فبعد أن قرأت الملزمة تيقنت من أنها أمينة كل الأمانة فهي لا تشتمل على كلمة واحدة يمكن أن تكون قد دست عليّ . ولم أستطع بالطبع أن أقطع إن كانت تمثل

النص بحذافيره ، فليس هناك من يدعى أنه مستطيع أن يتذكر شيئا كتبه قبل ثلاثة وعشرين عاما كلمة بكلمة ، وانما المهم لم تشتمل على كلمة واحدة لا تدخل بداهة في حدود ذكرياتي وطريقتي فى التعبير .. كذلك لم تكن هناك أية محاولة لاخفاء شئ من الحقائق عن عملية النشر فاسم الناشر معلن وعنوانه معلن وحتى إذا افترضنا أن كنارى وحسنين محمود حسنين شخصان مختلفان ، فعنوان دار النشر كاف لاقتفاء أثر جميع الأطراف المشتركين فى العملية . فاذا كانت الامانة متوفرة وإذا كانت العلانية متوفرة فلابد إذن من افتراض حد أدنى من حسن النية . ولكن بالرغم من بيان الأستاذ المحقق والمكتشف كنارى بأنه ينشر هذا النموذج ايمانا منه بأن العمل الأدبى يدخل فى نطاق الملكية العامة مهما كان رأى صاحبه فيه . فان اختيار هذا الوقت بالذات لنشر الملزمة الأولى ، وهو وقت تعرضى للحملة المفتعلة المسعورة التى شنتها علىَّ مجلات وزارة الثقافة الرجعية كان كفيلا بأن يدفع إلى الريبة ، ولاسيما بعد ضياع النص أكثر من عشرين عاما ، ثم أن عدم استئذانى فى النشر رغم أنى يسير المنال عن طريق خطاب أو زيارة كان سببا أدعى للاشتباه فى مقاصد هذا الرجل .

والحق أنى لم أعرف كيف ينبغى أن أتصرف إزاء هذا الرجل . فكرت أن أكتب إليه خطابا أشكره فيه على محافظته على أصول الكتاب أو أعرب فيه عن سعادتى لعثوره عليه ولكنى عدلت ، لأن مثل هذا الخطاب يمكن أن يستخدم حجة تسقط حقى فى مقاضاته لتصرفه فى شئ لا يملكه . ولم يكن لهذا الموضوع وجهه المادى فحسب ، بل كان له وجهه الأدبى أيضا ، فلو أنى عثرت شخصيا على أصول «مذكرات طالب بعثة» بين أوراقى القديمة ، فربما كان هناك احتمال قوى أن أقرر حفظه فى درجى أعواما أخرى قبل نشره ، وربما كان هناك احتمال قوى أن أوصى بعدم نشره قبل موتى بعشر سنوات ، فالكتاب مهدى «لماديلف برنيه : واهبة السعادة» وهى آنسة فرنسية كنت أحبها أيام التلمذة فى انجلترا ، أى قبل أن أتزوج ، الا أنى لا أرى أن من اللياقة أن يشهر رجل متزوج غرامياته القديمة على رءوس الأشهاد ، ثم أنى بطبعى لا أؤمن بالسماح لاشباح الماضى أن تتجول فى الحاضر دون حسيب أو رقيب ، ولو اتخذت هذه الاشباح ثياب الفن أو الأدب ، إن «مذكرات طالب بعثة» يمثل تجاربى الشخصية وآرائى بين ١٩٣٧ و١٩٤٠ ، أى منذ أكثر من ربع قرن . وقد انطوت هذه الحقبة من حياتى بخيرها وشرها ولا أرى ضرورة لاستحضارها .

فضلا عن أن ربع قرن من النمو والمكابدة قد جعلنى أراجع كثيرا من المعتقدات التى كنت أتبناها فى شبابى الأول فأعدل عن بعضها وأنقح بعضها الآخر . وأعتقد أنه لازال حقا من حقوق الإنسان أن يحجب عن الناس معتقداته وانطباعاته الأولى ، ولاسيما إذا كانت لا تمثل متعقداته وانطباعاته فى كهولته المتأخرة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن موقفى من العامية والفصحى قد انتهى نهاية طبيعية فى ١٩٤٧ بحيث لم يعد لى منذ ذلك التاريخ موقف من العامية والفصحى ، باعتبار أنى أعلنت فى مقدمة «بلوتولاند» أن كل جدل «نظرى» حول هذا الموضوع عديم القيمة وأن المشكلة لا حل لها سلبا أو ايجابا إلا بالممارسة ، وصلنا إلى نتيجة شبه محققة وهى أن «كنارى» لو كان قد أعاد إلى كتابى الضائع عام ١٩٦٥ بدلا من اجترائه على نشر فصل منه لكان الأرجح أن أطويه بين ما أطوى من أوراق الماضى فلا يرى النور إلا بعد وفاتى . ومن هنا تستطيع أن تفهم مبلغ حيرتى فى الاجابة على هذا السؤال :

ترى كيف اتصرف ازاء هذا الرجل ؟ ترى كيف أتصرف بهذا الكتاب إذا اتيح لى أن أسترده . ان كتابى - أيا كانت قيمته - يعد جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر الثقافى أبان الحرب العالمية

الثانية وما قبلها .. أأشكر كنارى إذن لأنه أخرج إلى النور جزءا من تاريخ مصر الثقافى أم أسبه لأنه نبش قبور الموتى واستخرج منها هياكل وجماجم كان ينبغى أن تظل راقدة فى بطن الأرض ؟ وهكذا وجدتنى أمسك بالقلم وأسطر رسالة لكنارى من قلبى فى الأهرام تبدأ هكذا : «سيدى العزيز ، وصلتنى نسخة من كتابك .. أقصد من كتابى ..» ثم يتوقف القلم . لم يكن بد من العدول عن الكتابة إلى كنارى ، إن أمثال هذه الأمور لا تحل إلا باللقاء الشخصى . ولكن متى ؟ ربما بعد شهر . ربما بعد عام . شئ واحد رسخ فى ذهنى ، وهو أن أسعى إلى لقاء كنارى بأية طريقة من الطرق لاسترداد الكتاب ، وأن أعجل بهذا اللقاء ما استطعت إلى ذلكم سبيلا . فظاهر الحال يدل على أنه كان ينتوى أن ينشر كتابى كله مسلسلا على دفعات شهرية .

وكنت بينى وبين نفسى أنظر فى يأس إلى هذا اللقاء . فكثرة أعبائى فى القاهرة جعلتنى أشك فى لقاء قريب ، وبدأت أستسلم ليأس غريب . فليفعل كنارى بكتابى ما يشاء .. فلينشره مسلسلا أو دفعة واحدة أو فليقذف به بين أمواج البحر المالح .. أليس هو مكتشفه وصاحبه ؟ لقد انفصل الكتاب عنى منذ أن ضاع منى

نحو عام ١٩٤٥ . وبعد أسبوع واحد .. ثم كان استسلامى قد بلغ تمامه ومداه فكففت عن التفكير فى الموضوع .

ثم حدث شئ أليم قلب كل تفكيرى رأسا على عقب . فقد مات الدكتور محمد مندور فى ١٩ مايو ١٩٦٥ ، أى بعد نحو اسبوعين من وصول المطبوع إلى يدى . وجلست أعد مقالا للأهرام فى تأبينه ، فأخذت أراجع كتبه فى مكتبتى فوقعت عينى على هذه العبارة فى كتابه «النقد والنقاد المعاصرون» فى معرض الحديث عنى وعما كان بيننا من علاقة فكرية صميمة أثناء تعاصرنا فى أوروبا أيام الطلب :

«ومن المؤكد أن أهم عوامل التجارب بينى وبين لويس عوض كان الظمأ المشترك للمعرفة ، واحساسنا بأننا لم نسافر إلى أوروبا لنبحث عن هذه المعرفة فى بطون الكتب وحدها والا لاستقدمنا الكتب وما احتجنا إلى تحمل مشاق الغربة ، ولهذا أذكر أننى لم أنفق وقتا طويلا فى ارشاد لويس عوض إلى ما سألنى عنه عند زيارته الأولى لباريس عن المراجع الفرنسية التى تعالج موضوع (لغة الشعر) الذى كان يدرسه عندئذ للحصول على درجة جامعية فيه ، بينما انفقت الوقت كله فى اشراكه معى فى تأمل ودراسة مشاهد الحياة وأساليبها ومعالم الماضى التى خلفتها

الحضارة الفرنسية على صفحة باريس وأمكنه الوحى والالهام منها ، ولقد علمت من لويس ومن بعض الأصدقاء أنه كان قد دون هذه الذكريات فى كتاب كبير ولكنه ظل مخطوطا حتى ضاع منه ، وكم آسفت لضياعه وكأننى فقدت جزءا من نفسى» .

وما أن فرغت من قراءة هذه العبارة حتى عضنى ألم فظيع وتذكرت كل شئ .. كنت قد نسيت محتويات كتابى فذكرتنى هذه العبارة بفصول كاملة فيه ، وتذكرت كيف كان مندور يستحثنى عاما بعد عام بين ١٩٤٥ و١٩٥٠ للبحث عن كتابى الضائع بغية نشره ، ووصلت إلى قرار : ان هذا الكتاب ليس ملكا لى وحدى وانما هو ملك عام كما قال كنارى فى كلمته . انه سجل لفترة من تاريخنا الثقافى ، ومن الخطأ أن يطوى هذا السجل . وأبسط آيات الوفاء لذكرى هذا الصديق العظيم هو أن استرجع هذا الكتاب وأن أنشره فى الناس ، فأنشر بنشره صفحات من حياة مندور فى أوروبا لا يعرفها إلا الأقلون . وهكذا قررت أن أسافر إلى الاسكندرية باحثا عن كنارى فان استحال الاهتداء إليه فلأبحث عن «دار النشر للجميع» ، وهى الدار التى صدر عنها النموذج المطبوع .

وبعد يومين أو ثلاثة من وفاة مندور وجدتني في بيته مع السيدة الشاعرة ملك عبدالعزيز ، زوجته ، أستعين بها على جمع بعض مقالاته القديمة . وهناك التقيت بالصديق الفريد فرج ، والذى جاء في مهمة مشابهة ، وكنت أعلم أنه من الاسكندرية .. فسألته عرضا عن كنارى . وكم كانت دهشتى حين عرفت منه أنه يعرفه شخصيا . وعلمت من الفريد فرج أن كنارى هو حسنين محمود حسنين نفسه ، وأن العنوان المنشور على الغلاف هو عنوانه . كذلك عرفت منه أنه صحفى اسكندرى أصاب من العلم حظا لا بأس به ، ولكنه رجل غريب الأطوار . ورجوت الفريد فرج أن ينوب عني في انقاذ الكتاب ، وأن يسافر بشخصه إلى الاسكندرية فورا لاستنقاذه ، وفوضته في أن يعرض على كنارى أى عرض مالى أو أدبى يقبله مقابل رد الكتاب ، فقد كان واضحا في ذهني أن نشر هذا الكتاب قد أصبح بعض ما ينبغي عمله لاحياء ذكرى مندور بغض النظر عن أى اعتبار آخر . فوعدنى الفريد فرج بأن يتكفل بهذه المهمة ..

ومرت ثلاثة أيام أو أربعة اكتشفت بعدها أن ألفريد فرج لم يسافر بشخصه إلى الاسكندرية وانما لجأ إلى سلسلة من المكالمات التليفونية مع أخيه نبيل فرج المقيم على مقربة من كنارى

فى الاسكندرية . وكانت نتائج المفاوضات مع كنارى لا توحى بالاطمئنان . فقد علمت أنه كان يماطل ويراوغ ثم يعد ثم يعدل . وأخيرا رتبت معه مكالمة تليفونية مباشرة فى بيت نبيل فرج فى العاشرة مساء . وكنت فى هذه المكالمة حاسما . أصررت على موعد وحددت يوم الخميس ٢٧مايو ١٩٦٥ في داره بالاسكندرية . حاول التسويف متعللا بالحضور إلى القاهرة ، ولكنه أدرك من لهجتى فى التليفون أن صبرى قد نفد . وبالفعل ، فى الموعد المحدد كنت أنا والفريد فرج ونبيل فرج فى غرفة استقباله ، وبعد لأى سلمنى الأصول تسلمتها بعد ساعتين من المراوغة واللف والدوران وادعاء أن الأصول ليست فى حوزته ولكنها لدى طرف ثالث . تسلمتها بعد أن خرجت عن طورى فحدثته بغلظة عن القانون والمحاكم والسجون والغرامات . وكان يحفظ الأصول عند السيدة زوجته فى الغرفة المجاورة . فزعم أنه ماض لاحضارها من مكان ما فى الاسكندرية ، وخرج بالكتاب تحت أبطه وذهب يسير به على غير هدى فى الشوارع وفى الاوتوبيسات والتراموايات لا يعرف كيف يتصرف هكذا أبلغنى فيما بعد . ثم عاد إلينا بعد نصف ساعة وقد هداه الله إلى الحل القويم فسلم الأصول . وبعد أن سلم الأصول تحول كنارى إلى إنسان وديع وأخذ يتردد علىّ

في فندق المتروبول ، ويحدثني عن نفسه وماضيه الأدبى ومشروعاته .. وعرفت منه أن الكتاب آل إليه منذ عشرين سنة عن طريق قريب أو صديق له كان يعمل فى رقابة النشر أثناء سنوات الحرب .

كذلك فهمت منه أنه لم يكن يتصور أول الأمر أنى لا أملك نسخة من كتابى وأن نسخته هى الوحيدة الباقية ، بل كان يحسب أنى قد طويت كتابى عامدا متعمدا طول هذه السنوات ، وانه أراد بنشر الملزمة أن يضعنى أمام الأمر الواقع . وقد أرسل منها نسخا لكل أديب من أدباء مصر بالبريد وأنه باع نحو ألف نسخة في أسابيع قليلة فاسترد نفقات الطبع وربما ربح بعض المال . والحق انى وجدت كنارى رجلا معقدا من طراز غير مألوف ، فهو خليط غريب من المثالية ومن الالتواء ، وبعد أن عدت إلى القاهرة اتفقت مع دار «روزاليوسف» على نشر «مذكرات طالب بعثة» في سلسلة الكتاب الذهبى . لقد خرج الأمر من يدى منذ أن نشر كنارى قسما من الكتاب على الملأ ولم يبق إلا أن ينشر النص كاملا .

بقيت كلمة عن الكتاب نفسه وكيف جاء إلى الوجود . كنت بعد عودتى من كامبريدج فى سبتمبر ١٩٤٠ كثير التفكير فى مشكلة اللغة والتعبير الأدبى شعرا ونثرا ، أما ما يسمى عادة بمشكلة العامية والفصحى . وقد انتهيت قبل ذلك بسنوات إلى امكان قيام شعر بالعامية والفصحى . وقد انتهيت قبل ذلك بسنوات إلى امكان قيام شعر بالعامية يتجاور تجاورا شرعيا مع أدب الفصحى دون أن يوجد بالضرورة أى تعارض بينهما . وقد أجريت بالفعل بعض التجارب فى هذا الاتجاه بين ١٩٣٧ و١٩٤٠ ظلت تتداول بين المثقفين فى جامعة القاهرة وخارج جامعة القاهرة منسوخة على الآلة الكاتبة حتى نشرتها عام ١٩٤٧ فى ديوان «بلوتولاند» والحق أنه لم يكن فى كلامى جديد إلا الطريقة التى عبرت بها عن آرائى .

هذا ما كان من أمر الشعر العربى . أما النثر العربى ، فلم تظهر له مشكلة فى تاريخ أدبنا الا حينما تصدينا لكتاب حوار المسرح وحوار القصة ، وقد انتصرت العامية فى حوار المسرح فى العشرينات ، وأراد توفيق الحكيم فى الثلاثينات أن يتمم ما بدأه الرواد فى العشرينات وما قبلها ولكن طه حسين وجماعة الفصحى

تكاثروا عليه فتراجع عن الحوار العامى فى المسرح والرواية جميعا . ولم يفكر أحد أن تجربة التعبير العامى يمكن أن تمتد إلى نسيج النثر الفنى بأشمل معانيه ، فتمتد إلى لغة السرد والوصف والتحليل ، لم يفكر فى ذلك أحد إلا بيرم التونسى الذى كتب فى الثلاثينات «السيد ومراته فى باريس» ، وهو وصف فكاهى ساخر لغربته فى المنفى ، كتبه بيرم التونسى بالعامية من ألفه إلى يائه .

وقد التهمت هذا الكتاب التهاما ولم يلبث أن فتح أمامى آفاقا فى تجارب اللغة .. كان «مذكرات طالب بعثة» ثمرتها المباشرة . فقد أوحت إلىَّ تجربة بيرم التونسى أن أتمم عمله بعرض الوجه الآخر من الصورة . فبيرم التونسى قد جرب بنجاح النثر العامى فى لغة السرد والوصف والتحليل ، ولكن فى حدود الفكاهة والباروديا البرليسكة والتعبير الكوميدى بوجه عام ، وهى كلها فنون من الأدب يسوغ فيها استعمال العامية لقربها الشديد من الحياة اليومية .

وهكذا فكرت فى أن أجرب النثر العامى فى لغة السرد والوصف والتحليل ، ولكن فى حدود الفكر الجاد والعواطف السامية بل والقصد التراجيدى ، وبهذا استكشف امكانيات اللغة العامية عمليا لا نظريا وبالتجربة لا بمجرد الافتراض والدعوى .

فى أغراض أستقر فى عرف المثقفين أنها لا تصلح لها . أقول المثقفين لأن الأدب الشعبى استخدم منذ قرون طويلة العامية الفنية دون حرج وبدون تردد . واستخدمها بنجاح فى فن الحدوتة وفى فن المثل السائر .

ولم يكن بيرم التونسى وحده فى ذهنى عندما جلست فى منزل الأسرة بمدينة المنيا ذات صيف فى عام ١٩٤٢ أدون «مذكرات طالب بعثة» ، أن تقليد تدوين الانطباعات عن الرحلات الكبيرة له تاريخ طويل فى أدبنا الحديث ، وأول من وضع أساسه هو رفاعة الطهطاوى فى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» ١٨٣٤ الذى وصف فيه اقامته فى باريس بين ١٨٢٧ و١٨٣٠ وسجل انطباعاته عن الحضارة الفرنسية فى جيله . ثم تلاه أحمد فارس الشدياق فى «الساق على الساق» ١٨٥٢ وفى كتابه «الواسطة إلى معرفة مالطة ١٨٥٤» وفى كتاب «كشف المخبأ فى فنون أوروبا» (١٨٥٤) وغير ذلك من أدب الرحلات والمذكرات حتى ظهور «الأيام» لطه حسين فى العشرينات من هذا القرن ومذكرات فى الثلاثينات من هذا القرن ومذكرات توفيق الحكيم العديدة التى صدرت فى الثلاثينات والاربعينات . ولا فرق فى المنهج بين هذه المدونات العظيمة سوى أن بعض أصحابها كتبوا عن أشخاصهم أكثر مما

كتبوا عن مشاهداتهم. وقد أوحت إليّ كل هذه الأعمال أن أتأثر خطى هؤلاء الرواد فأنقل صورة أوروبا وحضارتها في وجدان شاب مصرى زارها بين ١٩٣٧ و١٩٤٠ ، ولكن مستخدما تجربة بيرم التونسي في استكشاف امكانيات اللغة العامية . فعلت ذلك في ١٩٤٢ قبل أن تزول من ذاكرتى الانطباعات العديدة التى تركتها رحلتى الأوروبية في جنانى ووجدانى وقد راعيت أن أبدأ وصف تجربتى منذ أول يوم غادرت فيه مصر حتى يوم عودتى إليها وقد عدت إلي مصر بعد نشوب الحرب العالمية الثانية بنحو عام ، وكان ممر جبل طارق مغلقا يومئذ بسبب ظروف الحرب ، ومن هنا أتيح لى أن أعود عن طريق رأس الرجاء الصالح فانتفعت من هذه التجربة ايما انتفاع .

ثم شرعت في نشر هذا الكتاب وكانت الحرب لا تزال قائمة فقدمته لرقابة النشر في ٢٥ أكتوبر ١٩٤٤ مكتوبا على الآلة الكاتبة ، ولا استبعد أنى أودعت في الرقابة ثلاث نسخ على الأقل وقد كانت لى مع رقابة النشر يومئذ مغامرة تستحق التسجيل . فقد فوجئت بعد شهر من تقديم الكتاب بأن الرقابة لم تراقبه أو على الأصح لم تقرأه بقصد اجازته للنشر ، فقصدت إلى مدير الرقابة وكان يومئذ استاذى البروفسور ر. أ. فيرنس رئيس قسم

اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكان قد انتدب طوال مدة الحرب من الجامعة إلى وزارة الداخلية ليتولى وظيفة الرقيب العام . زرته فى مكتبه بوزارة الداخلية لاستفسر عن تأخر مراقبة الكتاب . فقال لى . «بصراحة أنا أعطيته للرقيب الشيخ فلان ليراقبه (نسيت الآن اسم هذا الرقيب) ، وقد أبلغنى أنه معترض على صدور الكتاب» .

قلت : «وما وجه اعتراضه ؟» .

أجاب : «قال أن الكتاب مكتوب بالعامية والكتب لا ينبغى أن تصدر إلا بالفصحى» .

قلت : «هل يمكن أن أتفاهم مع هذا الرقيب ؟» .

أجاب : «نعم» . ثم رفع سماعة التليفون ، وبعد دقيقتين دخل علينا شيخ معمم فى منتصف العمر ، وجادلته فى الأمر ، فحاول اقناعى بأن أعيد كتابة هذه المذكرات باللغة الفصحى وأن أعيد تقديمها إلى الرقابة .

فأجبته بغلظة بعد أن يئست من التفاهم معه : «ولماذا لا تطلب مصادرة أعمال بيرم التونسى ومسرحيات الريحانى وكافة القصائد والدواوين التى تظهر باللغة العامية ؟ .. ثم اسمح لى أن أذكرك أن كل هذا الحرص على سلامة اللغة العربية يتنافى مع

عملك فى خدمة الامبراطورية البريطانية كرقيب على ما ينشره المصريون فى بلادهم» .

وكان الأستاذ فيرنس يجيد اللغة العربية ، الفصحى منها والعامية ، قراءة وكتابة وكلاما ، بحكم تخصصه فيها وبحكم اقامته المديدة فى مصر أكثر من ثلاثين سنة . ورأى فيرنس أنى ألتهبت فحاول تهدئتى ولكنه انحاز إلى جانب الشيخ .

فقلت : «هل هناك قانون من قوانين الدولة ينص على عدم جواز الكتابة بالعامية ؟ إن كان هناك قانون بهذا المعنى فانى أطلب الاطلاع عليه . أنا لا أطالب إلا بحقوقى القانونية» .

وهنا حدث اشكال .. قال الاستاذ فيرنس متدبزا : «مادام الشيخ فلان يرفض مراقبة كتابك فليس أمامى إلا أن أحيله إلى رقيب آخر . هل تقبل هذا الحل ؟

قلت : «هذا شأنكم ، أما أنا فأطلب اجازة كتابى للنشر» .

ومن جديد رفع سماعة التليفون وهمس فيها ، وبعد دقيقتين دخل علينا رقيب آخر ، وكان هذه المرة «أفندى» قصير القامة إلى درجة ملفتة للنظر يميل إلى السمرة . وقدمه إلىّ الأستاذ فيرنس قائلا : «الأستاذ توفيق صليب ، لعلك سمعت عنه» . وصافحت الرجل ، وكنت أسمع عنه سوءا ، لأسوءا شخصيا ، ولكن سوءا

سياسيا محوره تعاونه مع الحكومات الدكتاتورية في مصر ، فحملقت فيه وبدا على وجهى التطير ، ثم أستأذنت وانصرفت .

وحققت الأيام تشاؤمى . فبعد أسبوع وجدت نفسى من جديد فى رقابة النشر اتسلم من الأستاذ توفيق صليب نسخة من كتابى ختمت كل صفحة من صفحاتها بختم أحمر بيضاوى يقول «حذف بمعرفة الرقيب» . أو شيئا من هذا القبيل ، وقلبت صفحات الكتاب صفحة صفحة فسقط فكي من فرط الدهشة لأنى وجدت أن الأستاذ توفيق صليب قد أعمل القلم الأزرق بغزارة فى صفحات الكتاب .. ولست أذكر الآن كل تفاصيل ما شطب ، ولكن يحضرنى أنه ضرب بالقلم الأزرق على كل فقرة أو صفحة جاء فيها ذكر للحرب أو تعريض أو زراية بالانجليز أو وصف لمشكلة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا . وأخذت أجادله فيما فعل ولكن دون جدوى . جدار أصم ولكن فى منتهى الأدب واللباقة : «أنت تنسى يا أستاذ عوض أننا فى حالة حرب» «أنت تنسى يا أستاذ عوض أننا حلفاء انجلترا» . ولكى تعرف سخافة ما شطب فتأمل هذا الحوار : «لا داعى لأن تقول : الانجليز اللى تعبونا من سنة ١٨٨٢» . «وماذا أقول إذن ؟» «قل : الانجليز اللى عرفناهم من سنة ١٨٨٢» «ولكن أقصد أن أقول : اللى تعبونا .»

«هذه تعد دعاية ضد انجلترا» . أو «كيف تقول أن أولاد اللوردات في جامعة كامبريدج يسرقون ؟» . «ولكنهم بالفعل كانوا يسرقون . وأنا كنت هناك ورأيتهم يسرقون .» «أنت تعلم أنه ليس كل ما يعرف يقال» . أو : «أنت تصف المصريين وهم يركبون ظهور الانجليز السكارى وهذا يصور الانجليز فى صورة زرية» إلخ .... مئات من العبارات والسطور والفقرات وعديد من الصفحات الكاملة قرئت بعناية وشطبت بعناية ومعها فصل كامل عن رحلتى إلى جنوب افريقيا .

قال : «الآن تستطيع أن تنشر كتابك يا أستاذ عوض .»

أجبت : «أنا أفضل أن أحرقه بيدى عن أن أنشره على هذه الصورة المبتورة .» وكان في كلامى القاسى ما يكفى لأن يجعلنا نتشاتم لولا أدب الرجل ودبلوماسيته الشديدة .

وهكذا خرجت من وزارة الداخلية انتفض غيظا ومعى النسخة المختومة من كتابى ، وقد انتهيت إلى قرار : لن يخرج هذا الكتاب إلى النور الا فى صورته الكاملة عندما ترفع الرقابة بعد الحرب بأذن الله .

(بين قوسين : مرت سنوات عديدة ثم قرأت فى الصحف نعى المرحوم الاستاذ توفيق صليب واستلفت نظرى أن النعى يصفه

بالمجاهد الكبير ، وكنت فى نقابة الصحفيين وأثارت هذه العبارة فضولى فاستفسرت من بعض الصحفيين المسنين عن «جهاد» الأستاذ توفيق صليب فأجابنى عاجبا من جهلى :

ألا تعرف أن الأستاذ توفيق صليب كان فى طليعة الفدائيين فى ثورة ١٩١٩ ، وانه حكم عليه بالاعدام أو بالسجن المؤبد فى قنبلة كذا أو فى اغتيال كذا ؟» .

وتذكرت كل كلمة دارت بينى وبينه فى مبنى وزارة الداخلية فى خريف ١٩٤٤ ، وأطرقت . قالت نفسى : سبحان مغير الأحوال . رحمه الله ورحمنا رحمة واسعة . وتعلمت «لا أدين الناس . كلنا خطاءون كما قال الحديث الشريف) .

ثم ضاعت منى أصول الكتاب فى ظروف لا أذكرها ، وانما المحقق انها ضاعت قبل ربيع ١٩٤٧ ، ففى مقدمة ديوانى «بلوتولاند» الذى صدر فى تلك الفترة أشارة إلى ضياع هذا النص منى ، ضاع بعد أن أطلع عليه عديد من الأصدقاء أذكر منهم الآن الصديق محمد عودة ، ولست أذكر أن كان محمد مندور قد أطلع عليه أم لا ولكن الذى لاشك فيه أنه كان يعلم بوجود الكتاب . ولكم كنت أتمنى أن أعثر على نسخة من النسخ المختومة فى الرقابة ، سواء نسختى الضائعة أو نسخة الرقابة التى تجرى عليها

المضاهاة عند النشر ، لأن اثبات ما شطبته الرقابة على وجه الدقة يمكن أن يكون مفتاحا فى أيدى مؤرخى الفكر والسياسة لحالتنا الفكرية والسياسية أبان الحرب العالمية الثانية .

لقد نبش كنارى قبرا من قبور الماضى الدارس بعد ربع قرن من الزمان ، بعد أن تغير وجه مصر وتغير وجه أوروبا وصوح قلب صاحب هذا الكتاب في خريف العمر فلم يعد ابن الثانية والعشرين الذى خرج من مصر غازيا وعاد إليها غازيا وكان خياله يكسو كل شئ ببردة من الأحلام . ولست أدرى إن كان كنارى قد استخرج لنا من بطن الأرض عظمة أو استخرج لنا كنزا كما يسميه . ولكن أيا كان الحكم على هذا الكتاب فهو وثيقة تاريخية نرى منها جانبا من صورة مصر وجانبا من صورة أوروبا وجانبا من صورة فتى مصرى متفتح كان يريد أن يجتبى الدنيا فى أعطافه بين ١٩٣٧ و١٩٤٠ .

«لويس عوض»

القاهرة فى ٣٠ يوليو ١٩٦٥

كلمة «كنارى»

ثارت ثائرة بعض أصدقائى الأدباء عندما أعلنت اعتزامى نشر رسائل أحمد محرم شاعر العروبة والاسلام ، وفيها يبتدئ الرجل بأمل عريض ثم ينتهى إلى يأس قاتل . وفى هذه الرسائل يختفى الشاعر العملاق وراء ظهر صحفى شاب لا يتجاوز الثالثة والعشرين .. وقال الأدباء يومئذ أن نشر تلك الرسائل جريمة ضد الصداقة ، وجريمة ضد الامانة وضد الثقة التى وضعها أحمد محرم فى شخصى الضعيف . ولكن رسائل محرم لم يكن من حقى ولا فى استطاعتى أن أكتبها وأخفيها عن النقاد والدارسين لأنها جزء من مصادر دراسة هذا الشاعر الكبير ، حتى أن إذاعة البرنامج الثانى من القاهرة يوم أن أرادت اعداد برنامج عن حياة الشاعر لم تجد مرجعا لحياته غير ذلك الكتاب «رسائل أحمد محرم» فأذاعت الكتاب بأكمله .

واليوم أقدم للأدباء والنقاد والدارسين كتابا آخر اكشف فيه عن عمل أدبى قديم لأديب كبير كتبه عام ١٩٤٢ ولم يكن المؤلف يومئذ من الشهرة والمجد الأدبى ما يجعل فى كتابه ما يغرى الناشرين على تحمل مخاطرة نشره .

وكان النشر فى تلك الحقبة من سني الحرب العالمية الثانية وما بعدها مجازفة دونها المضاربة فى بورصة الأوراق المالية وبورصة عقود القطن ثم تغير كل شئ . لقد أصبحت دور النشر العربية تنتج كتابا كل ساعة أو بعض ساعة وأصبحت فرص النشر متاحة للكتاب الهواة قبل الكتاب المحترفين الراسخين . وانتقل مؤلفنا من كرسى الجامعة وأصبح مشرفا على القسم الأدبى فى أكبر صحف الشرق وأقدمها جريدة الأهرام . ونشر المؤلف كتبا فى كل مجالات الأدب إلا هذا الكتاب فلم ينشره ولم يشأ حتى أن يشير إليه ولو اشارة عابرة فى سياق ما يكتبه ويسوده من مقالات .

وكان هذا الكتاب قد ضاع أو لكأنه نسى أنه كتب مثل هذا الكتاب أو لكأنه تشكك فى نجاح تجربته وأحس بالوجل من تقديمها للأدباء والنقاد بل لعله أحرق تجربته عامدا كما أحرق الدكتور ابراهيم ناجى صحائف ديوانه من قبل ، ولكن هل يملك لويس عوض أن يصادر كتابه بعد أن جرى به قلمه ؟ لقد أراد قبله الدكتور ابراهيم ناجى أن يصادر شعره فاستعصى الأمر عليه . ولم تمنع النار تلك الصفحات أن تعود من جديد ليقرأها آلاف القراء ولو كره الشاعر الكبير .

فليس من حق الفنان أن يتحكم فى انتاجه ينشر منه ما يشاء ويخفى ما يشاء . فكل ورقة فى درج الفنان ملك للأدباء الدارسين حتى ولو كانت خطابا إلى زوجته أو عرضحال لمد مدة الخدمة بعد بلوغ سن التقاعد كقصيدة الشاعر القاضى حفنى بك ناصف إلى وزير الحقانية . ولعل صاحب هذا الكتاب هـو أدرى النـاس بقيمة هذه الآثار فى دراسة حـيـاة أى أديب . لهـذا رأيت أن أزيح الستـار عن هذا الكتـاب وأن أدل على مـخـبئـه مئات من الأدباء والدارسين لأسمع ماذا يقولون ولعل رأى المؤلف فى ذلك هو آخر ما نطمع فيه .

«كنارى»

(١) ..... رحت قاعد لك على كرسى الاعتراف وحطيت قدامى طقطوقة أرو قديم بوهيتها راحت ومعصفة حبر . روحى تملي وايدى تكتب مافيش تصحيح ولا تنقيح ولا تردد ولا كسوف .. اشمعنى والتر سكوت كان بيكتب والمطبعجية بيصفوا ؟ اشمعنى

---

(١) عندما سلم «كنارى» إلىّ أصول الكتاب فى مايو ١٩٦٥ ، وجدت أن الصفحتين الأوليين ناقصتان . ولا أنكر إن كان الرقيب هو الذى نزعهما فى فترة عرض الكتاب علي الرقابة عام ١٩٤٤ ، أم انهما نزعتا بفعل فاعل فى تاريخ لاحق . وواضح أن الازالة تمت باستخدام الموس فى نزع الصفحتين .

بلزاك كان بيكتب تمنتاشر ساعة ع القهوة السودا ؟ رحت يا أفندم حاطط لك دبابيس في كرسي الاعتراف عشان روحي ماتعسلش من التعب واشتريت لك كام رطل بن محمصين أقرش فيهم طول الوقت عشان جسمي يبقى دينامو مش ناقص لا جاز ولا تشحيم .

قعدت على كرسي الاعتراف وابتديت أكتب ، وآدي اللي كتبته :

الحر ومكتب البعثات

ركبت القطر اللى بيقوم من المنيا قبل الفجر وبيوصل الساعة ٨ الصبح . وكنت فى حالة انفعال عجيبة . تصور واحد يلاقى آماله المهمة كلها تتحقق بالسهولة دى ، المنيا مهما كانت بلد صغيرة ولما واحد يكون خياله نشيط وأحلامه كثيرة مش ممكن يبقي سعيد ف علبة السردين دى . أنا عاوز أروح انجلترا عاوز أشوف نهر التيمز ، وستمنستر ، سوهو ، برج لندن ، بيكاديللى ، سانت بول ، البحيرات ، عايز أشوف الكارت بوستال يبقى حقيقة قدامى ، عاوز أعاشر الناس اللى تعبونا في مصر من سنة ١٨٨٢ . عاوز أعيش ف مرتفاعات وذرنج وبطاح يوركشير مع كاثرين وهيثكليف . بلاد الثلج والمطر والضباب البنى اللى ف قصايد مستر اليوت . أنا عمرى ما شفت ثلج غير ف السينما والمطر بتاعنا الدش أجمد منه ، أما الشابورة (هنا ما فيش ضباب) فين هيه بعدما تفوت بتاعت اللبن ؟ إلى لندن إذن على بركة الله .

كل الصور دى ملت راسى لدرجة أنى نسيت الكرسى الخشب اللى هو أفخادى وأنا قاعد ف الترسو ، وبعد ساعة الشمس طلعت

من ورا المقطم . طلعت بره ف الطرقة اللى بين العربيات عشان ما أشوف رع اللى أجدادى عبدوه قبل ما يسخن ويحرق الخيمة الزرقا ويلهب العشب ويكفر اللى ما يكفرش كان فيه سحابتين جنب بعض فوق سن الجبل على طول. أما بقية السما أطلس زاهى مفروش أزرء م اللى أنا عارف .

لكن دى آخر مرة حاشوف فيها الطبيعة المصرية . لما الواحد يروح يعزى تلاقيه يحضر نفسه للعزا من غير تصنع أحياناً . أنا مش قصدى لبس البدلة الغامقة والطربوش ، إنما قصدى أن وش الواحد نفسه تلاقيه يطول من غير ما يكون زعلان صحيح ، وأن لاحظت كويس تلاقى شىء خفيف من الوجوم يهد الجسم شوية ويكسر العين ويلوى الشفايف . أنا كتير لاحظت الحكاية دى ف نفسى وأنا ف مياتم ناس كان المفروض أنى أزعل عليهم . وأنا بطبيعتى ما أقدرش أزعل قدام الناس. يمكن أنا لوحدى ابكى ع الميت لكن مجرد وجودى مع الناس يخلينى شخص هادى، ومع ذلك ب ألاقى نفسى ساعة ما أخش الميتم أحط على وشى شوية وجوم وقلبى ف منتهى عدم الاكتراث . ممكن تقدر تسمى دا استعداد للعاطفة .

العملية دى بتحصل ف كل المواقف المؤثرة معايا مثلا مرة انتحر واحد من أعز أصحابى (١) وكنت ف جروبى القديم مع واحد صاحبي اسمه سكوت واطسون (٢) . لما قريت الخبر ف الأهرام قريت الخبر كأنه خبر انتداب موظف ف وزارة الزراعة للعمل ف جمع الدودة . طبعا قريت الخبر خمس ست مرات وفهمت معناه المخيف تمام ، ومع ذلك كان قدامي آيس كريم فضلت آكل فيه وأنا مستغرب ازاى طعمه ما اتغيرش ف بقى . كان لازم طعمه يتغير . مش حلمي رفاعي مات ؟ وازاى أنا لسه قاعد مع سكوت واطسون ؟ كان لازم أقوم بسرعة وأروح أعمل حاجة . أروح المشرحة اشترك ف دفنه، أشوف أهله وأصحابنا المشتركين ، أنا مستنى أيه ؟

والأغرب من كده أني مش زعلان حقيقي ، انكسفت من نفسي

---

(١) اسمه حلمى رفاعى وقد امتدت صداقتنا طوال فترة الطلب فى المنيا الثانوية ثم كلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول يومئذ) وكان متخصصا فى التاريخ ثم اشتغل بالتدريس فى الفنون التطبيقية وانتحر عام ١٩٤٣ .

(٢) كان صحفيا انجليزيا واستاذا للصحافة بجامعة القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية ثم مات فى حادثة سيارة فى فرنسا سنة ١٩٦٢ أو ١٩٦٣ .

أني مش زعلان كما يجب . واتهمت نفسي بالبلادة والأنانية ، بل بالشـــذوذ ويمكن الجنون .. يجب أني أزعل . قـــمت من سكات حطيت شوية وجوم على وشي . ولكن أمتى ؟ بعدما أكلت الآيس كريم أو تصفحت الجرنال من تاني قال يعني ب أقرأ الخبر لأول مرة .. خفت أحسن سكوت واطسون يستغرب أني عارف أن صاحبي مات وبرضه قاعد آكل آيس كريم ، فتحت الحكاية وسألني قوم قلت له ففتح البورص وقرأ فيها الخبر وتأسف ف كلمتين وقال «معلهش ما تقدرش تعمل حاجة دلوقت» ده كان كلام صحيح .

لكن لسه فضلت مكسوف ف نفسي من الجمود بتاعي . خفت أحسن أكون ماكنتش با أحب حلمي رفاعي حقيقي لكن أنا متأكد أني ما حبتش واحد في الدنيا أكتر مما حبيت حلمي ومش اكتر من اتنين تلاته قد ما حبيته . ودا خوفني اكتر . المهم ، قعدت من الساعة حداشر للساعة اتناشر ونص ف جروبي ، مش زعلان لكن ب استعد للزعل وأخيرا قمت بطبيعة الحال عشان اشوف الحكاية دي .

وإذا كنت عاوز تعرف قد ايه أنا كنت ب أحب حلمي ده ؟

كفاية أني أقول لك أني بعدها قعدت مدة أصطاد أصحابي

عشان يسهروا معايه للصبح ، وقعدت خايف من النوم حوالى شهر وزيادة ، وهربت من مصر وجيت ع المنيا عند عيلتى عشان ما أدفع الوحدة وانسى . كل الاستطراد دا بس عشان أدى لك فكرة واضحة عن شعورى وأنا فى القطر اللى هايودينى أوروبا . الغيمتين اللى كلمتك عنهم فضلوا قدامى تلت ساعة ومش عارف ليه ألوانهم كانت جميلة لدرجة أنى فاكرهم لحد دلوقت . الغيمتين كانوا بيخبوا الشمس ، والشمس كانت بتخبى سن الجبل الرمادى، والشروق أصبح زى الشفق النادر اللى بيحصل مرة كل مدد وتلاقى فيه سيفونية من الألوان دايما تخلص قبل ما تشبع منها . وأنا ما أعرفش اذ كان الشروق فى الريف دايما جميل ولا لأ . لأنى ماعشتش فى الريف وما ب أصحاش قبل الضحى ف الاجازات ولا قبل الصبح العريض ف أيام العمل . الفلاحين يمكن يدروا يقولوا لك .

المهم أنا فضلت قاعد ع القضيب الأفقى اللى بره عربية الترسو ومتشعبط ف القضيب العمودى أبص مشرق والقطر مبحر، والأرض مبسوطة قدامى أميال والنيل مش باين وف مدى النظر حيطة تقيلة ودى تلال المقطم ، قعدت أتأمل ف الغيطان وأسلاك التليفون طالعة نازلة ، ونخل الريف اللى طالع قطيع قطيع

وتحته البيوت الطين ، والتراب ملا أجفاني لكن أحتملته ساعتين ف ساعة الوداع . كنت ب أودع الريف المصرى بحرارة . الريف المصرى اللى كنت بحن له وعمرى ما عشت فيه صحيح .

كانت عواطفى ف اللحظة دى من نوع العواطف اللى وصفتها .. وأنا سايب مصر ، وربما إلى الأبد، فلازم أبص على أرض بلادى وأتملى وآخذ زاد يكفينى أربع سنين . ما حستش أنى زى سايح بيوشف حاجة مش حايشوفها تانى . إنما جالى حنين للوطن وأنا لسه ف أرض الوطن . وكان سببه أنى استعديت للموقف بكل عواطفى وأنا ب أحط رجلى فى القطر يعنى حطيت ف وشى حبة فرح زى ماب أحط ف وشى شوية وجوم عند الكوارث وأذكيت العاطفة بالتفكير المستمر ف الموضوع . حتى لما عديت الواسطى ابتديت أبص مغرب عشان أودعهم هرم ، فهرم فهرم ، فهرم .

لكن أنا ماكنتش رايح المركب ، أنا كنت نازل ف مصر اكشف كشف طبى وكل الانفعال الظاهرى اللى اعترانى فى السكة كان منشؤه أنى مش راجع المنيا تانى ولما نزلت مصر ابتديت ألف وادوخ لى كام يوم . أنا مش فاكر أن كان لى مرة شغلة مع الحكومة وما تعبتش . كل الناس بيقولوا لى كمان أنهم بيتعبوا مع

الحكومة ودى مسألة خطيرة جدا ح أشرحها بالتفصيل لما ييجى وقتها ، مش بس من باب السرد لكن عشان أعلم الناس أنهم ما يسكتوش عليها وكمان عشان أثبت أن السياسيين والناس اللى عاملين سياسيين ف مصر لازم يبتدوا ومن دلوقت يدوروا على طريقة يصلحوا بيها الأداة الحكومية من تحت الأرض . المثل العامى بيقول أن يوم الحكومة بسنة . الكلام دا سمعته وأنا ف الابتدائية ومافهمتش معناه تمام قبل ما اتخرج وابتدى يبقى لى احتكاك رسمى بالحكومة لكن اللى أنا مندهش له هو أن فيه آلاف الناس عارفة الحكاية دى والجرايد طول عمرها تتكلم ف نفس الموضوع واللى ف أيدهم الحكومة شاعرين بالموقف تمام . ومع ذلك ومافيش تغيير بيحصل والحكومة المصرية دلوقت زى ما كانت من أيام ما نظمها بوغوص نوبار باشا ف القرن اللى فات .

الشاهد أنا مش فاكر كل اللى حصل لى من أغسطس ١٩٣٧ لحد ١٤ اكتوبر ف نفس السنة . فاكر أنى سافرت مصر بناء على جواب مستعجل جدا من الوزارة بيقول لى أحضر لتوقيع الكشف الطبى عليك تانى لأنك سقطت ف النظر ف الكشف الأولانى.

طبعاً أنا كنت محتاط للأمر ورحت عملت نضارة جديدة تنجحنى .. رحت الكومسيون قالو بكره بعده ، بكره بعده، اسمك ماجاش .. أنت مين ؟ يوم السبت يا أستاذ .. يادكتور ايه الحكاية؟

انتم مش كشفتم على قبل كده ؟ لكن يا أستاذ أنا مقيد بورق قدامى روح شوف ف الوزارة سبب التأخير ايه ؟

رحت الوزارة .. «روح الكومسيون احنا خلاص بعتنا ورقك».

رحت الكومسيون «مانعرفكش» . الوزارة . الكومسيون الوزارة . نهايته كشفت ونجحت .

فى الأثناء دى وأنا ب أتردد ع الوزارة كان لازم أقول لهم أنى معتذر عن بعثة الوزارة ، وقابل بعثة الجامعة ، فمش فاهم أية السبب ، كان فيه موظف هناك فى مركز مسئول ف سكرتارية البعثات (١) كان بيحاول طول الوقت يضغط علىّ عشان أعكس المسألة واعتذر عن بعثة الجامعة . دخلت عليه يوم من الأيام وقلت «سعيدة يابيه» .

«سعيدة مبارك يا افندم» .

«أنا اسمى لويس عوض وعايز اعتذر عن بعثة الوزارة » .

«ليه كفى الله الشر؟» .

«أبدا المسألة أن الجامعة طلبانى لكامبريدج» يظهر أنه كان عرف حكايتى فانعدل ف كرسيه وحاول أنه يكون رقيق معايه ..

«ماتتفضل تقعد» .

---

(١) الكاتب الكوميدى المعروف ابراهيم رمزى .

قعدت . الراجل كان شوية يتعب ف وصفه . كان قصير وتخين واسمراني بس مش قوى . انما كان عليه حتة شنب من اللى ب يقف عليهم الصقر . وماكانش غبى أبداً ، ولا كان حتى يتظاهر بالسلطة، أنما كان راسى وراسخ فى مكتبه ، ويباشر ادارته ف وثوق : مش الوثوق المكتسب من الروتين ، انما وثوق الشخص من أنه صاحب كلمة . أنا كنت اسمع عنه كتير ف غير حدود عمله من قبل ما يخلينا الحظ نتقابل . فيه ناس كتير كمان ف مصر يعرفوه، لأنه كاتب معروف ، أشتهر بسبب كوميديا كان ألفها زمان ونجحت (١) .

على أى حال أنا ماقريتهاش وما أعرفش أن كان كتب غيرها والا لأ . المهم . الراجل دا كان مزيج من حاجات كتيره مثلا كان شديد المزاح زى كتير من الناس التخان . ساعة تقول عليه «بون أوم» وساعة تقول عليه «جالان» وساعة تقول عليه «ريجولو» ، قعدت وأنا متهيب وكان فيه بنات طالعة وداخله ما أعرفهمش من بتوع البعثات طبعا، أهملنى كام دقيقة وبعدين بص لى وقال :

«أنت حكايتك لطيفة أنما يا ابنى لازم تتروى قبل ما تختار » .

«أنا اترويت خلاص» .

---

(١) «دخول الحمام مش زى خروجه» .

ما تخليك معانا يا ابني وتسيبك من الجامعة».

«متشكر يابيه ، لكن كامبريدج أنسب لي ».

دا احنا نريحك يا ابني ، بس أنت روح اكستر وأنا متأكد أننا ح نفهمك كويس لما ترجع .

استغربت شوية . الراجل بيسمسر للوزارة والا ايه ؟ والا يكونش له غرض أنا مش فاهمه ؟ الحاجه كسفني وعرقت، لأنه كان مزيج من الحنان الأبوى والنصيحة الخالصة وعدم التكليف .. لكن دى مسألة خطيرة مافيهاش كسوف طبعاً . حاولت أني اقرأ اللى في مخه مافلحتش . ايه يعنى بس يكون الغرض ؟ سكت شوية قام حاول يضرب على نقطة حساسة . «أنت باين عليك يا ابنى من الشباب النابغين واحنا لازم نحتفظ بيك».

«العفو ياسعادة البيه . لا نبوغ ولا حاجة ، دى كلها مسألة شغل» . صحيح أنا كنت الوحيد اللى أخد البكالوريوس فى الأدب الانجليزى بامتياز ، ودى كانت أول سنة يطبقوا فيها نظام الامتياز. صحيح أنا واخد ٨٦٪ وبينى وبين التانى ٤٨ نمرة . صحيح أني كنت ب اعتقد ف نفسى أني نابغ من ساعة ما كان عمرى حداشر سنه . ماتعيبش على . لأن فيه ناس كتير كدا ويمكن أنت منهم . وكل واحد مريحه عقله . لكن دى مسألة خطيرة

مافيهاش لا كسوف ولا عبط أنا قدامي فرصة لازم ما أفوتهاش قلت «أنا متأسف قوى يابيه، أنما أنا مصمم على بعثة الجامعة . كان بودى أتعاون معاكم أنما الظروف كده والمستقبل ماحدش يعرفه» صمت . نظر ف الورقة اللى قدامه . التفات للبنات اللى كانوا قاعدين على حرف الشباك وحرف الكنبة . انصراف كامل عنى . وأنا مستنى . مستنى ولا هو هنا . ابتديت امتعض ، ابتديت افور . وأخينا بالرقة بتاعته اتفرغ للزباين التانيين . وأخيرا رسمت على وشى ابتسامة خفيفة ونبهته . «أنا هنا يابيه» التفت لى ، وأتأمل كم ثانية وبعدين قال :

«شوف يا ابنى أنت مش كنت سقطت فى الكشف الطبى ؟»

عرفت أنه دارس – الدوسيهات اللى قدامه تمام . «ايوه يابيه . لكن أنا غيرت النضارة وليه فرصة تانية» .

«وأن سقطت ؟» .

«ليه فرصة تالتة» .

«وان سقطت؟» .

«يبقى هاردلك يبقى خلاص حظى كده». وماحبتش أقول أنى ساعتها مثلا أفوت على عميد كلية الآداب واشرح له الموقف وهو

كله نظر (١) . ماحبتش أقول له أن كلية الآداب يمكن صحيح تكون عايزاني تقوم تتساهل ف المسألة . ماحبتش أخش في مناقشة يمكن قبل أوانها . وطبعا أنا مش مغفل أورى كل الكروته اللى في ايدى لراجل بيكسر مقاديفى . ابتديت أخاف . وبالأخص لأن الناس كانوا قالوا لى أن فلان دا هو الكل فى الكل ف اللجنة الاستشارية للبعثات .

قال لى شوف . أنا مستعد أن أقبلك زى ما أنت . عندك ستة على تسعة وستة على اتناشر مش كدا ؟

«أيوة يابيه » وأضفت فى حزم غريب «لكن أنا متأسف يابيه» أنا لازم أمشى ف حكاية الجامعة دى للآخر . وزى ما تيجى . غالبا النضارة الجديدة تجيب ستة على تسعة وستة على تسعة أنا عاوز أدرس أدب . أنا عاوز أدرس . اشتغل . مش أروح ألعب سنتين ف اكستر وأرجع بدبلوم بتاع أجانب ، أنا عاوز أبقى مسئول وعاوز سكة مفتوحة . أنا مع الجامعة إلى النهاية» قام بص لى بصة جديدة ، فهمت أن عنده سلاح جديد ونزلت القنبلة .

«لكن هى فين بعثة الجامعة دى يا استاذ» أحنا ما نعرفش حاجة عنها».

---

(١) الدكتور طه حسين.

المسـألة قلبت جد . ابتديت انتبـه لكل كلمة تنقال قلت له : «مجلس الكلية طلبها ف جلسة كذا ومجلس الجامعة وافق عليها ف جلسة كذا . تبقى الجامعة هاتبعتني بعثة ، ولا أية؟».

– «يمكن . دلوقت لكن لحد دلوقت أنت مالكش عندنا غير بعثة واحدة، ودى بتاعت الوزارة .. يافلان افندى . هات دوسيه سى لويس» .

المعروف عن فلان أفندى دا أنه كان ننوس عين البيه اللى أنا بأحكى عنه . دخل فلان أفندى بالدوسيه وحطه ع المكتب . ويظهر أنه كان متتبع المناقشة من أولها لأنه اشترك ف الموضوع على طول .

– «أيوه يابيه . الاستاذ لويس مالوش غير بعثة واحدة».

البيه فر الوق . وقال لى بلهجة كزيهة معناها ضبطتك ياشاطر . والا ما تقولى يابابا .. «لويز حنا خليل عوض أفندى . أيوه ياسيدى . بعثة واحدة مافيش غيرها لا جامعة ولا يجزنون أيه رأيك يابطل ؟ برضه مصمم ع الجامعة ؟ أنا : »

«طبعاً » ، هو :

«طيب هات لى يافلان أفندى ريشة وفرخ ورق يعتذر دلوقت أهوه عن بعثة الوزارة » .

أنا «خائفا» «اشمعنى دلوقت أهوه ما أنا باجى كل يوم» .

هو «دلوقت أهو ياتقبل ياتسيبها لغيرك . احنا مش عاوزين نضيع وقت . فيه شبان غيرك كتير يتمنوا أنهم يروحوا اكستر ، احنا لازم نبت ف الأمر بسرعة لأن التعطيل فيه ضرر . بس أنا ب أحذرك . إذا اعتذرت دلوقت يعنى خلاص راحت منك لأننا ح نكون ارتبطنا بغيرك . واضح ؟».

أنا «بديهى» .

هو «كمان ريشة يا فلان افندى» .

أنا «مرسى، عندى قلم» .

ابتديت اكتب ف اعتذار . أهى قلبت غم ، أنا خفت صحيح .. طيب وإذا ما جتش التانية . يبقى ايه العمل ؟ يبقى أمرى إلى الله؟ دى تبقى نكبة وسوء تصرف مش أمرى إلى الله ؟ لكن ليه يعنى ماتجيش التانية ؟ لازم الورق زمانه فى البوستة.

لكن مين يعرف ؟ يمكن ياواد يكون فيه تعصب زى ما بيقولوا مش بعيد . مش معقول دا مش لعب عيال . مش بعيد .. يمكن الموظف دا يقف ف وشى لوجه الله ف اللجنة الاستشارية . مش بعيد ، مش معقول ، أيه المناسبة ؟ يمكن المالية (١) تقول ماعنديش فلوس لبعثة أدب . جايز . يمكن واحد يكون عنده

---

(١) وزارة الخزانة

واسطة يئوط الشغلة . مش معقول . يعنى هاياخدوا مين ؟ أول دفعة السنة اللى فاتت أو اللي قبلها أو اللى أو اللى قبلها ؟ لكن مافيش فايدة . اللى مايغامرش عمره ما يكسب . المسألة عاوزه حزم وبت سريع .. اعتذر . ورحت ماضى الاعتذار «اتفضل يابيه» «مع الشكر يابنى ، أنت ونصيبك ».

قضى الأمر . والله باين أن السبع بدل اللى فصلتهم ف المنيا قبل ما آجى هاييوظوا علىَّ . ربنا يسترها . يبقى السموكنج مالوش فايدة وبدلة الجولف أديها لواحد سايس . ومن شدة خوفى فكرت أنى أقدم طلب لمعهد التربية أحسن لا أطول عنب الشام ولا تمر اليمن وألاقى نفسى السنة الجاية بادرس ف أهلى أو داير اتهلف ف الشوارع . مجرد فكرة عابرة ومافيش طلب اتبعت .. الصبر طيب . ومنظر يمخانة المعهد وحياة القشلاقات السخيف اللى فيه باسم النظام أو التربية الاجتماعية اتجسموا ف خيالى وصرفت نظر . الرزق على الله وابقى ساعتها أرجع المنيا أسكن بلاش مع عيلتى وادرس لى بخمسة ستة جنيه ف الاقباط الكبرى بالمنيا زى ما بيسموها .

طبعا ساعتها أنا كنت خام ما أعرفش حاجة عن الكتبة اللى فى بدرونات ادارة الجامعة اللى اشى ارشيف ، واشى مستخدمين واشى قلم مراجعة واشى قلم شطب واشى كانى واشى مانى .

ماكنتش أعرف حاجة عن الكتبة اللى ف وزارة المعارف العمومية اللى خلونى ف يوم من الأيام افكر جديا ف الانتحار . طبعا كنت أقرأ ف الجرايد انتقادات على الروتين الحكومى لكن الحاجات دى مافهمتش معناها الحقيقى إلا بعدين بالتدريج .

رحت تاني يوم الصبح بسلامة نية لسكرتارية البعثات ، وحتي ابتسمت للموظفين اللى هناك . وأنا فاهم وهم فاهمين أنا بابتسم ليه ، عشان أمشي الشغل . قال عامل حويط أو مدردح ماتفهمش :

«الجواب وصل؟» .

– «جواب ايه» .

– «جواب الجامعة اللى فيه بعثتى» .

«لا يا أفندم . ماتقعد يالويس أفندى نجيب لك قهوة» .

وتانى يوم برضه : «الجواب وصل؟» .

– «أن شاء الله يوصل بالسلامة . ما تتفضل نجيب لك قهوة».

تالت يوم : «ياواد يازين هات فنجان قهوة مضبوط . ياسيدى الجواب لسه ».

رابع يوم – مافيش قهوة . مافيش تكليف . مافيش جواب .

خامس يوم ، سادس يوم . كفاية عد مافيش فايدة . ف الاثناء دى كانت حصلت حاجات تانية زى نجاحى فى الكشف الطبى

مـثـلا . كـمـان فلوسي خلصت ، أنا دايما فلوسي بتـخلص . واضطريت أني أدرس كام تلميذ مدة شـهر ، واحد كان ف الكفاءة وتلاتة كـانوا ف سنة تانيـة ف كليـة الآداب من قسم الأنجليزى . وكلهم بالصدفة نجحوا . القصد أهوه كله تحايل ع المعايش لحد مـا يفـرجـهـا . أتارى الجـواب وأنا مش دارى قـاعـد ف ادارة الجامعة، هناك ف قلم تحسين الخطوط بيكتبو فيه نص يوليو وطول أغسطس ونص سبـتمـبـر بالخط الثلث والنسخ والرقعة والكوفى والبصرى المكعب والطره .

وصل الجواب فمافضلش غير موافقة اللجنة الاستشارية .. لكن اللجنة الاستشارية دى زى ما قالوا لى . مابتنعقدش غير مرة كل تلات أربع أشـهـر . موت يا حـمـار طلبوا منى أنى أمـضـى استمارات فيها شروط أهمها أنى أخدم الحكومة سبع سنين .. أفـتكر وأني مـا اتجـوزش ف أوروبا وأن الحكومـة مش مـسـئـولة قانونا عني بعد ما أرجع .. شروط مجحفة من غير شك .

نهـايتـه أنا طولت فـى الكلام ع البـعـثـات . زى مـا قلت لك أنا مضيت ع الاقرارات دى كلها ، مضيت ع الكلام دا وسبتهم وأنا فاكر أن الشغلة خلصت وأنى خلاص سافرت بس واقف ع التذاكر . وفات اسبوع ومافيش خبر ع التذاكر . واخيرا رحت لسكرتارية البعـثـات أسـأل قام حصل حـادث مضـحك .. قابلت الأفندى اللى

كنت كلمتك عنه ، مش الموظف الكبير ، الموظف الصغير ..

هو : يا أخي دا أنا كنت ب أدور عليك بالحلاوة -

أنا : ليه خير أن شاء الله ..

هو : خير .. انت بس ياسيدى مامضتش زى الأصول .

أنا : ليه ؟ أنا اسمي لويس عوض ومضيت لويس عوض مافيش غلط ..

هو : فيه .. أنت مش اسمك لويس عوض أنت اسمك لويس حنا خليل عوض .. زى ما ف شهادة الميلاد ..

أنا كنت دايما باتضايق من الجزء الوسطاني من اسمي لأنى كنت دايما حاسس أنه طويل وبايخ .. اتغاظت قوى وسألته : هو ضرورى اكتب اسمي بالكامل ؟

«أيوه ضرورى» .

رحت كاتب لويس حنا خليل عوض ، ولما قرأها رجع تانى يقارف في ايمانى .

هو : لا يا أستاذ ، أنت مش أسمك لويس لكن لويز

أنا : لويز ؟ كلام ايه دا ؟ دا لويز اسم بنت .

«هو» مش مهم شهادة الميلاد بتقول لويز مش لويس»

أنا : « وأنا ذنبى إيه إذا كان حلاق الصحة إللى حرر الورقة كان جاهل ؟

«هو : أنا ماليش دعوة ، أنا مقيد بأوراق رسمية» .

أنا : «لا ، أنا أكتب حنا خليل معلهش ، لكن لويز لا . مش ممكن .

«هو : أنت حر ، يعني أنت متنازل عن البعثة» .

أنا : «ازاي ؟ مين قال كدا ؟» .

هو : «احنا عاوزين واحد اسمه لويز حنا خليل عوض اذا كان اسم حضرتك لويس حنا خليل عوض فماتكونش حضرتك الشخص اللى احنا عاوزينه».

حاجة تنرفز . ورحت مانت نفسي والأمر لله . بأه لما مسجل جامعة كامبريدج يبعث لكم جواب عن مستر عوض تعرفني ولما أنا أمضى اسمى الكامل لويس حنا خليل عوض ماتعرفونيش ؟ وأنا خارج الأفندى ميل على يوشوشنى وأفضى لى بسر خطير :

«عملت طيب يا استاذ لويس . تعرف لو كنت صممت ع الاسم التانى كانت راحت منك البعثة».

شفت بقى أنا ها اسيب الكلام ده من غير تعليق ، تعرف بعد التعطيل دا كله أنا أخدت التذاكر يوم كام وسافرت يوم كام ؟ استلمت التذاكر يوم ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٧ وسافرت يوم ١٤ اكتوبر .. ف يوم ١٣ اكتوبر استلمت التذاكر وصرفت شيك بخمستاشر جنيه مصاريف استعداد للسفر كل دا لحد الساعة

واحدة بين المعارف والمالية وبعد الضهر طلعت فيزا لانجلترا وفيزا لفرنسا وبعت تلغراف لأهلي أودعهم واشتريت شوية هدوم وضربت تليفون لمستر فيرنس (١) أقول له جودباى ويوم ١٤ الصبح كنت فى قطر اسكندرية ومعايا ابن عمى بيودعني واتنين ثلاثة من أصحابى . والساعة اتناشر كنت ع الكوثر (٢) أبص ع المينا بتتحرك قدامى . والشيالين اللى ف جلاليب وسخة والعساكر اللى فى بدل بيضا وصناديق البضاعة والونشات اللى منظرها بشع وشوية المودعين المفركشين ع الرصيف البعيد بيبعدوا شوية شوية .

---

(١) رئيس قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب (جامعة القاهرة) .

(٢) «المحرر» : الكوثر وزمزم والنيل أول بواخر مصرية اشترتها شركة مصر الملاحة حوالى ١٩٣٤.

فى عرض البحر

كل المسافرين اتلموا على جنب المركب اللى ببص ع المينا وكل اللى ع المينا هزوا منادلهم ، والمركب ماتفهم ماشية ولا واقفة والرصيف بيبعد بشكل محسوس . ومن دون الخلق دى كلها أنا وحدى ماليش حد يهزلى منديل . كأنى مقطوع من شجرة . قعدت أدعى سرى على موظف البعثات النطع اللى أخذنى ف دوكة لويس ولويز وضيع على الفرصة أنى أشوف أهلى ، وعلى نظام الكتبة الحكوميين اللى يخليك تلات أشهر بورق ومذكرات وف آخر أربعة وعشرين ساعة يعمل كل الحاجات المهمة .

بصيت قدامى وحوالى وقدامى وف كل اتجاه ، لأن دى كانت لحظة دقيقة فى تاريخ حياتى وحسيت أنى لازم أتنبه لكل حاجة بتحصل وأحاول أفتكرها للمستقبل . زى ما هى عادتى كل ما أمر ف تجربة جديدة . لقيت مصر بعيدة . مصر . الوداع يا مصر . يامجمع حبى ومعقد آمالى ، الوداع يامصر ، أنا قريت كتير ف الروايات والجرايد عن وداع الوطن والأهل والأحباب والموقف مسرحى جاهز ، والباقى على . قمت اتركنت ع الحاجز وأرسلت عينى للمدى واستغرقت ف تأمل حوالين محور واحد الوداع يا

وطنى ، وسرحت سرحة نصها تكلف ونصها شعور صادق . ف الوقت دا كان جنبى على طول بنت من بنات البعثة كانت رايحة فرنسا ، وعنها وأبص ألاقيها لك ف وسط الكلام تشير بالدموع .. «الله .. الله ما تعمليش كده يافاطمة . أنت صغيرة ولا أية ؟ ، وراقت فاطمة والساحل ، يعنى مصر ، لسه ما اختفاش خالص . قعدت زى العادة أحلل شعورى . اشمعنى يعنى البنى أدمين دول كلهم ليهم قلب وأنا ماليش ؟ اشمعنى يعنى أنا مش زعلان . حتى السرحان اللى سرحته بعد التحليل لاقيته أغلبه بوز مصطنع . أنت فاكر البوزات العاطفية اللى كلمتك عنها ف الفصل اللى فات أهى رجعت لى ف الوقت ده .

ولقيت نفسى باستعد بعقلى للعاطفة المرغوبة خد عندك محاورات غريبة مفتعلة بين الرأس والقلب زى - الرأس : «الوداع يامصر» القلب : «الوداع ياوطنى الغالى» الرأس - «ازاى ما أزعلش وأنا ما ها أغيب أربع سنين ».. القلب «معلوم» (فرصة قلبية الرأس . «الساحل القديم ده أديله ساعتين بيختفى ولسه) القلب : «وما أصفى سماك يامصر» (اهىء .. اهىء .. اهىء) .

وبالرغم من كل المناجيات الداخلية ، مافيش حاجة دخلت على بعكس ناس كتير أنا مش من السهل على أنى أضحك على نفسى

.. أنا كنت فاهم أن كل ده «موقف» لازم تأديته ، لازم زى ما تروح الجامع كل يوم جمعة . عادة الاستبطان عندى من أشنع العادات لأنها بتبوظ طعم الحياة . أحب واحدة أقوم أحلل ف شعورى لحد الحب ما ينشف «صحيح أنا باحبها؟» ، «ليه أنا باحبها؟» ، «أد أيه أنا باحبها ؟ اد ميت جنيه ؟ لا أكتر . أد شهادة الدكتوراه ؟ لا أقل . أد عشر سنين من عمرى ؟ ايوه . اد سنتين سجن ؟ لا ياعم يفتح الله » وهكذا دواليك زى برنس هاملت ، حياتى كلها كده مش كده ؟ آه ، لأ .. ليه ؟ وازاى ؟ وامتى ؟ وفين ؟ كمان أنا سايب مصر قوم لازم أتأسف بالغصب ولما آخد بالى أن أسفى مفتعل اقعد اشتم ف نفسى ، واسأل ياترى ليه أنا مش زى بقية الناس .

اختفت مصر . وفاطمة فاقت : وأنا فقت واتنين وعشرين سنة من الماضى غرقوا ف الأمواج الباهتة اللى بينى وبين الشاطىء المسحور ، رحت انتقلت «للأستاربورد» زى ما بيسموه ، يعنى الدك اللى بيطل ع البحر مش ع المينا . وقعدت أتأمل ف أمواج الشاطىء المجهول ، الشاطىء اللى استكشفته ألف مرة بخيالى وأنا عيل ، ووأنا يافع ، ووأنا شاب ، الشاطىء اللى ياما روحى أويت إليه كل ما قريت الصاوى وتوفيق الحكيم كأنه وطنى الحقيقى اللى ماشفتوش من يوم ما خطفونى الفجر وأنا لسه رضيع

وجابوني مصر . أنا طول عمرى أحن الناحية التانية من البحر الأبيض ! ، وسبت الاستاربورد ورحت بوز المركب، طبعا ايه تنتظر من واحد بيدرس أدب زيي ؟ قعدت أفكر ف قصيدة «الفلاح القديم» بتاعت «كوليريدج» وأحلل في السطر المشهور ..

أى واحد ركب مركب ودقق ف حركة الأمواج من ورا لابد لاحظ أن الزبد مابيتبعشي السفينة لكن بيجرى بعيد عنها . وكمان المركب لما بتحرت المية لا الطاش ولا الحضان بتجرى ورا المركب لكن بتجرى بعيد عن المركب . وازاى كوليريدج يقول أنها كانت بتجرى وراها ؟ أنا عارف أن كوليريدج كان عارف الحكاية دى لكن ساب السطر زى ما هو عشان الجناس اللي فيه . وعشان الشعر ماحدش بيدقق فيه .. شوف شوقي بيقول :

تشكى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر

طيب وإذا أجل لبيد انتهى حايلحق يتشكى فين ؟ ف القبر : نهايته ، بصيت لقيت النظر ف الأمواج اتحول لمشكلة ف النقد الأدبى . هيه . أد أيه نتساهل مع الشاعر . رحت من سكات بطلت أبص ف الأمواج وابتديت أعمل ف رحلة استكشافية الغرض منها المعرفة والمنفعة ، ابتديت أدور أنا ساكن فين ، وبعدين دورت ع العفش بتاعى وبعدين نقلت العفش ف الكابين ، وبعدين خدت

حمام وغيرت هدومي ، تعرف لبست ايه ؟ لبست جاكته نورفولك وبنطلون جولف وطلعت أتمشى ع الدك . دى كان أول مرة ف حياتى ألبس بنطلون جولف ولذلك كنت مكسوف خالص . وخايف أحسن الشراب مثلا مايكونش ماشى مع البنطلون .. أنا أبقى اسلم أنه لازم فيه ع المركب ناس بيفهموا . كان كل همى أنى اتظاهر بعدم الاكتراث كأنى من لابسى البنطلونات الجولف طول عمرى مع أنى مافصلتش البدلة دى إلا لأن كان عندى فكرة أن الناس ف انجلترا بيلبسوا كده أحيانا ف السفر . ما أعرفش أنا جبت الفكرة دى منين يمكن من الروايات اللى قريتها يمكن من السينما . يمكن واحد قال لى . يمكن شفت واحد انجليزى عامل ف نفسه كده والحكاية جت سليمة لأن ماحدش أخد باله أن فيه حاجة غير عادية فى لبسى قمت اتشجعت وابتديت اتحرك . دورت على أصحابى ساكنين فين ، وشفت صالون الأكل ومش فاكر ايه تانى .

دى كانت أول مرة أركب فيها مركب ، وده كان السبب أنى كنت باسميها مرحلة استكشاف . وأؤكد لك أنى تعلمت ف يوم واحد حاجات كتير ماكنتش أعرفها ؛ لكن كل ما كانت تصادفنى حاجة جديدة كنت أشعر ببرودة تشبه البرودة الناشئة عن الفقر ،

والسبب ف كده معروف ، أحنا ف مصر لما واحد يورى أنه مش عارف حاجة معينة ، بالأخص حاجة من الحاجات المتصلة بأسباب المدنية ، يكون رد الفعل الطبيعى عندك أنك تضحك عليه وبعد كده تحاول أنك تشرح له المسألة بطريقة تخليه يحس طول الوقت بجهله ، أو أن كنت رجل طيب ، على الأقل بعلمك».

خد عندك مثلا حكاية «الجونج» بتاع الأكل ، أنا عمرى ماركبت مركب قبل كده فبديهى أنى ما أعرفش أنهم بيدقوا طبلة صاج زى بتوع المسحراتية ف رمضان قبل كل أكلة ، ويدوروا بيها ف مماشى المركب عشان ينبهوا الركاب ، كمان أنا جاى من عيلة متوسطة مابتقدش جرس ولا غيره قبل الأكل . يمكن الحاجة الوحيدة اللى تشبه دى وكانت فاتت على ، هى جرس الغدا بتاع مدرسة المنيا الثانوية ، ودى حكاية كنت نسيها آدى ست سنين . ثانيا دى طبلة ماتفهمش صاج والا نحاس والا زنك مش جرس يقول تن تن .. فلما سمعت الجونج أول مرة كنت متكى ع الحاجز باتفرج ع الموجة ازاى تندمج ف الموجة ، والموجة ازاى تنفصل من الموجة ، قوم مافهمتش الحكاية ايه . كل اللى لاحظته بعد كام دقيقة أن كل الناس اللى حواليه بيتحركوا ف اتجاه واحد . برضه لحد كده ما أخذتش بالى . استغربت شوية لكن ما أخذتش بالى

.. وبعد كام دقيقة كمان ، بصيت لقيت نفسى لوحدى ع الدك . ابتديت أجمع اتنين واتنين زى ما بقولوا الانجليز وجت البخة . راحوا فين ؟ وبعدين ؟ أروح فين ؟ طيب دا فيه صالونات كتيرة للأكل . أنا كنت عادتى أن ف الحاجات اللى تمس الكبرياء ما أسألش اللا الضرورة القصوى . حتى ف الضرورة القصوى أتحايل ف السؤال بقدر الأمكان ، طبعا أنا اتغيرت خالص دلوقت لكن ساعتها كنت أفضل أنى أستنى جاهل أو أنى اكتشف الحالة بنفسى ، عن كونى أسأل واحد غالبا يعرقنى مقابل ما هو بيفهمنى . نزلت الصالون اللى كنت اكتشفته بنفسى قبل كده ولحسن الحظ طلع هوه . دخلت لقيت كل الترابيزات مشغولة وأنا ملبوخ ، وعينى زايغة من الكسوف ، ما تفهمش ليه الكسوف ؟ انما ساعتها اتهيأ لى أن كل الناس بتبص لى . الفرض قعدت أتظاهر بأنى بأدور على محل وأنا واقف وأنا مش شايف حاجة أبدا . طبعا كان فيه خمس ست محلات فاضية منطره . لكن أنا من لبختى ماشفتش ، ولما شفت محلين فعلا اترددت ، أروح والا ما أروحش .. «يمكن الناس دول كلهم حجزوا وأنا غلطت اللى ماحجزتش» ، أخيرا جه المترودوتيل لحد عندى ورطن بالفرنساوى بسرعة .. مافهمتش حاجة طبعا انما عرفت أنه عاوز يريحنى .. مشيت وراه وفعلا لقيت

نفسى قاعد مع تلاته تانيين ما أعرفهمش خالص .. بعد صعوبة شوية اتعرفنا وزال التكليف ف خمس دقايق زى ما هى العادة بين المصريين .. واحد ابتدا ينكت - «تعرفوا حكاية الجريجى والالمانى؟» - «لأ» «مرة واحد جريجى وواحد المانى ركبوا نفس المركب ومن حظهم أنهم قعدوا قدام بعض ف سفره واحدة».

يظهر النكته كويسه .. ابتديت أندمج .. على الأقل موضوع النكته كان له مناسبة . استمر الأفندى - «ويعدين الالمانى حب يجامل الجريجى قام قال له (مالتسايت) ، مالتسايت معناها بالالمانى أتمنى لك شهية كويسة ، قام الجريجى افتكره بيعرفه بنفسه فرد عليه «بابا دوبولو» . وف معاد العشا قعدوا قدام بعض قام الألمانى ابتدا «مالتسايت» . الجريجى قال ف عقله يظهر يمكن الراجل ماسمعش الاسم كويس ف المرة الأولانية ، ورد بأدب «بابا دوبولو» تانى يوم الالمانى برضه ع الاكل قال للجريجى مالتسايت قام الجريجى اتضايق خالص وماردش عليه . وما صدق خلص من الأكل قام راح يشتكى لواحد صاحبه من جاره اللى كل أكلة يهوسه بمالتسايت ، قام صاحبه فهمه أن مالتسايت دى مش اسم الراجل ، انما معناها أنه بيتمنا له شهية كويسة قام الجريجى أتأسف خالص ولما جه العشا راح مالى وشه بالابتسامات وقال

للألماني بأدب كتير «مالتسايت» قام الالماني رد عليه «بابا نوبولو» آه ..

ضحكنا قوى . لأن دى أول نكته مؤدبة كنت سمعتها لمدة سنة. ع المركب اتعرفت بالاستاذ على عيسى المدرس بالمدارس الثانوية ، وبمدام عيسى ، وبسببهم الرحلة هانت قوى على .. كمان كان معانا الاستاذ عباس عمار المدرس بكلية الآداب والاستاذ قدرى المدرس بمعهد التربية والآنسة زينب شعرانى . الأول بتاع جغرافيا وكان رايح مانشستر والثانى بتاع علم نفس وكان رايح ردنج ، والتالتة بتاعت تربية وكانت رايحة بريستول ، أما بعثات فرنسا فكانت كتيرة .. ودول أغلبهم كانو من اللى اتخرجوا سنتها من قسم الفلسفة ف كلية الآداب بعتتهم الوزارة باريس عشان ياخدوا دبلومه فى تدريس اللغة الفرنسوية وبعدين يرجعوا يدرسوا فرنساوى ف ثانوى .

أنا مش فاكر حاجة أبدا عن ليالى البحر الأبيض المتوسط ، مش فاكر إذا كانت مقمرة والا سوده . مش فاكر شكل النجوم ف السما وف الميه وف خيالى اللى بيلون كل حاجة . لكن فاكر الريح اللى قامت واحنا ف بوغاز مسينا واستشاطت الأمواج ف ليلة من الليالى . دخلنا سالمين وطلعنا سالمين والبحر رجع حصيرة . شفت

أنا اللى امبـادوقليس وقف عليه بعـدمـا البشـر نبـذوه ف المنفى وشاور بعصايته السحرية لرياح المضيق فهاجت ، ولسه من يومها هايجه ، واضطربت العناصر الأربعة ومن جوف البركان ارتفع لسان من النار اتلقف النبى القديم . قريت أغنية كاليكيس عشر مرات ف ديوان ماثيو أرنولد وعينه حايره بين الكتاب وجبل النار ، لحد ما غاب الجبل بسحابه بضبابه ورا الهوا التقيل . ابتديت الكتب اللى كنت قريتها ف الخمس سنين الأخيرة يبقى لها معنى . لأن السما راح صفوها والبحر انطفا زى الرخام والهوا رطب جبينى لو كنت فاكر القصيدة اللى كتبها كريستوفر سكيف على أننا جبل الموت كنت نقلتها هنا . الفاتحة على روح انبا دوقليس النبى الشهيد قبل ارميا واشعيا وعيسى الأمين .

وصلنا جنوه يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٩٣٧ . كل اللى ع المركب نزلوا واتفرجوا ع البلد ، واتقسمنا شلل . شلل . واحنا فايتين على ظباط المينا اللى اشروا على باسبورتاتنا . أنا ماكانش معايا فلوس طليانية ساعتها . فرحت غيرت عشرة شلن من الاكشاك اللى ف ميدان المينا قالوا لنا روحوا المقبرة بتاع جنوة ، رحنا المقبرة بتاع جنوى ، تماثيل ايه ، وفريسكو ايه . ونضافة ايه . وهندسة ايه . يعنى مع المبالغة الكتيرة الواحد يتمنى يكون من

سكان جبانة جنوه ذات الجناين المتحدرة والتماثيل ، مافيش رهبة كتيرة لكن فيه جمال ومجهود واضح . يعنى تدى فكرة أن الموت نفسه له مباهج . وإن الواحد يقدر يمشى من عالم الاحياء لعالم الأموات من غير تكليف ، ومن غير ما يشعر بفرق كبير . الناس دول بيحترموا موتاهم . أما أحنا . مافيش لزوم للكلام . أنا مش من رواد المقابر لكن مرة رحت الامام الشافعي لما مات عبد الحكم الجراحي وعبد المجيد مرسى (١) وشفت التراب اللى ما يوحيش بغبار الموت أو جلال الزمن أنما يوحى بعفار وليورات سك حديد الحكومة المصرية لما تبص من الشباك .

إذا كنت عاوز تشوف مقبرة جنوه تعال تفرج ع الكارت بوستال اللى عندى . كمان عندى صورة تانية عن البياتزا ديلافيتوريا ، يعنى ميدان النصر . البلد نفسها عادية ومليانة حتت وسخة وحوارى ضيقة وبنى آدمين ف منتهى القذارة . الحتة اللى جنب المينا مثلا تفكرك بأوسخ أحياء مصر .. أما الميادين والشوارع الجميلة فمش ممكن تبقى جميلة زى اسكندرية ولا حتة نص اسكندرية .. اشتريت من جنوه جون جوانتى بمعرفش كام

(١) «المحرر» : عبد الحكم طالب الطب ، وعبد المجيد (اسكندرانى) طالب زراعة استشهدا برصاص الانجليز فى مظاهرات عام ١٩٣٥ التى جرح فيها الرئيس جمال عبد الناصر .

ليرة واشارب رخيص بحاجة تعادل شلن بس للذكرى . الجوانتى ضاع والاشارب أخدته واحدة ف انجلترا ومابقاش من نكرى جنوه غير صورة لسه حية ف ذهنى . منظر البلد العجيب من البحر وهى ماتعرفش مبنية على جبل والا ايه ، والجبل نفسه المكسى بالخضرة اللى مافيش انسجام بينها وبين سطوح البيوت المعمولة جمالونه حمرا .. ومع ذلك تلاقيها جميلة خالص .. المنظر دا ماشفتوش بعد كده غير ف فرى تاون عاصمة سيراليون ، وف كيب تاون .. البيوت طبعا شفت زيها كتير ، لكن البيوت اللى ع الجبل هى اللى دى اللى مافيش منها كتير ، كل ده حصل ف كام ساعة . لأن المركب قامت بينا ف نفس اليوم العصر . وأنا راجع المركب كنت باقابل قطعان من الفاشست بقمصان سودة ، أشى شبان واشى بنات واشى عيال سن تسع عشر سنين ، حتى ضباط المينا كانوا لابسين قمصان ملونة . لما وصلت ميدان المينا قابلت واحد من السفرجية بتوع الكوثر فسلمت عليه وقعدنا نتكلم وأخيرا اقترح على أنه ياخذنى يفرجنى على جنوه . قلب جنوه .. قعد الراجل يتكلم ف مواضيع الستات واللى البحارة بيعملوه لما ينزلوا كل مينا وأنا سايبه يتكلم .. طبعاً الحاجات اللى نكرها ماكانش فيها حاجة جديدة على ، لكن أنا كنت مبسوط من أنى أسمع

الكـــلام ده من واحـد بحار شـخـصـيا . أنا واحد من الناس على فكرة دائما مستعد أني أعمل أي عمل ف حدود المعقول عشـان ما أتعلم حـاجة ، أو حتى أشـــوف حـاجـــة جديدة .. حالة نفسية ربنا يحـميك منها . وكمـان حـدود المعقول عندى مطاطـة قـــوى لدرجـة أن بعض الناس المتصلين بى بيفكروا أحيانا أنى مـجنون مثـلا تبص تلاقـينى أحب أسـهـر للصبح من غيـر أى غرض .. أو أسـافر ميتين كيلو لأنى عاوز أشوف واحد من غير ما أعرف هوه مـوجـود ف البلد والا مـش مـوجـود أو حـتى أعرف عنوانـــه ، أو أبعت تلـغراف لأنى كـسـلان أكتب جواب ، أو أقـعـد ف لندن تلات أسـابيع مـسـتنى فـيـزا لفـرنسـا أيام باريس مـاكـانت بتـسلم . فماتستـغربش أبدا أنى قلت للبـحـار مافيش مـانـع . لكن نبهت ع البحار قبل مانبتدى الرحلة أنه يمشى بأدبه لما نوصل هناك .. بعد ربع ساعة لقينا نفسنا ف وسط شوارع ضيقة وحوالينا ستات كـتـار لابسـين لبس خليـع . واحنا مـاشـيين بقم السـتـات يوقـفـونا ويسـألونى عن بلدى أقـول «اجـيـبـشـيـــان» مـايفـهـمـوش، أقـول «اجيبسيان» برضه مايفهموش ويعدين بصوت عالي «اجيسيانوا . اجـيـشـيـانو» ويشـدونـى .. شـعـرت بشىء من الندم أنـى غـامـرت

بالرحلة دى . «نو ، مرسى مدام» ماحدش فاهم «نو ، مدام برضه ماحدش فاهم . أشاور ع المركب وأحاول أفهمهم بالاشارة أنى ماشى مافيش فايده .. أبص على زميلى . يخرب عقله . اختفى وسابنى لايص.. قلت أما فصل مؤلم ، الموقف كان مؤلم مش بس سخيف ، طيب وأنا أعرف أخرج ازاى من الحتة دى ؟ والمركب باقى على ميعادها نص ساعة بس ، خفت أتحرك من مكانى وابتدى أدور بنفسى ع السكة أتوه زيادة . ابتديت أعرق ، وكل ما أتصور نفسى قاعد لوحدى ف جنوه بعد المركب ماتسيبنى أعرق زيادة .. ابتديت أعد الثوانى . الدلع بتاع الستات والنكت اللى مش فاهمها أصبحت ف نظرى مسألة يجب وضع حد لها بسرعة .. استعملت الخشونة مع اتنين منهم وشتمتهم بالانجليزى فسكتوا .. لأنى فاهم ولا هم فاهمين أنما مظهرى دل على أنى مش فاضى للكلام ده .. ابتديت أوقف الرجالة ف السكة وأسألهم عن طريق المينا ، قلت يمكن أعتر ف واحد راح مدرسة ولو سنتين ف عمره . أسأل بالانجليزى مش نافع . بالفرنساوى مش نافع . ابتسامة ، أجابه بالطليانى ثم انصراف ودى وحسه ايه الوحسه دى .. ودى شوره ايه النيلة

دى .. ابن الكلب مش هايرجع ؟ ابن الكلب راح فين .. باقى عشرين دقيقة (١) .

وأخيراً ابن الكلب جه .. واحد غيرى كان غلط وضربه قلمين وشلوت ، لكن أنا كنت با أغلى جوه واتكلفت عدم الاهتمام . قلت له وأسنانى بتزيق ..

«مش تفتكر أحسن نرجع؟» .

وافق . ورجعنا . ف السكة ماحدش قال حاجة ، خطر لى أنى

---

(١) «كتارى» وإلى هناك أترك لويس عوض الشاب فى ورطته مع نساء جنوه ، وأترك القراء فى حيرتهم وقلقهم على مستقبل لويس عوض ، فبهذا القدر من الحديث يصل بنا الدكتور لويس عوض إلى ثلثى الصفحة الثانية والعشرين من مذكراته البالغ عددها ثمانى صفحات بعد المائتين .

على أنه فاتنى أن أقرر فى صدر حديثى أن اسم الكتاب كان «سوفتير» ثم عدله المؤلف بخط يده إلى اسم مذكرات طالبة بعثة - تجربة «بالعامية» وأهداه إلى «مادلين برنيه - واهبة السعادة» . والكتاب كتب على الآلة الكاتبة عام ١٩٤٢ وقدم إلى الرقابة فى ٢٥ اكتوبر ١٩٤٤ فى الساعة ٩,٣٠ صباحا وقيد برقم ٢٥٤٥ وقد حذفت منه الرقابة الصفحات ١ ، ٢ و ٢٠٧ و ٢٠٨ .

وبهذا القدر من الصفحات اشعر بأنى قدمت لمحة سريعة من كتاب منسى أو كنز مدفون يرسم لنا خطوطا عريضة واضحة للغة التخاطب التى يبحث عنها أستاذنا الكبير توفيق الحكيم .

أناقشه ف تصرفه لكن عدلت .. إيه الفايدة . الغلطة غلطتى من الأول أنى أفكر ف رحلات من النوع ده . هو مش مسئول .. وصلنا المركبْ وكان لسه قدامنا خمس دقائق .. قلت له «متشكر» وسبته ورحت لأصحابى . كان موضوع الحديث طبعا جنوى ، لكن أنا ماشتركتش ف الحديث ، كان لسه دمي متغير .. كان عندى حكاية ظريفة أقولها لأصحابى ، لكن فضلت أنى أسمع بس . وقامت المركب وخرجت من المينا وأنا لسه با أسمع بس .

طبعا ما تنتظرش منى بعد اللى حصل دا أنى أديك فكرة عن مستوى الجمال بين بغايا جنوى . ولا حتى عن الهدوم إللى كانوا لابسينها أن كانت غالية والا رخيصة أنا مش فاكر حاجة لأنى كنت ساعتها ملخوم . مش فاكر حاجة غير المغرز اللى أكلته ..

ووصلنا مارسيليا على خيرة الله . وبكده انطوى البحر اللى شق البشر شقين . بصيت جنويا وشفت افريقيا ف خيالى .. بصيت شمالا لقيت أمم من الأقزام والقرود ف غابة صنوبر مالهاش حدود بتشتغل بتشتغل بتشتغل ما أعرفش ف ايه . وأنا واقف فهمت اللى جاى أكتر من اللى رايح ، فاستنجدت بالله وشديت أعضاء جسمي وابتديت أعمل لى سكة بين شيالين مارسيليا .

دون كيشوت

زى ما المصريين اللى ف الكوثر عملوا شلل فى جنوى كمان عملوا شلل ف مرسيليا . أنا مش عاوز أوصف لك البلد انما أكتفى بأنى أقول لك أنها بلد وسخة خالص من بره . منظرها من البحر مش ولابد . منظر جنوى من البحر أجمل منه كتير ، وعلى كده تقدر تستنتج أن اسكندرية أجمل مينا أنا شفتها ف البحر الأبيض المتوسط .. وأنا واقف ف المينا بتاعت مارسيليا بقى يفوت على ناس غالبا سوريين ومغاربة ويقولوا لى بالعربى أن عندهم ستات حلوين وسينمات زرقاء فيها أفلام قبيحة حاجات تانية أوحش من الستات الحلوين والسينمات الزرقاء . أنا ماكنتش لسه نسيت الفصل اللى حصل لى ف جنوى . ورفضت انى حتى أسمع الكلام اللى بيقولوه وبقيت أطردهم بشدة ، ده يديك فكرة عن الموانى واللى بيحصل فيها زى ما تلاقى فيها شيالين وعمال جمرك تلاقى فيها سماسرة أعراض .

أخدت اتنين أصحابى ومشينا ف البلد . رحنا قهوة اسمها «كافيه ريش» قالوا لنا أنها قهوة المصريين ف مارسيليا .. وفعلا لقينا فيها مصريين . أنا لحد دلوقت مش عارف ليه يكون فيه

مصريين في مارسيليا . بصراحة أنا أفتكر أن مافيهاش جامعة ما أعرفش ، إنما بيتهألي كده . أنا أفهم أن يكون فيه مصريين ف مونبيلييه ، ف ليون ، ف تولوز ، مش ف مارسيليا . بيتفسحوا ، يمكن . المهم مادام فيه مصريين ف بلد ، يعني هايتقابلوا فين طبعا ف قهوة . لكن لازم اعترف أن القهوة دي كان بمها خفيف . كانت ف شارع الكانبيير المشهور اللي اتقتل فيه الملك اسكندر بتاع يوغسلافيا أو بطرس الحالي والمسيو بارتو وزير خارجية فرنسا . فاكر . طبعا مكان الحادث ماعرفتوش غير وأنا ف كافيه ريش ، «شايف البناء الغامق اللي ف الصف التاني هناك ده . ده . مش ده . أيوه ده .. أهو ده مكان الاغتيال .» أول ما سمعت كده قلت «عن أذنك» وفردت رجلي لحد هناك لاقيت البورصة أفتكر . وقفت قدامها وقعدت أتصور الحادث ازاي حصل . دي حاجات ليها أثرها ف النفس لأني حسيت طول الوقت أني «باشوف» التاريخ الشعور دا جالي ف أوروبا بس لكن عمره ما جالي ف مصر ، غير ما رجعت وابتديت أدور بنفسي نهايته .

رجعت لأصحابي ف القهوة وبعدين جت تلميذه معانا وقالت لي :

– تعالى يا لويس نشتري جزمة لي .

وراح لويس يشتري جزمة ليها . مش يشتري يشتري يعني

بس يصاحبها وهي تشتري ، ف الأول قلت «خاضر» وبعدين ابتديت استغرب «وليه هي ماتشتريش لوحدها» «وليه هي تاخدش بنت معاها» قبل الرحلة دي أنا كنت عمري ماكلمت بنت في حياتي غير من محاضرة أو اسم مرجع حتى كلام عن الجو مافيش ، وأزي صحتك حتى .

مافهمتش إذا كانت الآنسة دي طلبت مني أني أصاحبها ف المشوار دا لأنها خايفة من واحد فرنساوي يعاكسها ف السكة أو لأن العرف جري أن الست ديما تبقى مصحوبة أنا با أذكر الحادث ده على تفاهته عشان أوريلك ازاي شاب عمره تنين وعشرين سنة ف مصر اختباره مع الستات مش ضيق بس نما صفر، المهم خدتني المدموازيل شارع يشبه شارع الموسكي عندنا بس أضيق شوية . يظهر أن ف كل بلد ف العالم فيه شارع زي شارع الموسكي . مشينا ووقفنا ومشينا ووقفنا . كل دا قدام دكاكين الجزم والمانيناتورة وهيه تطلب وتتفرج وتقلب ترجع . أنا عمري ما اشتريت هدية لست . عمري ما اهتميت بلبس الستات . عمري مثلا ما أخدت بالي من تطور مودة الجزم أو الشنط أو الجاكيت عندهم . أهو كله كعب عالي ف نظري وعمري ما قلت لواحدة أنت جميلة قوي ف الفستان ده .. صاحبتنا طبعا

ماتفهمش ف الحكاية دى . قام قعدت تورينى . «دا مش حلو ياويس» أقول ف عقلى «أيوه حلو يا ماما بس اخلصى اشترى» وأقول قدامها «أرجوكى ماتسأليش ف المسائل دى . أنا ما أفهمش فيها حاجة أبدا» فعلا . أنا لبسى تمام زى لبس ابراهيم لنكولن وجيوبى دايما محشية ورق ف اللى أنا مش واخد بالى من لبسى ازاى هاآخد بالى من لبس الستات سألت خمسة وعشرين دكان واستشارتنى خمسة وعشرين مرة واعتذرت لها خمسة وعشرين مرة . دى حلوه بس غالية دى حلوه بس فاتحه . دى حلوه بس بطلت . دى حلوه بس ملابس الستات يا خسارة . بس . بس . بس وروحى طلعت . البنت كان دمها خفيف بس مش عاوزه تشترى . «يلا بنا يا لويس. كلها ستاشر ساعة ونبقى ف باريس هناك الجزم أحسن» . أنا جايه أتفرج على مارسيليا والا الموسكى يمكن أنا كنت غلطان ف الملل بتاعى . يمكن كان لازم أهتم بملابس الستات عشان ما أبقى انسان متمدن . يمكن هى تعرف اللى فيه الخير والحكاية مش مجرد لكاعة زى ما اتهيألى ساعتها . الغرض حسيت ف وقت واحد أنى عاوز أضربها قلم وأنى عاوز أحط راسى عل كتفها . ولما كان التنفيذ مستحيل ف الحالتين ، عرضت عليها أننا نفضنا من خسبة الجزم ونروح نتفرج على

كنيسة نوترادم دى لاجارد يعنى كنيسة ستنا الحارسة يعنى ، أفتكر كنيسة ستنا مريم . وفعلا رحنا وبعد كنيسة نوتردام العالية فكرنا نروح جزيرة ايف اللى كتب عنها اسكندر دوماس أن الكويت دى مونت كريستو كان محبوس فيها ، لكن قالوا لنا مافيش وقت . أنا مش ها أقول أنا شفت ايه فى نوتردام بتاعت مارسيليا لأنى مش فاكر غير المنظر البرانى .

وعنها ورحنا محطة مارسيليا ف آخر النهار عشان نسافر باريس . وداخ محسوبك بين الشنط . خلص الخيال والمغامرات وما فضلش من «الرومانس» وموج البحر وقصر ايف اللى شفته بس بعين خيالى غير شيالين بيتخانقوا مع بعض ودخان سمج وخواجات رايحين جايين . وأنا واقف زى الفرخة الدايخة ، أفكر ف كل كلمة سمعتها وكل حاجة شفتها عشان ما أنساش . قالوا لى دى مارسيليا بلد الفلس ، قلت كل المواى كده .

قالوا لى دى مارسيليا بلد البخل . قالوا دى مارسيليا بلد النكتة . قالوا دى مارسيليا بلد الفشر . وأنا أسمع ساكت كل ما أفتكر ورجيه دى ليه رافع ترالتريكولور بأيديه الجوز ويغنى «إلى السلاح ، أيها المواطنون» أقول بلاش الحاضر وكفاية اللى فات لما الرجالة كانت رجالة . حتى دلوقت تلاقينى أبتسم كل ما أفتكر

ماريوس وأوليف ، ماريوس اللى بنى برج ايفل وأوليف اللى قتل البحر الميت . ماريوس وأوليف دول زى جحا وأبو النواس عندنا ، دايما يحكوا عنهم نكت مع بعض ، والاتنين يمقلوا فشر المارسيليين وبديهة أبناء الساحل . ماتستغربيش لو قلت لك أن أهل مارسيليا فيهم صفات كتير من الاسكندرانية . الفشر النكتة ، البخل ، التعصب الشديد لبلدهم .

لكن دى كلها حاجات مش مهمة . كفاية على مارسيليا المارسيليين . لما الرجالة كانوا رجالة كتب التاريخ كترت . ومع ذلك سيبك من دا كله ، «القطر الأزرق» صفر ف المحطة وكلنا ركبنا . حتى أساميهم فيها سحر ، احنا نسمى قطر مصر اسكندرية قطر البحر . جبنا ايه من عندنا وهم يخلوا مياه الجنوب وسما الجنوب تترجرج قدام عينيك لحد ما توصل باريس .

المائدة المسحورة

ف القطر الأزرق قعدت مع الأستاذ على عيسى ومدام عيسى ، نص يوم سفر دا حاجة كتيرة ، القطر دا من المحلات اللى أنا أكرها بكل جوارحى لأن شعور الانسان بالوقت بيشتد لدرجة الاختناق . وان ماكانش معاك حد يلاعبك بوكر طول السكة تغطس، أنا عمرى ما أنعس ف قطر ، وعمرى ما أقدر أقرأ حاجة، الأستاذ عيسى كان راجل ف حاله وفكرة الكوتشينة ما طرأتش على أى حال . كل الكلام اللى ف الدنيا خلص ف ساعتين ولسه باقى نص يوم . يعنى بس لو كانت الدنيا نهار كان الواحد يبص من الشباك يتفرج على الريف الفرنساوى أو يشوف النساكو بتطوى واحدة ورا واحدة . من الديوان للكوريدور ، من الكوريدور للديوان مافيش تعب انما فيه زهق ، ف المدة دى اتعرفت باتنين أشى مصرى وأشى فرنساوى ، المصرى قال لى أنه كان تلميذ ف جامعة ستراسبور بيدرس كيميا أو صيدلة ما قالش حاجة مهمة ، الفرنساوى قعد يسأل عنى وعن مصر وعن رأيى ف كل حاجة ، برضه ما استفدتش منه حاجة . رجعت الديوان أدردش مع

عيسى. أتكلمنا من جديد عن المرحوم مستر هوكارت أستاذ علم الاجتماع ف كلية الآداب بتاعتنا اللى عيسى كان بيحضر معاه رسالة ماجستير . خليته يحكى من جديد ازاى خطب امرأته وإزاى وإزاى وإزاى . برضه لسه فاضل نص يوم .

وأخيرا نمت . نمنا كلنا . وصحينا ف باريس . الحقيقة اننا ما نمناش ولا صحيناش في باريس ، انما إذا قعدت أحكى لك عن اللى حصل ف نص يوم هاكتب كلمة «زهق» طول الوقت ، نسيت أقول لك . كان الجماعة اللى ريحين انجلترا وأنا منهم متفقين على اننا ننزل مع بعض ف باريس عشان نسافر مع بعض انجلترا ، كنا أربعة ، الآنسة زينب الشعرانى بتاعت تربية ف بريستول والأستاذ قدرى بتاع تربية أو علم نفس ف لندن والأستاذ حاجة مندور بتاع أليان فى ريدنج والأستاذ عباس عمار بتاع جغرافيا ف مانستشر وأنا بتاع أدب في كامبريدج انشانتيه ..

وصلنا محطة ليون ، مش ليوم بحق وحقيقى انما محطة ليون اللى ف باريس ، أعمل لها ايه ، اسمها كده ، بيسموها فى باريس جارد ليون عشان الناس بيسافروا منها ليون واللى جايين من ليون نزلوا فيها ، وصلنا محطة ليون ف باريس قوم انفصلت بالغريزة من اليسار ، زى ما كنت با أسميهم ع الطريقة الانجليزية يعنى

عيسى ومراته وانضميت برضه بالغريزة – لشلة انجلترا ، ولحسن الحظ كان فيه ناس مستنيين ع المحطة . كان الأستاذ عمار بتاع الجغرافيا مستنيه الأستاذ حسان عوض بتاع الجغرافيا برضه ف باريس ، وكان الأستاذ حاجة مندور مستنيه إنسان خطير الشأن جدا ما أعرفش يقرب له ايه ، الا وهو الأستاذ محمد مندور بتاع أدب ف السربون . «كومبينيشن» عجيب ، اتنين بتوع جغرافيا واتنين بتوع أدب واتنين قرايب واتنين أصحاب وأتنين بتوع تربية ، خلطة عجيبة ، مين يمشى مع مين ، خلطة عجيبة .. أمزجة متضاربة ده ها أحكى لك عنه وها أقول لك إزاى الأمور حلت نفسها .

إحنا وصلنا باريس الصبح ، ما أعرفش الساعة كام . كان أول حاجة عملناها طبعا تاكسى وع اللوكاندة وأرمى العفش وحمام وياالله إحنا أحرار . اللوكاندة اللى نزلنا فيها – أنا فاكر كويس – كانت ف شارع مونج ف الحى اللاتينى . مش فاكر بكام بالضبط إنما غالبا حسبة ٢٥ فرنك فى الليلة . افتكر عمار بتاع الجغرافيا كان معاه عنوانها من الأول لأنى سمعته بيقول أن الدكتور حزين مدرس الجغرافيا بكلية الآداب كان بينزل فيها كل ما كان يفوت ف باريس ، دا دليل على إنه كان يعرفها من الأول .

الشاهد . أنا كنت مضطرب طول الوقت . ف التاكسي عيني كانت زايغة عاوز أشوف كل حاجة ف مدينة النور ف دقيقة واحدة ، كما لأني كنت مضطرب لأني وجدت نفسي فجأة ف الحي اللاتيني اللي ياما قرينا عنه وكنت بحلم بيه ولسه با حلم بيه . الحي اللاتيني أنا ف الحي اللاتيني حاجة تخلي الواحد يضطرب . أبص حوالي ما ألاقيش حاجة تخلي الواحد يضطرب . كل حاجة عادية . برضه ناس لابسين برانيط وشوارع وبنايات ، لكن الفكرة ، آه الفكرة . وتعمل ايه ف الفكرة . مجرد اني ف الحي اللاتيني اللي اتشرد فيه كل أدباء مصر خلتني أرتعش . أمتي ياربي أتشرد ف الحي ده زي زكي مبارك والصاوي وتوفيق الحكيم ، أمتي ياربي أتشرد وأكتب زي ما كتبوا .

كمان من أسباب أضطرابي إني ماكنتش أعرف حد ف الشلة اللي إني ماشي معاها لا زملائي ولا اللي بيفرجونا ، طلعنا من اللوكاندة عشان نغزو مدينة الأحلام ..

خدونا من سكات على محل الديبون اللاتيني قال ايه نفطر ، كرواسان . اتنين كاكاو .. مرسيه .. مين يدفع هم قال اللي يدفعوا . حسان قال :

– دا يبقى محل الديبون أشهر محل ف الحي اللاتيني ، إحنا

كتير نجي نأكل هنا ..

قام الجدع التاني قال :

– دا اسمه دييون لاتان دييون دا يبقى اسم راجل صاحب محلات كتيرة كلها قهاوى من النوع دا منتشرة ف كل أحياء باريس ، ولاتان دى صفة يعنى اللاتيني . ومحل دييون اللاتينى يعنى الفرع من محلات دييون الموجود ف الحى اللاتينى والحى اللاتينى زى ما أنتم عارفين دا حى الجامعة ولذلك تلاقوا المحل دا دايما مليان تلامذة ودا مستعمرة المصريين ف باريس شايفين البنا الغامق اللى قدامنا ع الشمال شوية ف الناحية التانية من الشارع ، دا يبقى السوربون .

كفاية بقى ، عرفت ، عرفت بالغريزة إنى ها أستفيد من الأفندى دا أكتر من حسان . صحيح حسان كان فارق شعره من الوسط انما مافلحش . لكن هوه دا اللى يقدر يفهمنى كل حاجة أنا عاوزها .

ميلت على واحد من زملاء الرحلة وسألته ..

– مين الأفندى دا ؟

– دا اسمه محمد مندور ، بعثة كلية الآداب لدراسة الأدب .. قديم هنا تمن سنين ..

تمن سنين يابوى زى ما بنقول فى الصعيد لما نستغرب وهو بعينه دا لازم يعرف حجارة باريس ، كل حجر باسمه . قربت من محمد مندور دا وقلت له ، بعنين مليانة عاطفة زى الأطفال .

– من فشلك أنا عاوز اتفرج ع السوربون .

– تعالوا نفرجكوا ع السوربون .

وإحنا بنعدى الشارع قعدت أتأمل ف مندور دا لاقيته شاب طويل ف اعتدال مليان أسمراني شعره أسود زى شعر الهنود وطويل قوى قوى زى شعر الأرتيستات ومناخيره واضحة ف وشه، أما ملامحه كلها فتدل على إنه من أصل رومانى مافيش شك مافهوش مصرى غير سماره . تمثال مترهل شوية ، عينيه كبيرة محفورة ، با أقول محفورة مش غايره ، طول الوقت يعلق ع الحاجات يعلق وينكت نكت عقلية غير مألوفة ، نكت زى اللى بنقرأها ف الكتب ، نكت ماتضحكش قوى إنما تشعرك أن قدامك مخ شديد الألتفات ، وكان كل ما ينكت يضحك بشويش أو يبتسم وف ركن شفايفه التواء التهكم واضح واللى بتقوله شفايفه بتقوله عينيه ، وأحيانا يتهيألك إنه بيتهكم بيك .

دخلنا السربون وهات ياشرح وهات يا سؤال . «دى اسمها سوربون لأن الراجل اللى بناها ف العصور الوسطى كان اسمه

كونت روبير دى سوربون . السوربون دى تشمل بس كلية الآداب والعلوم والحقوق ، أما بقية الكليات زى الطب فتدخل تحت جامعة باريس. الأنفتياتر دا اسمه اتفتاتر فولتير على اسم .. الخ البنا اللى جنبنا اسمه الكوليج دى فرانس يمكن سمعه عنه» .

أنا – يا لله نروح الكوليج دى فرانس .

هو – والبنا اللى ورانا من الناحية التانية أبوقبة دا ، دا يبقى البانتيون ..

أنا – يالله نشوف البانتيون ..

حركة تذمر من بقية الجماعة ..

الجميع – إحنا عاوزين نشوف المعرض .

أنا – الحى اللاتينى قبله ..

ورحنا الكوليج دى فرانس ، ورحنا البانتيون ، «الشارع اللى فيه السوربون والكوليج دا اسمه شارع المدارس ، والشارع دا اسمه بولفار سان ميشيل . احنا بنسميه من باب الإختصار بول ميش . دول أهم شارعين ف الحى اللاتينى . شارع – سوفلوا دا فيه مطابع كتيرة . البانتيون دى كلمة جايه من الأغريق بأن معناها كل زى ما تقول بأن جيرمانيك يعنى بتاع الوحدة الألمانية وبأن آراب يعنى الوحدة العربية وثيوس معناها آله . يعنى كل

الألهـة . يعنى المكان المدفـون فـيـه كل الآلهـة ، والآلهـة دول يـعنى العظمـاء . هنا فـولتيـر مدفـون . روسـو بعده بشوية . المدخل العام زى ماشفتوا كلاسيك عواميده مجوز ف العدد كورينثيه ف النوع».

– ياشيخ يالله نتفرج على باريس .

واحد قال . ابتديت اتنرفز . أمال يعنى إحنا بنعمل ايه ؟ أنا قلت إنه ف الأول حصل لخبطة يمكن سببها أنا ومندور . لأن بقية الشلة كانت زى ما تقول متفقة ف الميول من ناحية الفرجة يعنى كلهم زى السياح الأمريكان ، هم مالهم ومال فولتير منحوت فين ، هم عـاوزين يتـفـرجـوا على «باريس» المعرض الدولى بتـا ع باريس أول وقبل كل شىء . أبتـدت حركـة تنقلات واسـعة . كل دقـيقـتين تلاتة يـجى واحـد يشـوف مندور بيـهـتش بيـقـول ايه وبـعدين يرجع لحسان . وأنا طول الوقت لازق ف مندور . شعرت بحروجة مركزى لأنى أولا أجنبى عن الجماعة ثانيا لأنى حرمتـهم من مندور ثالثا لأنى كنت متعب أسئلتى كتيرة رابعا لأنى كنت بأسأل عن حـاجات ماتهمش حد منهم خد مثلا أخدونا على حى السيتيه .. مندور قال «دا تيـاترو سـارة برناره ، ودا الشـاتليـه» ، وبعـد شـوية «دى كاتدرائية نوتردام» ، وبعدين بمزيج من التـهكم والبلازانترى «أنتو سمعتوا عنها» الأبتسامة إياها اللى ف ركن بقه تخليك ماتعرفش

تضايق منه والا تضحك ، دا كمان من أسباب شعورى بحرج مركزى منور نفسه ماكانش يديك معلومات بالساهل ، مش قصدى إنه بيتكلم قليل ، أنما قصدى إنه مافيش مانع إنه يتريأ عليك وعلى جهلك أثناء الشرح ، مش ضرورى تريأه صريحه . مثلا هو عرف إني با أدرس أدب زيى زيه ومع ذلك كان فى سياق كلامه يشرح تفاصيل كتيرة بسيطة مفروض أن كل واحد يعرفها ودى حاجة أحيانا كانت تترفزني منه ، مثلا يقول ، سارة برنار دى كانت أكبر ممثلة ف فرنسا في أيامها ، وأن كانت حاجة عويصة شوية يقوم يفهمك طول الوقت إنه بيعلمك حاجة جديدة فى ناس كتير بالشكل دا .. منور دلوقت بقى صاحبى ولسه ماغيرتش رأيي فيه . صحيح بالتدريج عرفت عنه خصال وصفات كتيرة جديدة لكن الأثر اللى سابته المقابلة الأولي لسه باقى زى ماهو ويظهر إنه صحيح .

وقفنا كتير قدام كاتدرائية نوتردام ولفينا كتير حوالين نوتردام ومشينا كتير جوه نوتردام ومنور يشرح ويشرح وأنا فاتح عقلى وعينى وودانى زى ما فتحت عقلى وعينى وودانى يوم ما قريت رواية «عشيق الليدى تشاترلى» بتاعت د. هـ لورنس ف العشر سنين الأخيرة قبل ما أزور باريس ، أنا من يوم ما أبتديت أقرأ

رواية «الفرسان الثلاثة» بالعربى لحد ما قريت «لاجارسون» بتاعت فيكتور مارجريت بالفرنساوى ، ف الفترة دى رسمت ف عقلى خرط لكل مفصلة ، يعنى مدن بشوارعها وقصورها وحواريها وعششها ، مثلا أقرأ عن ميدان الكونكورد أقوم أرسم له خارطة ف مخى فيها المرشوشة . الحتت اللى ماشفتش ليها كارت بوستال كانت فكرتى عنها تسعين فى الميه غلط ، وياما أتألمت لما كنت أكتشفت أن الحقيقة مش ماشية مع الخيال .

لفينا زى ما قلت لك حوالين نوتردام سبع مرات ولفينا جواها سبعة تانيين ومندور نازل شرح «كل كنيسة مبنية على هندسة صليب من جوه . فيه تلات صلبان . صليب فرعونى دا مالوش رأس وصليب جرجى ودا أضلاعه متساوية وصليب لاتينى ودا رأسه أكبر من جسمه . شوف لو وقفت هنا ف المدخل ووشك للمدبح تقدر تشوف فكرة الصليب .. شوف الأقباء المكسورة فوق دى وجودها عضوى مش للزينة .«طبعا مندور ما يقولش كده من سكات انما يبتدى يشرح فى معنى الحاجة العضوية ف الفن والفرق بينها وبين الحاجة اللى الغرض منها الجمال بس» .

الحاجة العضوية ف لغة الفن هى الحاجة اللى بتلعب دور أساسى ف التصميم ، شوف الأقباء المكسورة فوق دى هيه اللى

بتسند السقف . ف الواقع السقف معمول من مجموعة قباء مكسورة .. على العموم كتر خيره «أفادك الله يا أستاذ» حكاية القبو الناقص دا من قواعد العمارة القوطية الحقيقية ، إنما العمارة القوطية التليد – ودى غالبا جت ف عصر متأخر – تلاقى فيها أقباء مكسوة برضه لكن الغرض الزينة بس ومابتسندش اسقف . دى حاجات ضيعنا فيها وقت كتير عشان نعرفها .. أنا مرة أخدت كورس في العمارة والموسيقى كامل ف العمارة عن الأستاذ لان ، الموسيقى برضه أخدت فيها كورس» .. وهلم جرا ، من العبث إنى أشرح لك عيبى اللى شفته فى عماير باريس لكن إذا كان الموضوع يهمك تقدر تقابل الأستاذ محمد مندور وعنوانه على كلية الآداب .

زى ما أنت شايف الأستاذ مندور وفر على قراية كتابين تلاته ع الأقل . بلغته هو اللى نصها تهكم ونصها بليزانتيرى «من علمنى حرفا صرت له عبدا» . ع الحساب دا أنا مش بس ها أبقى عبد له إنما ها أبقى عبد لكل واحد فى الدنيا . للشيخ البشلاوى اللى رقبته قعدت أربع سنين فيها دمامل لأنه مرة عطانى حصة إضافية ف ثانوى قبل ما ألون عبد مثلا للأستاذ أحمد أمين اللى نوبة أمتحنى شفهى عربى ف الليسانس وقال لى عن «ذهب

الأزرق» ، دليل السياح لمدينة باريس . الحق يتقال أن من غيره أنا كنت دخلت فرنسا حمار وطلعت منها حمار . الحق يتقال أن سببه أنا عرفت عن باريس والفرنسيين واللغة الفرنسية حاجات كتيرة ناس عاشوا ف فرنسا مايعرفوهاش . طبعا دا ماحصلش كله ف اليوم اللى مضيته ف باريس أول ما سافرت إنما حصل لما زرت باريس تلات مرات بعد كده لمدد طويلة .

أنا ما أقدرش أوصف لك قد ايه زملائى ف الرحلة كانوا متضايقين من إهتمامى بالحجارة المصدية اللى بيسموها كنايس ومعالم ..

– إحنا عاوزين نشوف المعرض ..

هم عاوزين يشوفوا المعرض . إذن إلى المعرض ، تاكسى ويالله ع المعرض . شفت ميدان الكونكورد والمسلة ف وسطيه ومندور نازل دش ، دا اللوفر ، دى جناين التويليرى دار يفولى دا كوبرى اسكندر السادس . دا الأفاليد . دا الترو كاديرو .. دا المعرض ستوب ، ورحنا نازلين . مافيش غير كلمة ونص على كل حاجة شفناها ف السكة . مافيش فرصة . سواق التاكسى عمل بالضبط زى آريل ف آخر رواية «العاصفة» بتاع شكسبير لما عمل مائدة سحرية لأعداء سيده الساحر بروسبرو وقعد يخايلهم بيها ،

كل ما يمدوا أيديهم عليها تختفى . أهى كمان مدينة الأحلام أنطوت قدام عيني ف عشر دقائق زى الجزيرة السوده ف ألف ليلة وليلة ..

كل واحد شاف معرض باريس الدولى بتاع ١٩٣٧ لعن خاشه، أنا طبعا لما أسافر من مصر والا الولايات المتحدة مخصوص عشان أشوف معرض لازم حاسة النقد عندى تنشط غصب عنها ، يمكن دا السبب ، واحد صاحبى انجليزى قال لى أن المعرض كله ما كانش فيه غير الجناح الروسى والجناح الألمانى ، ودول كانوا بيتنافسوا ف التفاهة وصف طريف ، أن كنت عاوز تعرف إزاى أهى صور قدامك ، أما أنا أقول لك الحق أنبسطت خالص لأن من الأصل ماكنتش منتظر حاجة ، ولا كنتش حتى عاوز حاجة . بالأخص الليل لما دخل ولاقيت الدنيا حوالى شعلة نور . نور ف الميه، ونور ف الهوا ونور ف برج ايفل لما دخلت الجناح المصرى فتحت عيني شوية بس عشان أشوف أهل بلدى عاملين ايه جنب الدول التانية . أنا مش ها أخبى عنك حاجة . أنا لو كنت ف أيدى سلطة كنت أوكل محمد محمود خليل بك عيش حاف مدة ٤٨ ساعة عقابا له على مجهوده الضايع ف تنظيم الجناح بتاعنا ، لكن ايه فايدة الكلام اللى حصل حصل .

رجعنا الحى اللاتينى بعد ماهيصنا طول اليوم ومع إنه كان

ميعاد نوم لقينا الحى سهران زى السيدة زينب ف ليالى رمضان . أترمينا ف قهوة وبعدين طلع ف دماغى حكاية غريبة . قال لازم آخد أبسنت . أنا كنت قريت كتير عن إزاى شراب ألابسنت قتل نص فنانين فرنسا وكل الستات البائسين وكنت ناوى أدور عليه من تحت الأرض عشان أشوف ايه هو ، السائل السحرى دا اللى طبق جفون الأنام . قعدت أفكر ف فنانين نهاية القرن – اللى فات طبعا – شلة الفن اللى كانوا دايما ف هياج عصبى وميلانكونيا مالهاش حدود . وأنا كمان لى أحزان كتيرة وعاوز أغرقها ف جرعة النسيان . شفت واحدة وشها ناحل وعينها دبلانه وشفايفها صفر إزى الكركم ماشية بتجر ف رجليها ، مشيت وراها من بعيد ، لاقيتها خارجة من شارع سان ميشيل وعند الكوبرى وقفت مدة طويلة تبص ف الميه وتبص ف السماء وتبص ع الحى وأهدابها الساقطة بتقول الوداع ياحبيبى الحبيب . الوداع يا مارسيل ، قلبى أرتجف وقربت منها لحد ماوقفت جنبها ، شفت الفرو على كتافها بيتساقط زى العهن المنفوش ، قلت لها «ماذا تشتكين يا أختاه» بصت لى بصة سهتانة وحتى شفايفها ماتحركتش .

مديت أيدى ف جيب الجاكتة وطلعت المحفظة وقدمتا لها المحفظة من سكات . بحلقت فى مدة وهزت رأسها وشاورت لى على قلبها . قلت لا اله إلا الله ، نفذ قضاء الله . وبعد شوية شفت دمعة واحدة من كل عين ، أنا كنت أفتكر أن العيون اللى زى دى

نزفت كل دموعها من سنين . تمتمت «الوداع يامارسيل» تمتمت أنا «الوداع يا أختاه» وسابتني وراحت في نهر السين ،وأنا واقف أتفرج عليها بتغالب ف الموج الخفيف المضطرب لحد ما اختفت ، وأول ماشفت الفقاقيع بتنفجر على وش الميه عرفت أن الكتاب أتقفل ، ورجعت الحي أدور على كتاب جديد أقرأه . طبعا الحاجات دي ماحصلتش فعلا ، لكن شفتها بعين خيالي ، شفت شاعر من الشعراء قاعد ف بار منحوس ووشه مكفي ع الكأس اللي قدامه ودقنه الطويلة المهوشة مرتاحة ع الترابيزة . طبطبت على كتفه وقلت له . «مالك يا أخي قاعد مهموم «قال لي» خلاص مافيش الهام . خلاص .. أقعد سليني . «أفتكرت جان اللي كتب عنه توفيق الحكيم ف «أهل الفن» ، قلت أقعد أسامره لمطلع الصبح ، قلت له «ودا ايه اللي قدامك دا ؟» .

قال لي : «دا أكسير الراحة ، دا حشيش مقطور دا رسول النوم ، دا الفارس الأخضر اللي خطف روحي من بين الضلوع ، دا جرعة من نهر النسيان . شوفوا أخضر إزاي زي عيون البنات اللي جايين من بريتاني . دا الأبسنت ملك الأحلام» .

وسرح بعيد عني ، سرح سرح ف مساقط الألهام ، سبته ودني خارج لقيت ف وشي واحد ممثل قديم جمهوره ضاع من زمان ، قلت له «أنت لسه عايش ؟» .

قام مسح نضارته أم شنبر دهب ف الكرافات الوسخة اللى نايمة على صدره زى فراشة هلكانه وحط ايد ف السديرى وفرد الأيد التانية كأنه ع المسرح تمام وقال لى : «بس ليه يا أرمان ياولدى تعشق بغى . ليه تلوث شرف العيلة . أنا أبوك دوفال شريف أشراف بروفانس وشهر الدوق دى جيز وحفيد الخادم الأول للملك الشمس ، أضرع إليك انك تنسى مرغريت» .

قلت ف عقلى دا لازم أستاجلينا ، دا لازم فاكر نفسه لسه على خشبة الأوديون آدى عشرين سنة . دا لازم نسى .

آه دا لازم نسى .. نسى ؟ آه دا لازم أخد أبسنت ، أنا كمان لازم آخد أبسنت عشان أنسى الأتنين وعشرين سنة اللى راحو من عمرى بلاش من يوم ما أتولدت ف شارونة مركز مغاغة مديرية المنيا لحد يوم ١ أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، يوم ما قامت بى الكوثر من الأسكندرية ، أفتكرت بودلير وفرلين ورينبو وأوسكار وايلد ولانيل جونسون وجورج مورو كل «المنحطين» ف الأدب على حد تعبير ماكس نوردو . أنا لازم أعيش ولو ساعة ف الجو اللى عاشوا فيه . إزاى أسيب الفرصة دى / آدى باريس أهى ، ومونمارتر بفرنك وتلاتين سنتيم في المترو ، مش ناقص غير الأبسنت . أن ما أخدتش أبسنت دلوقت أمتى ها أخده لما أرجع مصر ؟ مصر فيها

حشيش بس . ولما أوصل انجلترا أمال هم «أوسكار وايلد وجورج مورو ولايونيل جونسون طفشوا من انجلترا ليه ؟ أنا لازم آخد أبسنت . قلت :

– يامندور : أنا عاوز أشرب أبسنت .

– مافيش أبسنت .

– لازم فيه ..

– حرموه خلاص .

حرموه .إذن الحاجات اللى حصلت ف روايات مارى كوريللى صحيحة .. تفاحة أمنا حوا أحمرت ونضجت قدام عينى . لما لقيت أن مافيش فايدة ف مندور أتحولت على حسان . أستغربت لما لقيت حسان بيفيض حنان أخوى ومفهومية .

– أبسنت مافيش دلوقت . لكن أنا أعرف صنف تانى اسمه برنوه صحيح مش ف درجة الأبسنت إنما كفاية انه يجيب لك كل الأحلام اللذيذة اللى أنت عاوزها . دا عبارة عن ميه أكسوجينية . تحب تجرب ؟ .

– مافيش مانع . عن أذنكو .

أخذنى على قهوة ف آخر شارع مونج وقعدنا مطرطرين ع التلتوار كأننا قاعدين فى «البول نور» لحد ماجه الجرسون . قلت

ف عقلي دا حسان دا باين عليه «شيك تيك» ويحب يخدم الأخوان. أخدت كأس واحد . الميه ليها لون لكن دا مالوش لون الراجل اللى قال «شفت عن كأس حتى لايشابهها لطافة وجفا عن شكلها الماء» دا لازم كان بيشرب برنو . لولا بس إنه قبل كدا كان قال «صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها» ماكانش يبقى فيه مجال للشك . لكن بالشكل دا ماتفهمش دا كان بيشرب وسكى والا زبيب يظهر إنه ماكانش بيشرب خالص ، ويظهر أن عمره ماشرب أنا ماعنديش غير كلمة واحدة أوصف لك بيها البرنو كريستال . وهو بيترجرج إنكسرت فيه ألف شعاع من أنوار البار ومن أنوار البار اللى جو المرايات ومن أنوار البار اللى قدام البار بتاعنا . أم عمل زى الزيبق أو الكورا المعدن اللى يبص لها كتير ينام دا بالضبط اللى أنا عملته . نمت تنوين مغناطيسي . من كأس واحدة لاقيت نفسى بادوخ . أطرافي نملت ورأسى لفت حسان قال لى :

– جرى ايه ؟ خليك سبع كأس تانى يا أبرينيه .

كأس تاني أيها القارىء وبقيت ف عرض تاكسى . صرخت .

– تاكسى .

لكن ماحدش سمعني غير حسان . قام قال لى :

– تاكسى ايه العبيط دا دى الوكاندة دقيقة ونص . ومع ذلك

أنت حالتك عادية خالص . دى بس تهيؤات . كل شوية الزتون دى..

أكلت شوية الزتون دى .. توزنت شوية ..

– كمان كأس ..

– مش ممكن ..

– والله كمان كأس ..

– لا والله .

– أديك رقت أهو .. يا أبرينيه ، كمان واحد ميه أوكسوجينية .

– بقى أسمع ياحسان أنت يظهر انك عاوز تتفرج على با أطوح ف الشارع .

– أبدا والله ..

– طب أنت مابتشربيش ليه .. أشرب وأنا أشرب ، عشان ماحدش يضحك على حد .

– أنت مش قلت انك عاوز تجرب الأبسنت ومع ذلك أنا ها آخد واحد ..

وأحنا بنتكلم الكلام دا طبوا علينا بقية الأخوان وطب الجرسون بالبنورة اللى بيترجرج جوه بنورة . هزيت رأسى عشان أفوق قدام الجامعة وفعلا صحيت شوية . إذا لم يكن من الموت بد

فمن العجز أن تموت جبانا . آدى الكأس وآدى حضرة المجرب الأعظم آدي الجمل وآدى الجمال .. يا أشرب يا أتلهى على عينى وبلاش تلحمة فاضية تاني . يعنى أنا هايقلبونى تلات كاسات برنو شربت الكأس تقريبا فى بلعة واحدة . وأنظر ما كان من أمرى أخينا دون كيشوت دى المنيا . لما استقر السائل فى جوفى ، أحسست بالقىء في حلقى وأنفى وقلت يا حسان ، يا أخلص الأخوان ، فتلعد لوملتنا إلى الخان ، فما تردد الصديق ، بل جذبنى إلى الطريق ، وأنا أتمايل كالمخمور ، والدنيا أمامى تدور ، فاتكأت كذلك على مندور ، حتى بلغنا الأوتيل ، فشددت الحبل ورفعت هامتى ونصبت قامتى ، فما أن بلغت غرفتى حتى شهقت على خيبتى وأنكفأت على الحوض وصحت أن أع أع . غفرانك يابديع الزمان ، هنا تعجز القوافي عن التبيان ، هذا ما كان من أمر أخينا دون كيشوت دى المنيا . مالك ومال الكاسات ، روح وفر وأحلق ياعبده .

صحيت تاني يوم الصبح بدرى قوى بصداع أمريكاني أصلى، لاقيت الأولاد كمان صاحيين . على فكرة ، إحنا كنا تلاته نايمين ف أوده واحدة ، لأن اللوكاندة كانت مزحومة بسبب المعرض . وهات يا تاليس . «الله يأرفك ياشيخ» . «فضحتنا يا أستاذ» «قوم

نضف الحوض قبل ماحد يدرى» مش ضرورى أقرفك بالتفاصيل صدعت بالأمر ونضفت الحوض . مش ضرورى تعرف إزاى . ودى كانت خبطة فوقتنى .

بيتنا ف باريس ليلة تانية ، مش عارف ليه ، قعدت ف الأول أعارض أن إحنا نبات في باريس وقاموا كلهم هبوا فى زى كلاب جهنم . سكت ، غلب طبعا ، لأنى ماحبتش أسافر وحدى انجلترا ، إزاى أسافر وحدى انجلترا وأنا ما أعرفش مخلوق هناك .

عزمنا وحزمنا وف الضهر قمنا من محطة الشمال – اسمها كدا – على بلاد الانجليز .

دى ساعات خطيرة ف تفكير الانسان . انك تحس انك مش عايش إنما بتتفرج ع الدنيا جو سفيرة عزيزة . أنا مرة مثلا كنت راكب تاكسى ف شارع إبراهيم باشا وشفت بلوند قاعدة ف تراس ف الكونتننتال . دى أجمل مرة شفتها ف حياتى ، ومع إنى ما أحبش الشقراوات لكن قلبى نبض وغمضت عينى لحد باب الحديد عشان ما أشفش حاجة تانية . أنا كمان شفت باريس بالشكل دا . حرام دا . يمكن المؤلف المسرحى أفيدله إنه «يتفرج» ع الناس ، لكن الشاعر الزم له أنه «يعيش» مع الناس .. أنا مش شاعر ولا حاجة لكن أن كان ولابد فأنا عايش ف برج عاجى

مدندنش بالصدف الملون والأبنوس ، ويفتح ع البحر الكبير ، زى القصر اللى كانت عايشه فيه ليدى شالوت بتاعت تيسون ، والقصر اللى وصفه كيتس ، أبو شبابيك مسحورة .

أنا برضه لماكنت ف كمابريدج وطلعت ف حكاية الكتابة بالمصرى عملت قصيدة أولها :

أنا سكنت فى قلعة
والقلعة دى مسحورة
وفيها لمبة والعة
يشوفها ف الشبورة
اللى تعب والتايه
وأبو آمال مكسورة
أنا سكنت ف القلعة
تطل ع المحيط
أبراجها مايله تحكى
للزبد الغويط
يمكن بناها جنى
يمكن بناها القوط
وعشت عيشة هادية

بكره زى الأمس
وشفت ألف موجة
تغسل حفافى الشمس
حياة وتيرة واحدة
طول عمر الحب همس
والغيمة قرمزية
والليل سمير الرمس

كان المرحوم حلمى رفاعى دايما يألس ع الشعر بتاعى ، ويعايرنى بالقصيدة دى .

أنا عارف أن شعرى وحش إنما أنا ما با أعملش شعر عشان يعيش لكن عشان «أجرب» وأشجع غير أنه يجرب . ما تنساش إنى مدرس أدب وعندى نظريات عاوز أنشرها .

أنا با أذكر الحاجات دى كلها عشان أورى لك إزاى حز فى ترك باريس . لكن فى شعور أهم من دا كله . شعورى وأنا ف القطر بأنى ساعة ما أحط رجلى ف دوفر حياتى الجديدة تبتدى . القطر مريح والهوا جميل والصحبة لطيفة ، وأبص من الشباك أشوف الريف الفرنسى مكشوف الجمال ، يعنى مافهوش جمال . مافيش تراب . أيوه مافيش تراب كل بلاد الله مافيهاش تراب .

إشمعنى يعنى مصر بس اللى فيها تراب . حاجة تحير . يعنى إحنا بس اللى عندنا ريف ؟ ما كل العالم فيه ريف . أصل مستر ماكادام كان من أعداء الشرق برضه وعشان كده أمتنعت وزارة الأشغال المصرية أنها تبلط الطرق . كان فيه مدرس انجليزى ف مدرسة ثانوية عندنا مرة سأله تلميذ عن معنى كلمة «ليك» قام قال له دا اللى بيستنى ف شوارع مصر بعد ما يخلص المطر . وفيه واحدة فرنسوية مرة كتبت كتاب عن مصر قام أفاضت ف ذكر أهمية التراب ف حياتنا الأهلية . تراب في تراب . كل حاجة هنا فيها تراب . تراب ف دوسيهات الحكومة . تراب ف عيون الناس . تراب في السكك . تراب وعماص ووساخة ربانى أنا أفهم ليه بيت الفلاح المصرى يكون وسخ . الفقر . أنا أفهم ليه جلابية الفلاح المصرى تكون وسخة . برضه الفقر . لكن ليه الشوارع والطرق عندنا تكون زى ما خلقتها الطبيعة الحكومة المصرية مش فقيرة . الحكومة المصرية بتصرف كل سنة ١٥ مليون جنيه ع الكتبه اللى بيسركوا جوابات ف المصالح وأنا كل مرة أسافر ف مصر من بلد لبلد أتعمي ويدلتى تعدم ولما الناس تاخد رمد صديدى يقولوا لك دا الرمد من أمراض المناطق الحارة . أبدا . الرمد الصديدى من أمراض الحكومة المصرية .

نهايته أهواريل شال المائدة بتاعته قبل ما تاكل زى ما أنت شايف ، وباريس بقت ف عيني ذكرى أغمض عليها الجفون .. ودخلنا كاليه ماريتيم ودخلنا المركب اللى هاتعدى بينا المانش .. أهى فرنسا كلها أصبحت ف عيني ذكرى أغمش عليها الجفون .. وأنا لسه ف أرضها وأنا لسه على ميتها . دا لأن تفكيرى كله أشتغل بالمخاطرة الكبرى اللى ورا الميه ، المخاطرة التى أبتدت ساعة ما أصبح المانش «الفتاة الانجليزية» زى ما بيسموه الانجليز.

الوداع يا فرنسا . لا أذكر إننى دخلتك أو خرجت منك مرة من أبواب الشمال أو من أبواب الجنوب الا لازم لقيت اتنين شيالين بيتخانقوا .. الوداع يا فرنسا اللى حسيت فيكى إنى لسه ف مصر الأهل أهلى والقهاوى ع الرصيف .

صخور دوفر

ماتيو أرنولد

مافيش حاجة اسمها مصر قطعة من أوروبا . أوروبا انهيه ؟ فرنسا وايطاليا ، يمكن انجلترا لأ .أقرب إلى الصواب انك تقول أن فرنسا قطعة من أفريقيا . الطلياني مش غلطان لما يسمى البحر المتوسط «نوسترا مارى» ، يعنى «بحرنا» ، وطرابلس «نوستر أريفا» يعنى «الشاطىء بتاعنا» المصرى كمان لو قال نفس الكلام دا عن إسماعيل باشا ما كان عاوزها - حتة من أوربا - بالكتير هاتبقى زى ايطاليا أنا مابا أعبش ف ايطاليا . أنا مابا أعبش ف حد .. لما أقول أن الفرنساوى مختلف عن الانجليزى ما أقصدش أن واحد فيهم أحسن من التانى . كل اللى با أقصده هو أنهم مش زى بعض . الفروق اللى بين انجلترا وفرنسا والانجليز والفرنسويين جوهرية أكتر من الفروق اللى بين فرنسا ومصر والفرنسويين والمصريين . يمكن دا الوضع العلمى بتاع الفكرة .

أركب المانش نوبة وشوف بنفسك . شوف إزاى الطبيعة نفسها مختلفة بين كاليه ودوفر . مرة واحدة تلاقى السما أتملت غيوم والبحر الأزرق الفاتح بقى لونه زى القصدير . شوف إزاى الريح

نفسها مجراها وسرعتها ووزنها الموجة تتنفس زيد أغبر زى الفضة المطفية . شوف السهل يضحك ورا ضهرك بالسنا السابغ والدفء العميم والصخر قدامك ينطح أجواز السما الغامقة . ووقفت أنا وهتلر وماثيو أرنولد وبولس تلميذ المسيح قدام صخور دوفر وصحنا .

فا أتصدعت الصخور وأجامت زى الملك لير لكن ف تهكم .

ولما وصلنا المينا وقفت ف بوز المركب وأفتكرت كلام أدجار لدوق جلوسترف رواية الملك لير .

كل ده شعر عظيم من الدرجة الأولى ، ولكن شعر بس . ماثيو أرنولد كتب قصيدة عن «شاطىء دوفر» شبه الشاطىء فيها بحصى الحياة المكشوف .. هى دى الجملة اللى أنا بدور عليها وأنا ف المركب با أتأمل ف ساحل انجلترا الجنوبي . أيوه حصى الحياة العارى . الحصى العارى مش المدفون . هى دى الجملة اللى دايما با أفكر فيها كل ما أسيب عزلتى وأندمج ف العالم عشان أكل عيش أو عشان أعمل واجب اجتماعى مكتوب على جبينى إنى ها أعمله ، لأنى ماشى حافى والرملة سخنة تحتى والقحل أصفر فاتح كله ظلط مدبب . كان حلمى رفاعى الله يرحمه دايما يقول ع البنت اللى بيحبها دى واحة ف صحراء الحياة . أنا

كمان يا أدور على واحة . مافيش غير حسانين باشا هو اللى بيلقى واحات ، ويمكن كمان الناس اللى لابسين جزم يقدروا يمشوا ف الرملة أكتر ، أما أحنا الحفيانين ماثيو أرنولد وأنت وأنا ، فحقنا ياندور على دير نسكن فيه يانموت ف نوره ناكل الأشواك اليابسة ونصهر الحصى المسموم . ياريتها رمل أملس ممدود للأبدية ، كنا سمتها نقول خيبة.الرجا بقت روتين . لكن دى ظلط عارى . أنا شفت حاجة أجدب من الرمل ، ودى الظلط القاسى ، البازلت اللى أتعصر بعد الطوفان على طول .

كل دى أفكار جت وراحت ف ثانيتين . وأسود منها كمان وجه وراح ف ثانيتين وأنا واقف ضهرى لهولندا ووشى لضابط الجمرك. قال لى ع اليمين ، قلت «رايت» .

اليوم الأول ..

قبل ما نركب قطر السهم الذهبى بين دوفر ولندن فتنا على دكتور الميناء قام كشف على أسنانا واحد واحد . غير كدا مالقيناش صعوبة فى الجمرك . ان كان معاك خمس شنط يسألك موظف الجمرك . «أنت معاك حاجة ممنوعة أو جديدة تقول «لأ» يقوم ينقى شنطة واحدة ويخليك تفتحها ويلقى عليها نظرة عامة وأن مالقاش حاجة ممنوعة أو جديدة يأشر على كل النشط الباقية من غير ما يشوفها قلت فى عقلى شعب عنده معقولية . المعقولية دى تحسها لما تقارن الطريقة دى بطريقة الفرنساويين . مافيش مرة دخلت فرنسا الا خلونى أفتح كل الشنط ، حتى الآلة الكاتبة اللى كنت دايما أشيلها معايا . ويدويك الحق قطر الجنوب بجهد فظيع ومع ذلك فرنسا كان نصفها جواسيس بينما انجلترا ما حدش قال عنها حاجة .

ركبنا السهم الذهبى وانطلق بينا ف وسط الريف الانجليزى . إذا كنت فاكر رحلات المدارس فى مصر والروح اللى بتسود الجماعة فيها تقدر تعرف حالتى النفسية وأنا ف القطر . زى ما قلت لك أنا ماكنتش لوحدى . طول الوقت فى قطر كاليه كنت قاعد

أضحك وأهرج وأتكلم بصوت عالي . كان فيه ناس كتير بيعملوا كده ومافيش حد واخد باله من حد . حبيت أعمل كده ف قطر لندن بصيت لقيت العربية كلها ديوان واحد زى ما تقول الديزل مثلا .. بصيت حوالى لقيت خواجات نضاف فكرونى بالمساتر الانجليزى بتوع الثانوى ، كل واحد قاعد ف حاله ماحدش بيكلم حد . اللى قارد جرنال ، واللى بيضع بيبه وعينه شاردة ف المراعى والغيوم الغربية ، واللى مغمض عينيه من غير ما ينفس ولا يفكر . وهنا وهناك كان فيه مرة تخينه لابسة بالطو قطن مقلم وبرنيطة رخيصة بوردة غامقة . كما كان فيه راجل أو اتنين باين عليهم بقالين أو كومسيونجية .. وف آخر العربية قعدت بت حلوة قوى قوى ، ودى أول مرة أشوف فيها الجمال السكسونى الأصيل .. أتلفت ورايا لقيت عيلة بأولادها بيناتها قاعدين ساكتين يبصوا لبعض .. حاجة تضايق بصيت لعمار قام زغرلي زغرة معناها «أعقل وماتفضحناش» ، بصيت لقدرى لقيت حواجبه بتقول «أقعد على بعضك ، مش شايف الناس هاديين» مافيش صوت ف العربية كلها غير صوت العجلات . والنهاية ؟ نهاية الصمت دا ايه ؟ مديت بصرى من تاني واللى شفته ف الأول شفته من تاني . طليت من الشباك لقيت سحاب رمادى مفضض . لقيت مراعى منحدرة علينا

كـأننا مـاشيين ف وادى من وديان ادجـاربو - الوادى اللى كـان بيقابل فيه اليونورا ، والخضرة زاهية ، أزهى من أى حاجة شفتها ف مصر ، أزهى من لون العلم بتاعنا وأزهى من الخضرة اللى ف أناشيد عبد الوهاب . لادى دف جوردون يمكن معاها حق لما تقول أن ما فيش خضـرة أخضـر من خضـرة وادى النيل . إنما اتهيألى ساعتها أن مراعى قلعة كنت دى أخضر من الحشيش المبلول اللى مشى عليه سيدنا آدم قبل ما يـهوى . وف قمم المنحدرات فيه بيوت صـغيرة حمرا مبعثرة سقوفها زى سنام الهجين . وع المنحدرات شفت خيل حمرا بترعى لونها واضح قوى . بالرغم من الشمس المحجوبة . وهوا اكتوبر الخفيف المشحون بالندى يمسح خدى برفق . دى مش المناظر اللى رسمها تيريز .. تيريز ماشافش لون إلا من ورا قزاز مكسى بالبخـار . دى ألوان واضـحـة زى ألوان روبنز ولا فرمير . دى ألوان واحد مبسوط من الحيـاة ، واحد القرينة بتاعته صافية .. واحد شهوانى طروب بيشرب شاى ف الخلا ويشم السندس البليل ويرقص كل عصرية مع فلاحين القرية حـوالين داير ويسيب أثر مـا يروحش ع الحـشيش . دا كله بره القطر . جوه القطر أبص ألاقى الراجل اللى بيقرأ الجرنال لسه بيقرأ ف نفس الصفحة ويمكن ف نفس الخبر .. والبيه اللى ف يق

جارى البعيد ماتخلصشى أبدا بين دوفر ولندن ، والست التخينة لسه تخينة والبنت الجميلة لسه جميلة وعمار قاعد سهتان وقدرى نايم على روحه وصوت العجلات واضح من الأول والتفعيلة الخالدة اللى بتفكرك بشعر برايور هيه هيه طالعة من الكرانك النشيط ومحدش بيكلم حد «حسيت» أنى ف انجلترا . تم تى تم ، تم ت ت ، تم ت ت ت ت تم . فاعلن ، فاعل مفعول إذا كنت من دار العلوم ولا قريت كتاب «الكافى» ، فى علم العروض والقوافى تقدر تفهم العجلات كانت بتقول ايه .. بديهى أن الراجل اللى كان فارد الجرنال ماكانش بيقرأ لكن بيحلم .. والبيبه اللى بتحملق ف المجهول لازم كانت بتحل مشكلة زى بيبة شرلوك هولمز .. والبنت الجميلة لازم كانت بتفكر فى ايد فرنسوا بتضغط ايدها وهم واقفين بيتفرجوا على فترينات ريفولى . كل الناس باين عليها أنها بتفكر . أنا أعرف أن الواحد فينا إذا اضطر أنه يقعد ساكت لابد يفكر ..

ع القياس دا الانجليز كان لازم يكونوا أكتر شعب بيفكر ، لأنهم أكتر شعب يستأنس بالوحدة ، والسكون . ع القياس دا كان حق الانجليز يكونوا أكبر شعب فلسفى أو مغرم بالتأمل .. ومع ذلك فالانجليز ما يكرهوش قد الفلسفة والتأمل . الانجليزى مع

الاعتذار لكوليريدج – هو الحيوان الوحيد فى صورة أدمية اللى يقدر يقعد ساكت عشر ساعات من غير ما يعمل حاجة أو يفكر ف حاجة . افرض أن أنت البقال اللى كان راكب معاية ف القطر ومعاك أربع ساعات لحذ محطة فتكوريا بشرط أنه مافيش كلام . تفكر فى أية هاتبص من الشباك وتقول ف عقلك «ما أجمل هذه المراعى «الله ع الحصان دا لو كان بتاعي . كل غيمة ولها داير فضى . الجو منعش زيادة عن اللزوم . أيوة الله ع الحصان دا لو كان بتاعى» ويعدين تبص جوه العربية وتتصفح كل الوشوش .. مافيش حد . الراجل اللى قاعد ف الركن باين عليه سمج .. خلصت الأفكار المباشرة .. ولسه فاضل السكة كلها إلا عشر دقايق . تبدى تفكر ف المسز والبرنيطة اللى اشتريتها لها يا ترى مسز بورتر ومسز ويلكنسون وامرأة القسيس اللى ساكن قدامنا هايقولوا ايه . يا خسارة الفلوس اللى ضاعت هدر . مش يمكن المسز هاترضى تلبسها لما توصل دويستون . برضه احنا أحسن من الفرنساويين كثير . احنا محتشمين وهم سايبين . أوه يعنى فيه حاجة أحسن من الروسبيف واليور – كشر بودنج قال اسكالوب قال . قال بينت قال . قال بوردو قال . هو فيه أحسن من بيرة تولى والحلوة مين عندها صدغ تلبس البرانيط بتاعتهم . شوف

احنا طوال ازاى وهم قصيرين ازاى . جيمي المغفل ماكنش حقه يسقط السنة دى . أنا لازم أطلعه واشغله معايه في الدكان . ايه فايدة التعليم الكتير ؟ التعليم ما بيعلمش رجاله . الرك ع التعليم والحياة أيوه مدرسة الحياة اللى أنا وغيرى اتخرجوا منها . أنا مثلا من سن خمستاشر اشتغلت صبى بقال ، وأنا دلوقتى صاحب بقالة ف سن خمسة وأربعين . ايه يعنى اللى ناقصنى الجرايد ويقراها ، أدى لى عشر سنين مافاتتنيش عدد من الديلى اكسبريس والمسز كمان بتقرأ الديلى ميرور .. البار وباروحه . الكنيسة وباروحها كل يوم حد ، وعمرى ما غشيت حد ايه بعد كده ؟ كل اللى بيعرفونى بيحترمونى ، واللى ما بيعرفونيش . أنا عوز ايه أكثر من كده ؟

مستر تشمبرلين مش قال أن الانجليزى محترم منين ما يروح؟ الحمد لله أن الواحد انجليزى . ازاى سعر البطاطس الإيرلندية نزل الاسبوع اللى فات . أحنا مش قلنا أن الايرلنديين ملاعين ، وهكذا . أنت ما تقدرش تسمي دا تفكير . أن كان ولابد أنك تسميه تفكير فهو تفكير بدائى يقدر عليه أى واحد بسيط . أركب مرة ترسو ف سك حديد الحكومة المصرية . تلاقى فلاحين برضه ساكتين بيفكروا . بيفكروا ف المحصول ف شئون البيت . ف

المستقبل القريب ومع ذلك المصرى عشرى . يعنى ساكت صدفة يعنى لما فلاح جنب فلاح ما يعرفوش ويسأله من الباب للطاق «الا يا أبو أحمد ، كيلة الدرة فى بلدكم بكام» يجوم يجول له «بستاشر جرش الأسبوع دا» ويبتدوا يدردشوا مع بعض كأنهم أصحاب من زمان . الانجليز بأه مايعملوش كده . كل واحد فيهم محتضن ورا جرنال أو كتاب أو مغمض عينيه بس عشان ما حدش يعكر عزلته ، بالشكل دا يشعر بأنه ملك نفسه طول الوقت . ودى حاجة مهمة عند الانجليز .

السبب ف الحكاية دى بسيط وهو أن الانجليزى خليط عجيب من حاجات كتير تلاقيه مثلا خليط من الثقة بالنفس وعدم الثقة بالنفس . ف الوقت اللى تلاقيه متكبر جدا ومعتقد تمام أنه بشخصه وجنسيته أحسن منك ومن غيرك ، تلاقيه ف داخليته ماعندوش ثقة كافية بنفسه تخليه يكشف لك عن شعوره ومعلوماته وتفكيره قبل ما يعرفك معرفة كافية . انجلترا جزيرة وكل واحد انجليزى ف نفسه زى الجزيرة . فيه رابط طبيعى بين الشعورين . إذا كنت أنت متكبر - صحيح - مش بعبط - تحاول أنك تبعد مش بس عن الناس أنما عن كل حاجة يمكن تجرح كبرياءك . مناقشة مثلا مع واحد ما تعرفوش ف القطر جايز تجرح كبرياءك

إذا ظهر أن اللى بيناقشك بيفهم أحسن منك . فعلى اية ؟ أبعد عن الشر وغنى له . طبعا دا مش السبب الوحيد . سبب تانى هو أنك إذا تعرفت بواحد بسرعة ودخلت معاه ف كلام هاتضطر بطبيعة الحال أنك تكشف له عن نفسك . ويوم ما حد يعرف أفكارك ، وأسرارك بديهى أنك تبقى ف قبضة أيده أو ع الأقل نص سحرك يزول زى المرة تفضل سر طول ما هى مكسية ويوم ما تقلع الهدوم بقت زيها زيك . دا السبب فى الحكاية المشهورة عن الانجليز أنهم لما يتعرفوا جديد مايتكلموش غير عن الجو والرياضة والحاجات اللى لا تودى ولا تجيب ، والحاجات اللى مالهاش دعوى بشخصية الانسان .

بالمناسبة دى ، مرة كنت راكب القطر من كامبردج للندن ، وكان معايه ف نفس الديوان راجل انجليزى باين عليه من رجال الأعمال متوسط الحال . يومها كان اليوم اللى هتلر دخل فيه تشيكوسلوفاكيا . يظهر أن الراجل لما لاحظ أنى أسمر قال فى عقله يا واد جرب يمكن تتعلم حاجة جديدة . طبعا افتكرنى هندى ، على فكره ، ف انجلترا كل واحد أسمر هندى لحد ما يقول أنه مش هندى . بعد تلات دقايق لقينا نفسينا بنتكلم عن الموقف الدولى ويظهر أن الراجل دا نسى شوية أنه انجليزى لأنه ابتدا يدخل بصراحة فى السياسة .

كل واحد فاكر اللى حصل . وكل واحد كان له رأى ف الموضوع . بالنسبة لى أنا كان مستر تشمبرلين غلطان ودى كانت فرصة نادرة لاعلان الحرب وسحق المانيا قبل ما تستعد خصوصا أنه كان لسه فيه معاهدة هجومية دفاعية بين باريس وبراج وموسكو وكان لسه فيه تحالف صغير . كل الناس كانت خايفة من الحرب وصاحبنا دا كان زيه زى بقية الناس المهم أنا قلت له افتكر أن ألمانيا أن مالحقوهاش ساعتها هاتبقى حكايتها حكاية طبعا ما صدقنيش لأنه كان من النوع اللى عاوز يشترى السلام بأى ثمن . كمان أضاف لكده أنه برضه يؤمن بتفاهم الانجليز مع الألمان على حساب الروس وأنه لازم يكون فيه كوردون صحى بين غرب أوروبا وبين البلشفية الخ الخ .. وكل الأفكار القديمة العقيمة دى . ما صدقنا وصلنا رويستون نبص نلاقى تلات عمال دخلوا علينا الديوان وقعدوا معانا . وعنها وأبص ألاقى الراجل اللى قدامي من سكات سحب جرنال وقعد يتأمل فيه . فهمت أن المناقشة انتهت هنا وسحبت كتاب وقعدت أفكر وراه . السبب الوحيد اللى خلى الراجل يبطل كلام هو وجود أجانب ف الديوان . هو نسى نفسه مرة معايا وفتح حديث غويط من غير ما يعرفنى ، وأظن أنه ماكانش مستعد ينسى نفسه مرة تانية . أمال

ايه يبقى الفرق بينه وبين الراجل الفرنساوى مثلا اللى يحكى لك عن دخله وغرامياته وخصوصياته من أول قعده .

التحفظ دا - قبل ما نسى - خصلة من خصال الطبقة المتوسطة وطالع بس ف انجلترا . لأن العمال هناك ما يعرفوش يخبوا حاجة . يكلموك من غير معرفة يكلموك ف كل حاجة . ويكلموك ف أى مكان . أدخل أنت بار من بارات العمال تلاقيهم يجروا معاك حديث من الباب للطاق . الستات كمان ما عندهمش تحفظ . يمكن عندهم تحفظ بينهم وبين بعض ، لكن مش بينهم وبين الرجالة ، يوم ما كنت أقعد ف نفس الديوان مع واحدة ست أحمد ربنا أن مافيش جرنال أو بيبة يفصلونا والرحلة تفوت بسرعة . والسبب واضح طبعا . ف الحالة الأولى الانسان اللى مش متعلم لسه ع الفطرة واللى ع الفطرة ما عندوش كبرياء ولا حوادث تبعده عن الناس التانيين لأن الكبرياء والحواجز دى اجتماعية صرف وفى الحالة التانية الدافع الجنسى الخفى اللى بيسيطر على أغلب تصرفاتنا بيكون أقوى من أى نوع اجتماع عرفى .

أنا برضه أفتكر أن لى الحق أنى أحكم على اخلاق الانجليز لأنى احتكيت بيهم .. احتكيت بيهم مش بس ف انجلترا ، ف

القاهرة وف مصر ، وقبل ما أسافر وبعد ما رجعت . طبعا أنا ظروفي مختلفة شوية عن ظروف ناس كتير لأني تصادف أني «باشتغل» طول الوقت مع الانجليز وبحكم عملي مضطر أصاحب انجليز يمكن أكتر مما أصاحب مصريين . فيه واحد صاحبي كان دايما يشتكي لي من اللي بيسميه برود الانجليز وابتعادهم ، لأنه كان بيلاقي صعوبة ف أنه يتعرف بيهم . وكان دايما يقول لي أن سبب الحكاية دي أنهم بيحتقروا المصريين . دا مش صحيح ، لأن الانجليز يحبوا الابتعاد حتى مع بعض . أنا فاكر لما كان يدخل علينا مدرس جديد ف أودة أساتذة قسم اللغة الانجليزية ف كلية الآداب ، كنا مانسألش فيه . نبقى عارفين أنه هو المدرس الجديد ومع ذلك نسيبه لوحده زي الفرخة الدايخة لحد ما ييجي رئيس القسم ، ويقدمه لينا واحد واحد . نفضل بعد كده أسبوع أو اتنين ما نكلموش غير ف الشغل والحاجات البسيطة وف بعض الحالات الرسميات نفضل نشتغل شهور وشهور . يعني نستعمل اسم عيلته بدل ما نناديه باسمه الأول مانكلموش غير عن المحاضرات والجداول وما أشبه .

مسألة الموضوعات المسموح أن الواحد يتكلم فيها دي مسألة مهمة جدا . أنا فاكر أن نوبة كنت قاعد أقرأ كتاب جنينه وبعدين

طب على واحد صاحبى وف ايده واحد صاحبه انجليزى . متقدم شوية ف السن . عرفنا ببعض ، وهات يا كلام . من موضوع لموضوع ، لحد ما ابتدينا نتكلم فى الستات . ونسينا نفسنا وأتكلمنا ف تفاصيل عن الستات . كل ده من أول مقابلة وبعد ما انتهيت المناقشة شعرنا كل واحد فينا ببرود شديد لأنها كانت غلطة وكان تعليق الانجليزى قبل ما يستأذن «يظهر أن احنا اختارنا موضوع غريب شوية للكلام ، أنا مش عارف جرى لنا ايه النهارده .. مع السلامة» ضحكنا وقلنا «مع السلامة» . من يومها ما قابلتوش تانى إنما أنا متأكد أنى لو كنت قابلته يمكن كنت تجاهلته ، أو ع الأكثر سلمت عليه ببرود . فيه واحد زميلى انجليزى ف مصر اتعرفت بيه ف الاتحاد المصرى الانجليزى وكان يوم بطاله عندنا احنا الجوز فسهرنا مع بعض . انما يظهر أننا سهرنا شوية زيادة عن اللزوم . من يومها وكل ما نتقابل سعيدة سعيدة بس . ما فيش أكثر من كده حسب العادة المصرية السهرة دى كانت أدعى أن أحنا نبقى أصحاب أكتر - لكن أنت بتنسى أنك إذا انكشفت قدام واحد ضاع احترامك لنفسك وضاع مركزك عنده . قصدى لحد ما تبقوا أصحاب صحيح يبقى ساعتها مش مهم أى حاجة . ساعتها تبقى الصلة بينكو مبنية ع الحب المبتادل

وده يعوض الاحترام اللى ضاع . إنما ف المرحلة الأولى مادام الحب لسه ما توجدش يبقى ضياع الاحترام لوحده كفيل أنه يموت العلاقة . فاهم ؟

التحفظ دا له فايدة تانية . إنك تقدر تحتفظ بوحدتك لما تكون عاوز . عشان كده أنا كنت ف انجلترا أسعد منى ف فرنسا أو مصر من الوجهة دى . تدخل البيت الانجليزى تلاقى الراجل فاتح كتاب والمرة فاتحه جرنال أو بتغزل أو بتحل تمرين هندسة ساعة ، ساعتين ، يمكن أكتر ، وأخيرا تسمع المرة تقول للراجل «تحب أعمل لك فنجان شاى يا عزيزى؟» هنا يبقى مافيش نهاية للثرثرة بتاعتنا . ف فرنسا كمان كل واحد مستعد يكلمك ف أى وقت . دا طبعا له مزايا ، إنما أنا أفضل الطريقة الانجليزية .

الاعتراض الوحيد هو أن الانجليز يمكن بيبالغوا شوية ف التحفظ . يعنى ما تستغربش أبدا إذا اتعرفت النهارده بواحد انجليزى وقابلته بكره قام ماسلمش عليك . دى حاجة منتظرة وكمان ماتسميهاش برود بعد كل الشرح اللى شرحتهولك . خليك أنت كمان مستعد أنك ماتسلمس عليه لأنه هو نفسه ما ينتظرش منك أنك تسلم عليه بعد أول مقابلة . سيب المسألة للظروف ، وخليك تقيل .

احنا فين دلوقت ؟ الدنيا ضلمت شوية شوية ، والسما مطرت شوية ، وقزاز الشباك اتملا بالبخار والدموع ، والبرد عضنى قمت انتبهت . القطر وقف . أوعى تكون نسيت أنى أنا لسه راكب ف السهم الذهبى اللى قايم من دوفر للندن . القطر صفر ووقف . بصيت من الشباك المغبش لقيت ستين يافطة ، اشى مكتوب عليها كولجيت واشى بوفريل واشى بيره سناوت .. وعلى يافطة صغيرة لقيت اسم المحطة : كرويدون . يعنى خلاص بقينا ف لندن : قالوا لى .

بالمناسبة دى افتكرت نكتة عن واحد مصرى راح انجلترا وكان كل ما يقف ف محطة يلاقى يافطة مكتوب عليها «بوفريل» قام استغرب قوى وزغد اللى جنبه وقال له : «ما تآخذنيش ، هى كل المحطات اللى عندكوا اسمها بوفريل ؟» هأ هأ . ان كنت أنت كمان مش عارف ايه هو بوفريل تبقى وقعتك سوده .

ودخلنا فكتوريا .

ف محطة فكتوريا لقينا واحد مستنينا اسمه عبد الفتاح أفندى صاحب من الشلة . ودى أول مرة اسمع فيها الانجليزى الأصلى ، الانجليزى الكوكنى ، الانجليزى بتاع لامبث وبولاق وباب الشعرية اللى ما حدش يفهمه كان فيه شيالين بينادوا «شيال ، شيال» «بتا

، بتا» دورت ف قاموس معلوماتي مالقيتش كلمة اسمها «بتا» كانوا لابسين يونيفورم وبيشيلوا شنط وينادوا «بتا» ، وكان التفسير الوحيد هو أنهم شيالين . مع ذلك خفت انده واحد منهم يشيل شنطتي ، مين يعرف يا واد ؟ يمكن تسمع كلمة فارغة ، يمكن يكونوا حاجة تانية . بس يعني هايكونوا ايه ؟ وعلى كده وقفت مبلم اصتنت للكلمة اللي بيقولوها ، وحاطط عيني طبعا على بقية الشلة أحسن نتوه من بعض وقعه سوده .. وعنها وابص ألاقي عمار بيزقني على تاكسي . انحشرنا كلنا في تاكسي واحد وبعد كام ثانية قمت مفزوع وصرخت «الشنط» قعدوا يضحكوا على . كتر خيرك يا عبد الفتاح أفندي . اتاري عبد الفتاح أفندي كان واخد باله من كل حاجة ، والشنط كانت في ضهر التاكسي .

سقنا ف شوارع لندن والمطر كان نازل بشده . «على فين العزم ؟» «اسكت ساكت» وعبد الفتاح أفندي قعد يشرح اللي فات دا البرلمان الانجليزي . أنا مالي ومال اللي فات . أنا عاوز أشوف «حاجة» . التاكسي ماشي بسرعة معقولة ، والليل داخل ، والمطر نسخ شوية النهار اللي فاضله ودخان لندن الكئيب كسى كل حاجة صفره كئيبة . أنا كنت عاوز كامل التلمساني والا رمسيس يونان يشوفوا لون لندن ساعتها أقله كان فيه خمس ألوان ف الجو

ممزجة بعض ، دا خلاف ظل الغيوم المعكوس ع البيوت الحمرا ، يئست أنى أشوف حاجة ، ومع ذلك قدرت أشوف حاجة ، ومع ذلك قدرت أشوف «فالوس» طويل طويل ومتحزم بمطر وصماد ، قضيب طوله خرافى ف وسط ميدان ، فكرنى بعامود السوارى وهناك ، هناك على سن العامود ، أعلى من أى حاجة شفتها غير برج ايفل فيه تمثال راجل لابس سيفه ، داكن ، مطموس ، رأسه فى السحاب ، ملاحمه مش واضحة صرخت ، «دا لازم ميدان الطرف الأغر ، والتمثال دا لازم بتاع نلسون» الجماعة أندهشوا لأن عبد الفتاح أفندى قال أن الكلام دا صحيح . «أنا عرفته لأنى شفت صورته ف القراءة الرشيدة لما كنت فى ابتدائى» . التاكسى قرب يلف حوالين الميدان ويفوته . بحلقت بشدة فى التمثال يمكن اشوف إذا كان معمول بعين واحدة زى صاحبه ولا لأ . مافيش فايدة هانشوف ايه وتخلى ايه .. زمناننا بقينا ف اكسفورد ستريت . المتحف البريطانى ف الضلمة . رسل سكوير . ايوع رسل سكوير وبدفورد بليس . وهوب فرامل .

دخلنا اللوكاندة – ميرز هوتيل – مبلولين . أبص حوالى ألاقى فسحة كبيرة مكسية وف آخرها سلم عريض يطلع ع الدور الأول . أبص حوالى ألاقى خدامين لابسين يونيفورم بالتأكيد أنضف منى

. بقيت مكسوف من نفسي . واحد منهم كان ولد عمره حوالى ١٧ سنة شكله جميل بشكل : العيون النوردية الزرقا إياها وشعر أشقر لاتينى وشفايف خفيفة ناعمة كأنه كيوبيد كبر شوية . كل مرة أكلمه اتلجلج . أنا جاى منين ؟ حتى ما أعرفش أكلم خدام . الولد كان من ناحيته بيعمل المنتظر منه «أقدر أساعدك يا سيدى؟» «متشكر» رحت مناوله البالطو والبرنيطة . «أقدر أخدك لاودتك يا سيدى؟» رحت مسلمة نفسي يعمل فى ما هو عايز . أخدنى ف دهاليز وطنف وحوادايات وف الآخر لقيت نفسى قاعد ع السرير هلكان ببدلتى المرشوشة . «تقدر تطلع على بدلة ناشفة من الشنطة ..» وكنت على وشك أنى أقول «يا سيدى» وبعدين افتكرت أنه المفروض أن أنا السيد . «تقدر كما تجهز لى حمام سخن من فضلك ؟ » .

نزلت الصالون نضيف وحالق وشيك وقعدت على فوتيل بعيد وقعدت أفكر أنا السيد هنا هاهاها أنا مين ؟ واشمعنى مافيش سبب غير أن ف جيبى عشرة شلن لصاحب اللوكاندة أكل منها وأنا وأخد حمام منها وبيسهر على خدمتى تلات خدامين جرسونات لابسين سموكن والمتردوتيل لابس فراك وتبتسم لى الآنسة اللى قاعدة وراد المكتب . ويجى سيد لابس ملابس

التشريفة أصلع وشه بيلمع يفرك ايديه ويقول لى «أتمنى أن سيدى يكون مبسوط» ، ولو كان فرنساوى كان يخاف منى لدرجة أنه يخاطبنى بضمير الشخص الغائب .

على ايه دا كله ، على عشرة شلن ف اليوم . ما أسهل الحياة مغفل مين اللى ما يقدرش يكسب عشرة شلن ف اليوم . ياالسخرية .

غمضت عينى وناديت ف سرى الولد الجميل اللى واقف ف ركن الاودة التانى وقل له «جيمس» ، أنت مغفل كبير لأنك مابتقدرش تكسب عشرة شلن ف اليوم . أنت مغفل كبير لأنك واقف تنحنى لكل بأف داخل وكل بأف خارج وبتشتغل ببطنك أنت مغفل لأنك ماشتغلتش وسيط فى نادى ليلى أو جيجو لو ف مرقص عشان تكسب تلاتين شلن ف اليوم وأجرك مضمون ع الستات اللى بتخدمهم . بتقول لى واشتغل ازاى شغله مريحة من غير رأسمال ؟ رأسمال دى كلمة مالهاش وجود .. عندك شغلة من غير رأسمال . الوساطة مش عاوزة رأسمال البلطجة مش عاوزة رأسمال . النصب مش عاوز رأسمال . الأكل مش عاوز رأسمال . السياسة مش عاوزة رأسمال . روح يا جيمس واقف ف هايد بارك بدل ما أنت وقف ف ميرز هوتيل وقول ليسقط الألمان ، أو ليحيا

العمال ، أو أى حاجة . يمكن تتحبس ف الأول ، لكن أؤكد لك أنك بعد خمس سنين هاتضمن معاش سنوى أقله ألف جنيه . أنت مش عاوز رأسمال يا جيمس ، أنت عاوز قلب . روح لساحر ميونيخ يركب له قلب . أنت مش عاوز رأسمال يا جيمس ، أنت عاوز صدغ . روح لمستر روبرت تايلور يسلفك صدغه . ايه الفرق بينك وبين روبرت تايلور ؟ هو مش أحلى منك ، هو مش ممثل أكتر منك . بس هو صدغ وأنت مغفل . هو يبيع شفايفه عشرين مرة ف السنة لمستر صمويل جولدوين - الوسيط الأكبر - وبيوس له عشرين بوسه يقبض عليهم حفن ، وأنت تبيع كرامتك ووقتك وكل جسمك لليهودى الأصلع اللى لابس هدوم التشريفة ووشه بيلمه بس عشان تملا بطنك . روح يا جيمس أنا زعلان منك» .

مين المغفل دا اللى ما يقدرش يكسب عشرة شلن ف اليوم ؟ فتحت عينى ، وقبلت الأمر الواقع ، أنا هنا قاعد ع الفوتيل وجيمس هناك واقف ف ركن الاودة . طلعت سيجارة لقيت جيمس جاى جرى عشان يولعها لى . قبلت الأمر الواقع .. الأمر الواقع .. الأمر الواقع دلوقتى غير الأمر الواقع حاجة مالهاش دعوى لا بالعدل الاجتماعى ولا بالمنطق ولا بالتفكير السليم . الأمر الواقع أن دلوقتى لما با أخش على رئيسى دلوقت باجتهد أنه يكون على

راسى طربوش .. مين يعرف ، يمكن جيمس بقى زمانه صاحب اللوكاندة اللى كان بيشتغل فيها . خلينا ف الأمر الواقع اللى نعرفه .

اللى نعرفه هو أننا بعد العشا مباشرة أخذنا عبد الفتاح أفندى ونزل بينا تحت الأرض عشان نركب الترماواى . كل التراموايات ف لندن وباريس تمشى تحت الأرض وعشان كده بيسموها بكل بساطة اندر جراوند الضواحى افتكر لسه ترموایاتها زى ترموایاتنا أنا ما أقدرش أوصف لك التأثير العميق اللى سابه الأندر جراوند ف نفسى . نفس الفكرة عجيبة . أنا شخصيا .. افتكر أن المصريين حقهم يسافروا بره مخصوص عشان يشوفو المترو اللى تحت الأرض زى السياح الأمريكان ما بيجوا هنا عشان يشوفوا الهرم . يمكن كمان تفتكر أن المترو بتاع لندن أهم واعجب من هرم خوفو وقصر اللابيرانت والتماثيل اللى بتغنى ف الصبح مع بعض . المدة قريبة كنت أنا والاستاذ عبده فراج المدرس بالمدارس الثانوية بنحكى لبعض عن ذكريات أوروبا قام قال لى أنه أول يوم نزل باريس سأل واحد ازاى يقدر يوصل للحى اللاتينى قام قال له ، «تاخد المترو من هناك» وراح مشاور له على حته من الشارع وسابه . قام صاحبنا مشى لحد

هناك وفعلا لقى يافطة كبيرة مكتوب عليها «متروبوليتان» يبص تحته يلاقى سلالم تودى تحت الأرض ، أم افتكر أن دى مراحيض زى الكابينيهات اللى عملتهم محافظة مصر تحت الأرض ف العتبة الخضرا وميدان الاسماعيلية . يبص ف الشارع يلاقى مافيش شريط . يبص فوقه يلاقى «متروبوليتان» . قال ف عقله يمكن يا ودا المترو بتاع باريس مالوش قضبان . يمكن يا واد اتوبيس طويل ومسمينه مترو .. ويستنى ويستنى . أن حاجة تجى ما فيش. قال لى أنه قعد نص ساعة منتظر لحد ما طلعت روحه وبعدين وقف واحد ف الشارع وسأله «تقدر من فضلك تقول لى المترو فين» الراجل بص له من فوق لتحت – حكم الفرنساويين دول خلقهم ضيق – وشاور له ع اليافطة «أمال دى ايه ؟» أنا أدى لى ساعة مستنى والمترو ماجاش ، وهو بيجى كل قد ايه ؟» الراجل أدرك الغلطة ، وفهم أنه غريب ، وضحك شوية وسحبه من أيده ونزل بيه تحت الأرض وقطع له التذكرة وزوده بالمعلومات وسابه .

يمكن أنت تقول طيب دا صاحبك دا لازم كان غبى . أقوم أقول لك أن صاحبى دا كان أول البكالوريا فى القطر كله وأغلب مراحل الدراسة بتاعته . على أى حال كان أول على أنا ف الجامعة لما كنا

ف اعدادى سوا . أن كان دا مش دليل فدا من كتر ذكاؤه اتخصص ف الفلسفة وهضمها أكتر من أى واحد تانى ف عهدنا . إن كان برضه لسه عندك شك فأنا اعتقد أنه من أذكى الناس اللى قابلتهم ف حياتى ، ويمكن مافيش ميتين منه ف البلد كلها . معنى كده أنه أسهل على الإنسان اللى ذهنه خالى أنه يتصور مترو من غير شريط من أنه يتصور مترو يمشى تحت الأرض .

أنا كنت دايما با أقول للناس اللى بيسألونى عن لندن أن أهم حاجة فيها الاندر جراوند . أهم يمكن من المتحف البريطانى وبالتأكيد أهم من البرلمان الانجليزى أو من كاتدرائية سانت بول .. وأهم حاجة فى الاندر جراوند هى الاسكاليتور . الاسكاليتور دا يطلع السلم الميكانيكى . ف باريس ينزلوك تحت الأرض غالبا فى أسانسير ، أما فى لندن فحضرتك تدخل المحطة تلاقى سلم مكشوف منحدر غويط قوى بينزل ببطء تقف عليها يقوم ينزل بيك درجة درجة أن كنت مستعجل تقدر تجرى عليه لتحت . وأنت طالع من تحت الأرض . برضه فيه سلم ميكانيكى يطلع بيك درجة درجة وتقدر أن كنت مستعجل ترمح عليه لفوق . وألذ منظر بقى ف المحطات الكبيرة لما ليقوا السلمين موازيين لبعض ونازلين

لعمق ستين ياردة وتلاقى ناس ثابتين بعضهم طالع وبعضهم نازل .. بيبقى منظر لطيف ، وألطف منه الشعور اللى بيجيلك ساعتها .

أنا لسه عند رأيى ان الاسكاليتور ألذ عندى من الدستور الانجليزى .

شهر العسل في
المتحف البريطاني

كان المفروض أننا نأتى يوم الصبح نقدم نفسنا لمكتب البعثات .. وفعلا رحنا وستمنستر حوالى الساعة عشرة .. افتكر أنه كان يوم سبت لأنى فاكر أن تانى يوم البنك كان قافل .. طلعنا ف كلارنس عاوس لقينا اليافطة ، دخلنا ، لقينا تلاتين طالب ف أودة الانتظار .. قالوا لنا رنوا جرس ف الحيطة رنينا جرس ف الحيطة ، انفتحت كوه وطل منها راجل ، قال «أفندم» بالانجليزية طبعا ، قلنا عوازين نقابل مستر وطسون «مدير مكتب البعثة أيامها» ، قال أملوا الورق دا . ملينا الورق دا بالأسم والغرض من الزيارة ، خذ الورق وقفل الكوه وبصينا لقينا نفسنا مرة تانية ف وسط الجمهور .

الحاجة اللى كانت شاغلة تفكيرى ساعتها هى الحصول على مرتبى عشان ادفع الفواتير وازق على كامبريدج تانى يوم .. كل دا والأفندية اللى حوالى قاعدين يكلموا كلام غير متصل .

- أنا قلت لصاحبتى أنى ها أسيب ٢١ كامبريدج تراس . إذا كنت عاوز تعزل الحق خد محلى قبل ما يسكن ..

– أنا قلت له أني ما قدرش آخذ امتحان يونيو لأني كنت لسه عامل عملية .. الى حصل بقى .

– دا تالت مشوار أعمله من مانشستر ، يا أخي مطر ايه دا . وغيره وغيره : واتفتحت الكوه وبص الراجل من جوه وقال :

– دكتور حسام منتظر مستر عوض ..

الكوة اتقفلت .. وجا شاب انجليزى ومشى قدامى لحد أودة صغيرة وأعلن اسمى وانصرف .. لقيت نفسى قدام دكتور حسام .. راجل أربعينيش (ولا مؤاخذة قصدى حوالى أربعين سنة) ، برضه ضخم ، شنب أسود غزير ، نضارة برضه تخينة ، فرى كايند .. يظهر أن مستر واطسون كان مشغول جدا بدرجة أنه ما قدرش يشوفنى .. قلت بمنتهى الاختصار كأنى باكلم موظف ف شركة شل وقته ثمين .

– أنا اسمى عوض ، وصلت امبارح ، مبعوث كامبريدج ، عاوز أسافر بكره وعاوز الشيك بتاعى قبل البنك ما يقفل ..

– أهلا وسهلا ، اتفضل يا أستاذ عوض استريح عقبال ما أديك الشيك بتاعك .. مادمت مستعجل خد دلوقت العشرة جنيه المخصصة للكتب لحد ما نحسب حسبتك بالضبط .. وماكدبش خبر ، راح ساحب دفتر الشيكات وف دقيقة ونص بصيت لقيت

نفسى عندى عشرة جنيه .. وف دقيقة ونص كمان دخل عند مستر واطسون ومضى الشيك .. وف دقيقة ونص بصيت لقيت نفسى ف تاكسى ويا الله على البنك الأهلى المصرى ف كنج وليم ستريت .

كنت خايف أحسن دكتور حسام يقول لى هات واحد يضمنك أو ورينى الباسبور بتاعك لأنى نسيت الباسبور ف اللوكاندة لكن جت سليمة . وف البنك قدمت الشيك للموظف وقلبى بيرجف أنه يرجعنى فاضى .. لكن برضه جات سليمة حتى ما بصش ف خلقتى أخد الشيك من سكات وعطانى الفلوس من سكات وحطيتها ف جيبى من سكات وركبت تاكسى من سكات وقعدت أفكر . دى بلد جميلة دى اللى كل واحد فيها بيستأمن التانى .

كل دا أخد وقت طبعا . وعقبال ما وصلت تانى مكتب البعثة عشان أتكلم ف مسألة سفرى لكامبريدج لقيت دكتور حسام خارج من الباب مع الأستاذ شفيق حسن .

حسام الدين : احنا شطبنا خلاص ، أبقى تعال يوم الاثنين .

حسن : على فكرة يا عوض ، احنا وصلنا الجواب من كامبريدج بيقول أنك وصلت متأخر يوم واحد على ابتداء الفصل الدراسى فمش ممكن يقبلوك قبل يناير .

وسابوني ومشيوا . يا خبر اسود وبعدين ؟ ايه العمل ؟ مرحب يابو عرب بدون كيشوت الهمام ف وادى الطواحين . تقولشى دراع طاحونة طويل خبطنى ف صدغى . دماغى لفت . فجأة بصيت لقيت نفسى بمفردى ف ماكروكوزم مالوش نهاية . أروح فين ؟ أرجع اللوكاندة ؟ أنا جعان ميت من الجوع . لازم اتغذى قبل أى حاجة . تعبت من الوقفة . لازم أمشى . بس ف أى اتجاه ؟ أنا شايف وستمنستر آبى من هنا . طيب أروح هناك أعمل ايه ؟ الشارع دا مكتوب عليه سانت جيمس ستريت أو حاجة زى كدا . سألت واحد قال لى أن دا يودى لمحطة فيكتوريا . امشى ٣ دقائق يمين ، ارجع ٣ دقايق شمال . أنا عاوز أعمل ايه بالضبط ؟ أنا عاوز آكل . سورى . اتطصيت ف واحدة . وآكل فين ؟ أى بيج بورياردون . كمان واحدة . يا سلام الخلق اللى كانوا حوللى . تقلش نمل . سبعة مليون نفس ف لندن وأنا مليش صاحب واحد ف الناحية التانية من الشارع فيه محل مكتوب عليه «غدا» ومرسومة قطة سودة . أروح والا ما أروحش ؟ «سورى» اتطصيت ف .. عمود نور .. كل ما أشوف الناس حوالى كتار يشتد شعورى بالوحدة . نزلت على كآبة شديدة . حسيت أنى أتعس مخلوق على وش الأرض . لا . مش ممكن أدخل الرستوران دا .. أنا أسمر .

مين يعرف إذا كانو بيدخلوا السود . يمكن أسمع كلمة باردة . ع الأقل كل الناس هاييصولي مش ممكن أخش الرستوران دا . الله دا صحيح أنا أسمر ومش بس الرستوران ما ادخلوش الشارع كمان مش لازم أقف فيه . أقدر أمشي معلهش ، لكن وقوف لا «فيه هندى ماشي هناك اذن أنا اقدر أمشي . لكن الهندى ماشي في حالة ومحدش واخد باله منه . أنا مش لازم أقف حتى المصرى مش لازم يقف . قصدى احنا سبعتاشر مليون . اتهيأ لى أن الشاب الطويل اللى جاى على دا بيتفحص فى ابن الكلب دا . أخبى وشي ولا بلاش ؟ وأخبيه ازاى ؟ فاتت واحدة حلوة قوى — ويصت لى . لازم بتبص لى لأنى أسمر . الراجل لما يبص لما يبحلق نقدر عليه لكن العنين الحلوة دى ، واحسرتاه ، دب الخدر ف جسمى كأنى شربت رحيق الزعاف . عرفت ، عرفت وجريت أعدى الشارع بين الاتومبيلات لحد ما دخلت محطة الاندر جراوند الزرقا واتسندت على الترابزين .

لازم أروح

لقيت يافطة مكتوب عليها «شباك تذاكر» وراجل جوه اليافطة ياخد فلوس ويقول «كيو ، كيو» ولقيت طابور ناس فايتين بالترتيب ع الراجل ياخدوا تذاكر ويقولوا «ثانكيو ، ثانك يو» . حبيت

أختصر السكة جيت ف أول الطابور وقلت للتذكرجي ، أقدر .. «راح مزعق فى وقال» تقدر تستنى دورك ف آخر الطابور» دخت شوية واتراجعت ببطء . وفعلا وقفت ف آخر الطابور . جاء الدور على مديت ايدى بنص كروان وقلت «أقدر أروح رسل سكوير من هنا» . «طبعا تقدر تروح أى حتة أنت عاوزها من هنا ، بس غير ف تشبرنج كروس . «ثانك يو .» وخرجت ولفيت ونزلت السلالم وابتديت اسأل الناس «أنا عاوز أروح تشيرنج كروس» خد الرصيف دا من الناحية التانية» . غير «عاوز أروح الرصيف اللى ع الناحية التانية من فضلك» . «ماتروح . حد مانعك» وسابنى ومشى .. غيره .. ؟ ازاى اقدر أوصل الرصيف اللى فى الناحية التانية من فضك» «خد النفق اللى هناك . هناك . هناك مش ممكن تتوه» مشيت ف أتجاه صباعه لآخر الرصيف . لقيت نفق صحيح ، دخلت النفق ، لقيت نفق بيت جحا حيطانه صينى . داسهم بيقول ٣ ، ٤ ، ٥ ودا سهم بيقول ٦ ، ٧ ، ٨ ودا سهم بيقول فيكتوريا ووستمنستر ووترلو وتشيرنج كروس ولستر سكوير وكوفنت جاردن دا سهم ما أعرفش ايه وايه . دا سهم تانى ودا سهم وهكذا . نور أصفر تمشى عليه . نور أخضر تتبعه . حاجة تلخبط والناس ماشية بسرعة . ما صدقت لقيت يافطة مكتوب عليها تشيرنج

كروس رحت داخل ف النفق بتاعها ولقيت نفسي على رصيف ويعدين جوه قطر ويعدين محطة ويعدين محطة ويعدين محطة ومحطة ومحطة ، وأنا كل مرة أبص من الشباك على اسم المحطة مافيش تشيرنج كروس . حتى المحطات اللى قريتها مكتوبة ف النفق لما كنت ف محطة سانت جميس مافاتش على واحدة منها . ارتعبت وسألت واحد جنبي : «أنت أخذت الخط الغلط . انزل ف المحطة الجاية وخد القطر اللى بيمشي بالعكس» .

نهايته ما أطولش عليك . نزلت وسألت وركبت . زى يوليوس قيصر ماجا وشاف وقهر . ونزلت وسألت وركبت . آه ياتشيرنج كروس . لازالت بفؤادى منك غصة . الجوع والغربة وتشيرنج كروس . أنا ها أحلم الليلة بالتذكرجي بيقول لى غير ف تشيرنج كروس . تلات ساعات أتوه تحت الأرض زى الناس اللى بيحكي عنهم هـ . ج . ولز ف رواية «آلة الزمن» لحد مانسيت أنى من سكان هذا الكوكب . أنا حشرة جعانه ، أنا فار هلكان ف مصيدة أنا مورلوك ، أنا غريب مقطوع ، أنا الموكوس اللى ما عرفش يأخذ تاكسى بدل الشحططة دى كلها . تلات ساعات تحت الأرض لحد ما تعودت ع العالم السفلى . أيوه ، أنا أورثيوس ف العالم السفلى بيدور على تشيرنج كروس .

بعد تلات ساعات وصلت رسل سكوير ، ودخلت الاسانسير مع الناس اللى داخلين وأنا خايف طول الوقت . ازاى ها أقابل لندن الكبيرة ؟ أنا لويس الفار وقفت على عتبة المحطة من جوه ومديت رقبتى أتفرج ع العالم اللى بره المصيدة . لقيت البيوت الحمرا القصيرة ف وشى والهوا نفسه «مش السما» داكن زى ما تقول لسه مامطرتش ، لأن الشمس التعبانة اللى كنت سبتها ف وستمنستر راحت تنام ورا الأفق ما أعرفش والا ورا الغمام آدى لندن وآدى تانى طاحونة تضربنى ف راسى ف أول يوم ف حياتى الجديدة .

خرجت من المحطة ألهف . أنا كنت عارف أن اللوكاندة بتاعتى كانت مسافة دقيقة ونص مشى . ومع ذلك جريت ودخلت ف تاكسى واترميت لورا وقلت للسواق ، «ميرز هوتيل ، بدفورد بليس» . الراجل بص لى وبحلق كأنه بيخاطب معتوه . شاور لى ع الحواداية التانية وقال لى «دى بدفورد بليس يا سيدى ، دى تمشيها ف دقيقة» لا يا أفندم . لا مش ممكن أنزل . أنا قعدت تلات ساعات تحت الأرض ودا كفاية على النهاردة . باب اللوكاندة .. لازم أنزل أمام باب اللوكاندة . لازم أقرا اليافطة بنفسى قبل ما أنزل تعرف لما تقول لى ها أخطى الشارع بس . لازم أخطيه ف

تاكسى . كفاية اللى حصل . قلت له «أنا عارف أنها قريبة . سوق مالكش دعوى . أنت مش ها تاخد فلوس ؟ سوق . أصل الحكاية أنا تعبان ..» التاكسى وقف والسواق نزل وفتح لى الباب وأعلن بصوت عال «ميرز هوتيل ، سير» كملت الجملة وأنا با أنزل وأضفت «عايز كام» «٩ بنس ، يا سيدى» . عطيته شلن وشكرته وشكرنى ودخلت بيتى واترميت على فوتيل .

بعد ما استريحت قعدت اتبطر . ابن الكلب ٩ بنس ف خطوتين . يعنى كام يعنى تلاته صاغ وستة مليم . دا لازم قال لى ٩ بنس عشان أديله شلن . بعد كدا طبعا فهمت أن ٩ بنس دى الحد الأدنى للكروب وتخلص أفتكر بعد أول ميل وبعد كدا فيه تعريفة تانية أفتكر تلاته بنس عن كل نص ميل . يعنى تركب خمس ياردات زى ما تركب أول ميل . بعد كدا طبعا قدرت أفهم الأمانة العظيمة اللى ف الشعب الانجليزى إذا قارناه بشعوب كتيرة تانية . لو كان الفصل دا حصل ف باريس كان الشوفير ضحك لك ضحكة عسلية وضحك عليك ضحكة أصلية وقال لك «وى مسييه ، وى مسييه» . وطلع بيك من محطة كلونى ع البول ديش ع كورنيش السين ع كوبرى اسكندر التانى وفسحك ع الكونكورد شوية ويمكن وقف بيك شوية قدام أعمدة كنيسة المادلين وقال لك

«تأمل ياسيدى شوية معجزة الفن الجميل ، تأمل ياسيدى معبد السيدة الخاطئة» «وسيدى يتأمل العداد بيشتغل ، عشرة فرنك ، ١٢ فرنك، ١٥ فرنك ، وبعدين راح لافف بك ورا التويليرى واللوفر وهوب شارع سيباستبول وراح كاسر بيك ع البول ميش من الناحية التانية ورابط بك قدام الأوتيل دى فرانس بتاعك ف شارع المدارس.

لكن أحنا ف لندن دلوقت ، وأنا لسه ع الفوتيل بادعك صدغى مطرح ماضربتنى دراع الطاحونة ، وباشرب الشاى وبأبلع الكيك من غير مضغ . ياسلام ع الجوع . صدق الى قال الجوع كافر . قعدت أكر ف حوادث اليوم ، وبالأخص ف ضربة الطاحونة الأولى. ها أبقى ماليش شغل لحد يناير . شوف النظام يا أخى . دخل على عمار وبقية الشلة .

– أنا مسافر مانشستر بكره . أنت كنت فين ؟ أتخضينا عليك.

عمار قال : فيه حاجة ف انجلترا ، ما أعرفش أيه هيه . تعلمك فضيلة الصمت وقلة الكلام كمان لابد التعب هو اللى منعنى من الشكوى . قلت .

– أبدا . رحت صرفت شيك الكتب من البنك الأهلى ولفيت شوية ، وأدينى أهو . قول لى . أحنا حسابنا إزاى ؟

حكم عمار هو اللى كان بيدفع كل المصاريف المشتركة أثناء السفر ف باريس وف السكة شيالة . شنط . أحيانا شكوكولاتة .

- وأنتوا أيه حكايتكو ؟

قدرى : أنا قاعد ف لندن ها أعزل لبانسيون لأن اللوكاندة غالية .

مندور . وأنا مسافر ريدنج النهارده بالليل .

زينب الشعرانى : وأنا مسافرة برستول بكره الضهر .

الله . يعنى ماحدش هايستنى هنا غيرى . حسبت المسألة مع قدرى طلع صحيح أن اللوكاندة غالية قوى . البانسيون المتوسط بخمسة وعشرين شلن نوم وفطور في الأسبوع يعنى بمتوسط تلاتة شلن وستة بنس ف اليوم . إذا كان كده مش ضرورى الواحد يصرف سبعة شلن كمان ف الغدا والعشا .أربعة شلن كفاية قوى . يعنى فيه وفر جنيه تقريبا ف الأسبوع يعنى أربعة ف الشهر . مش بطالين . أدينا طلعنا السجاير والسينما . مادام أنا مضطر أستنى ف لندن لحد يناير إذن لازم أفكر ف الاستقرار من دلوقت.

- تعرفش ياقدرى بيت من البيوت اللى بتحكى عنها ؟

- لا والله . أنا معايا عنوان واحد بس . ودا ف الضواحى كمان .

المعجزات ف العادة ما بتنزلش غير ف الساعة الحادية عشرة زى ما بيقولوا الانجليز ، قصدى قبل وقوع الكارثة أو فوات الوقت بفرصة قليلة . كنت على وشك اليأس وعلى غفلة ألاقى العنوان اللى كنت سمعته ف مكتب البعثات النهارده الصبح يعوم ف مخى زى شطرة شعر أتجمعت كاملة .

– أنا قلت لصاحبتى إنى ها أسيب ٢١ كامبريدج تراس . إذا كنت عاوز تعزل الحق خد محلى قبل ما يسكن .

مش بس صوت أتردد ف مخى وهو بيقول كدا لصاحبه ، أنما شكله كمان أفتكرت وشه الأصفر وأصداغه البارزة والغباوة اللى ف عينه والسماجة اللى ف حركاته .. طبعا أنا كنت جديد ساعتها وماكنتش عارف أن مسألة السكن دى من أسهل مايمكن . ماكنتش عاغرف إنى أقدر أشترى أى جرنال وأشوف الإعلانات الى فيه وأختار السكن اللى يناسبنى بالمناسبة دى فيه تلامذة كتار ف البعثات كنت لما أقابلهم وأكلمهم أستغرب إزاى الحكومة تبعت واحد زى دا بعثة .. حتى الذكاء الفطرى – سيبك من العلم – ماكانش متوفر فيهم .

الذكاء الفطرى اللى بيلمع ف عينين خمسين ف الميه من الأطفال اللى بيبيعوا يانصيب ف مصر وبيشعبطوا ع الترمواى

من الشمال . كان حقهم مش يعلموا لجنة استشارية للبعثات إنما لجنة للكشف ع ذكاء أعضاء البعثات قبل ما يسافروا .

مش كفاية أن واحد يتعلم مبادىء الخط المسمارى أو يعرف حاجة من الألواح الأثنى عشر ف مصر يقوموا يبعتوه بعثة عشان مافيش عشرات من الدكاترة والمهندسين بعضهم نجحوا ف الحصول على درجة يعني برضه شطار ، ومع ذلك كان تفكيرهم خارج عملهم زى الجزمة تمام .

«الحق قبل ما يسكن» «الحق قبل ما يسكن» . أبتديت أفكر بصوت مسموع .. «الحق قبل ما يسكن» . قدرى سمعني وقال بتقول ايه .. ايه اللى يسكن ؟» «أبدا ، دا عنوان بيت أفتكرته دلوقت وخايف إنه يطير منى .» قام ضحك بعبث وقال لى «طيب يالله الح قبل ما يسكن» .

– جيمس ، تقدر تقول لى كامبريدج تراس فين ؟

– برضه بعيد .

– يعنى قد ايه ؟

– تلت ساعة بالأوتوبيس .

تصور انى ساعتها سألته عن نمرة الأوتوبيس وكنت عاوز أنزل وابتدى أدور ع البيت الجديد ف المغرب بعد تلات ساعات .

من التوهان تحت الأرض . أنا لازم مجنون . لكن ف الوقت دا كان عمرى تلاته وعشرين سنة وكنت مليان حيوية ، الحيوية اللى قعدت معايا من سن اربعتاشر لسن خمسة وعشرين ودلوقت با أشعر أنها سايباني . مسألة الحيوية دى مسألة مهمة جدا واذا كنا بس نتنبه لأن الحيوية بتفارق الإنسان بعد سن معين كنا نعمل حسابنا أننا مانضيعش دقيقة واحدة طول ما لسه عندنا نشاط .. ف حالتى أنا لاحظت أنه ف الكام شهر الأخيرة لى ف انجلترا ، بالأخص بين فبراير ويوليو سنة ١٩٤٠ ، إنى مش أقدر اقرأ ، أو أبحث، وأن قريت أو بحثت بنفس مسدودة أتعب قوام، ما أقدرش أحصر تفكيرى ، مش سهل على إنى ابتدى القراية ، أتلكك على أى حاجة عشان أسيب الكتاب ، وهكذا .. ابتديت أحس إنى مش سعيد . المهم إنى ف سن خمستاشر كنت با اقرا عن كيتس وازاى مات سن خمسة وعشرين سنة ووليم بت ازاى بقى رئيس وزارة وهوه يدويك فوق العشرين ومصطفى كامل .. و... و .. فكان طالع ساعتها ف دماغي أني واصل لأعلي مركز ف سن خمسة وعشرين وبعد كده اضرب نفسى رصاصة . دا الرومانتيزم بتاع اليفاعة فى العصر الدهبى . أيينى عديت الخمسة وعشرين بسنتين وأنا لسه با أشتغل ف كلام فارغ . ولما أقارن شغلى دلوقت

بشـغلى سنة البكالوريوس أو حـتى بشـغلى ف سنة ٣٨ و ٣٩ ف كامبريدج لازم اعترف إنى فقدت نص نشاطى . أنا سألت ناس كتير عن مسألة النشاط دى ويعدين قالوا لى أن دى ظاهرة عامة يشترك فيها أغلب الناس قصدى نضوب الحيوية بعد سن خمسة وعشرين .

زى ما با أقول لك ، أنا فكرت إنى أسيب اللوكاندة بعد الدوخة الجامدة دى وأدور ع العنوان اللى افتكرته . لكن الجماعة عقلونى لحد تانى يوم . وفـعـلا تانى يوم صـحـيت وخـرجت وسط المطر الشديد بعد الحصول على كل التعليمات المطلوبة .. صحيت نشيط وقلت ف عـقلى يا واد مـادام أنت ناوى تقـعـد ف لندن فـبـلاش تاكسيهات وتتوه تتوه ، كله اختبار . قالوا اركب اتوبيس كذا من محطة يونستون . المطر خف شوية . قلعت البرنيطة .. لقيت راجل أحمر .. وشه أحمر غريب .

– من فضلك محطة بوستون فين ؟

– هو هو هو .. أنا رايح هناك ، خليك ويايه .

– متشكر .

– أنت هندى ؟

– لا ، مصرى .

– هو هو هو ، أنا أحب مصر قوى .

– أنت زرت مصر ؟

– هو هو هو ، قريت عنها ف المجلات .

– لازم تروح يوم من الأيام .

– اللى يقدر يروح كان راح ، يا ابنى عجزت . عجزت يا ابنى . هو هو هو ..

– ما تأخذنيش . أنت أول انجليزى شفته بيضحك ف لندن .

سألنى أمتى جيت . قلت له . سألنى إذا كنت تلميذ . قلت له . وبعدين قال لى .

– حذر ، أنا جنسيتى يه .

– انجليزى طبعا .

الراجل ضحك شوية وزعل شوية .

– ازاى تقول عليه انجليزى بقى أنا شكلى انجليزى ؟ بقى أنا طبعى انجليزى ؟

انكسفت ..

– لأ ، لكن لغتك انجليزية سليمة . أنت ايه ؟

– مش ها أقول لك ، مادام أنت عملت الغلطة دى .

– أنا آسف .

- أنا بلدى جميلة

، مش كلها دخان زى دى .

- أنا آسف .

- أنا بلدى متمدنه . مش بلد استغلال زى دى .

- أنا آسف .

- احنا نكرم الضيف . مش زى الشعب البخيل دا .. تعال كدا عندنا وشوف نحطك على راسنا ولا لا .

- أنا آسف . متشكر . يمكن تحصل قسمة بس قول لى ايه هيه ..

- لا مش ممكن . أدى محطة بوستون .. مع السلامة .

- مرسى قوى .

وادى الاتوبيس بتاعى جاى . راح واقف ودخلت فيه .. بصيت لقيت الراجل بيقرب على وبيشاورلى إنى أطلع وراح موشوشنى ف ودنى . «نرويجى» والاتوبيس زق . الاتوبيس كان بدورين ، رحت قاعد ف الدور التحتانى وولعت سيجارة بصيت لقيت الكمسارى جالى وقال لى : أطلع فوق من فضلك » استغربت لكن قمت طبعا . لازم أعرف السبب . « من فضلك ليه عاوزنى لكن قمت فوق» «عشان سيجارتك بس » فهمت الدور التانى للمدخنين . والتحتانى

لغير المدخنين . معقول والله ابتديت أفكر ف كلام النرويجى . طيب ودا ليه بيشتم ف الانجليز . ما أعرفش لازم فيه سبب .. دى أول مرة أسمع فيها واحد أوروبى يشتم ف الانجليز ماتنساش إنى لحد ساعتها ماكانش عندى أى خبرة بالإنجليز غير العشرين أستاذ انجليزى اللى درست عليهم سواء اللى ف انجلترا زى مستر سكيف ومستر فرنس ومستر ديفيز اللى كنت باختلط بيهم ف العمل . إن ماكانش زيهم بالضبط ، أهو بالتقريب . بصيت لجارى لقيته راجل وسخ قوى ، والأنكى من كدا أن شفايفه فيها قرحة كبيرة غالبا قرحة سفلس . ابتديت أقرف لكن اتكسفت أغير محلى ، وعنها والراجل فتح محدت . « أنا كنت ف الهند من سنة كذا وسنة كذا .. « أنا مش هندى» .. « أنا عارف ، أنت مصرى ، أنا كنت ف مصر من سنة كذا لسنة كذا ، ف جيش الاحتلال» . ماردیتش علیه م القرف والمضايقة والكسوف . بالرغم من كده قعد يدش . أنا كل معلوماتى عن الانجليز إنهم أعداءانا الطبيعيين ف السياسة وأنهم ناس هايلين أخلاقهم متينة بعد ما قابلت النرويجى ابتديت اتشجع ف التفكير . بعد ما قعدت جنب الرجل أبو قرحة ابتديت احتقر الانجليز لمدة كام دقيقة . بقى هيه المسألة كدا . أولاد الايه دول بيعتوا لنا الناس المثقفين بتوعهم عشان يوهمونا

بأنهم أحسن شعب وهم ف بلادهم منحطين كدا .. كمان ايه الحكاية دى . كل واحد ما يقابلنى يقول عليه هندى .. أما غباوة . هو مافيش أسمر غير الهنود . ابتديت أكره الانجليز يغلطوا ف المصريين . حكاية أنت هندى دى حصلت لى مليون مرة ف التلات سنين اللى قعدتهم ف انجلترا ، وكل مرة اسمعها دمى يفور . الشعور دا بيشترك فيه أغلب المصريين اللى ف انجلترا . بل أؤكد لك إن احنا فات علينا وقت كنا نعتبر الغلطة دى أهانة ، وف أكتر من مرة استعملنا لغة ف منتهى الجفاف مع الناس اللى غلطوا فينا . ابتديت أشعر بالألوان شعور إيجابى . أخيرا الاتوبيس وصل محطتى . بعد ما نزلت وسألت طلع إنى تايه ف حته بعيدة قوى عن الحتة اللى بابحث عنها . لكن المطر شديد قوى . مش دا يبرر تاكسى أنا أى حاجة عندى تبرر تاكسى دلوقت . رحت داخل تاكسى وزاقق . وصلت العنوان اللى معايه .. ضربت الجرس . طلعت لى مرة لابسة فوطة .. « أنا عايز أسكن» . «اتفضل حصل اتفاق على ٢٥ شلن ف الأسبوع نوم وفطار . عملت لى شاى ونشفت لى هدومى قدام الدفاية . رجعت اللوكاندة ف تاكسى رجعت بشنطى ف تاكسى ، استحميت واستريحت وبعدين لبست وقمت استكشف .

فيه فرق بين الراجل اللى بتحصل له حاجات والراجل اللى ما بتحصلش .. كمان فيه فرق بين الراجل اللى بتحصل له حاجات ويستفيد منها وبين الحمار اللى ما بيستفيدش من التجارب بتاعته .. أنا مثلا كنت أقعد بالأربع سنين ما تحصليش حاجة مهمة وف شهر واحد ف لندن أبص ألاقى نفسى مربوط ف عشرين مشكلة، وباتعلم وباتعلم .

بعدما سكنت أسبوع ف كامبريدج تراس اكتشفت بالصدفة إن الجهة دى مستعمرة الستات البطالين . فيه زيها كتير ف لندن . اتغظت جدا لما عرفت الحكاية دى وصممت إنى أعزل أولا وإنى أقول لمدير البعثة أنه ينبه ع المصريين اللى جايين جديد أنهم ياخدوا بالهم . العزال عزلت . وادينى أهوه بعد أربع سنين بأقول لمدير البعثة إذا كان بيقرا الكلام دا . لما سكنت ف البنسيون الاولانى دا لقيت اتنين مصريين قدام ع البعثة ساكنين فيه قبل واحد مهندس وواحد نص مهندس (قصدى من الفنون والصنايع)... شبان مش أغبيا ولا أذكيا قوى يمكن كانوا شغالين ما أعرفش ، لكن بالتأكيد ما يفهموش العمى بره شغلهم وضرورات الحياة اليومية . ذكاء عملى عادى وكل اللى ساكنين ف البيت بيزنقوا على ألما الخدامة بت مسكينة تطلع عشرين سنة ،

قـصـيـرة قـوى ، لطيـفـة شـوية ، أمـيـة تكتب تراس ب آر واحـدة ويوردب أو آر دى ، من النوع اللى مـالوش شكل مـعين ولا هو حلو ولا هو وحش عندها فرو مقطع ، ومالـهاش اطمـا ع إلا أنها تتجوز جيمى البحـار النيزيلاندى اللى وعدها أدى سنتين أنه هايتجوزها ع العيد .

أطلع من البيت بالليل الأقى مرة رايحة جاية . أقرب منها تقول لى « كم ويدمى دارلنـج» أقـوم أرتبك وأتمتم « ثانكيس» وأخـاف وأمد . أوصل ادجوير رود ألاقى تاكسيهات واقفة وعسكرى بوليس دايما هناك وراجل وسخ بعربة كنتين وسخة بيبيع فيها شاى وكيك وعيش وزبده وسجق وساندوتشات وجنبهم اتنين بنات غالبا شكلهم وحش منتظرين . يسـألونى عن الوقت ويبتـسـمـوا - المفـروض باغراءات أقـوم أهرول وأخش الشـارع مـسـتـعـجل . الحكاية دى حصلت لى تلات مـرات ف أسبوعين ، إنما الشـارع كـان مـرشق بنات دايما . دايما ف الانتظار . لما رجـعـت سـألت الأفندية عن الحكاية ، قـام قـالوا لى أن أهمـيـة الشـارع مش ف البنات اللى بتقف فيه لكن ف البنات اللى بييجوا من الاحياء التانية مصحوبين ويأجروا أوده لمدة ليلة باجرة مضاعفة ويختفوا تانى يوم الصبح . ناديت ألما وسـألتها قام قـالت . بيقولوا ، لكن البيت بتاعنا نضيف

ومسز موليفو - صاحبة البيت - ست مستقيمة ماترضاش بحاجات زى كده » .

صممت أنى أعزل وعطيت خبر . اتصاحبت مع المهندستين وعلمونى هويست - دى تطلع لعبة كوتشينة . أهم من كدا بقم يأخذونى الدكاكين ويعلمونى ازاى اشترى اللحمة المحفوظة واللحمة الباردة والبيض والطماطم والزبدة والتفاح والموز . بالأخص التفاح والموز من الفاكهانى اللى قدام سينما أوديون ف ادجوير وود . فهمونى كمان ازاى اختصر ف المصاريف وايه فايدة أن الواحد يشترى عيشه ومربته . عشان اديك فكره ازاى أنا راجل خيبان من الناحية العملية ، تتصور إنى بعد ما عزلت من الحتة لحى تانى بقيت أرجع مخصوص لنفس البقال ونفس الفاكهانى واضيع ساعة ركوب وأربعة بنس مواصلات . كنت أخاف أدخل الدكاكين . على أى حال هم اللى جرونى وعطونى فكرة عن أثمان الحاجات . مثلا قالوا لى على رستورانات ايه بى سى وجيمى ليونز . وورونى ازاى أعرف اتغدا بشلن وستة بنس وعلمونى ازاى أروح النادى المصرى الملكى ماشى . كمان شرحوا لى على قد أدراكهم ومعلوماتهم حاجات عن عوايد الانجلي وطباعهم . والبنات الانجليز .

آه البنات الانجليز . دى مهمة قوى . ياما حكوا لى واحنا بنلعب هويست ف البيت عن مغامراتهم وفتوحاتهم وأنا رايح مش عارف أصدق ولا ما أصدقش . فكرونى بالشبان المصريين ف مصر . فكرونى بالموظفين اللى كنت أقابلهم ف بوفية السيدة زينب وتلامذه الجامعة اللى كنت باشوفهم ف نادى الجامعة قبل ما يتقفل ، لما الواحد فيهم يقعد ف وسط عشر تنفار ويفضل يسرد بأقذر لغة وأعلى حس حكايته الجنسيّة . النهارده الصبح قابلنى واحد صاحبى قدام أوريكو ماكنتش شفته من يوم مارجعت من انجلترا ، بعد السلامات والطيبات ورجعت أمتى ، تعرف أول سؤال سألهولى ايه ؟ « احكى لنا بقى عن مغامراتك المشهورة إياها » « أنت عارف إنى أنا مش بتاع حاجات زى كده » « أطلع يانمس» « مرة تانية بقى لأن عندى معاد الساعة عشرة» . مساكين الشبان المصريين .. ماتعرفش تزعل منهم ولا ترثى ليهم . نورستانيا . جنسية بتنخز ف عقولنا وبتطفح ع الجلد زى الدمامل .. شوفوا الكبت عمل فينا ايه ياما حكى سلامة وياما عاد صبرى جرجس ف المجلة الجديدة وغيرها ومصر برضه هيه مصر . تشوفه ف الراحة اللى ف عيون الناس وهيه خارجة من السينما كأنهم كلهم باسوا ماى وست وحضنوا أليس فاى . تشوفه ف

روايات الجيب اللى بيقروها الايقاع ومجلات بارى وفينوس وسكس ابيل وبرافان والمجموعة الفرنساوية الوسخة اللى اسمها «الكليكسيون جولواز» .. تشوفه ف القشر الجنسى اللى بتسمعه من أصحابك وأنت نفسك بتشترك فيه بحسن نية . آه بحسن نية . تشوفه ف الحقد الهمجى اللى بيحمله كل شاب لأى واحد يشوفه مع بنت . تشوفه ف الشارع وف الترمواى وعلى كوبرى قصر النيل وف الجامعة لما واحد يكلم واحدة تفترسه نظرات الناس ويقولوا له سيب النعجة ياخروف وأنا أشوفه كل ما أكلم تلميذ أو تلميذه من تلامذتى واتمعن ف خدودهم الصفرا واقرا فيها الحرمان ، أو اتحسر على ذكاءهم اللى طفاه الجوع القديم . أشوفه كل ما أشوف الحياء الشديد أو الرقاعة المجوجة . أوعى تفتكر أن الرقاعة دى دردحة .. أوعى تحسد واحد رقيع وتفتكره ناجح مع الستات . قلة الحيا زى الحيا تمام كلها كبت جنسى بس يقلده مع الشخص الحسيس بكسوف ومع الشخص البليد بعنف . كما إنى أقدر أشوفه ف الكسل الفكرى الملازم لاكتر المتعلمين وف القلق اللى اتملك الناس ، وف التفكير غير المنظم عند أغلب الشبان ، وف النكت القبيحة اللى بتتكون منها مادة فكاهتنا . كمان أشوفه ف الملل والكآبة ، وأشوفه ف الحماس اللى يركد ف

ساعتها . انتو نايمين ولا أيه . طبقة الأفندية ف مصر دى مش طبقة ، دى مجموعة من العقد النفسية اللى مافيش أمل فيها إلا بتوجيه جنسى جديد أساسه الحرية المعتدلة والإطلاق اللى مبنى على فهم صحيح . يا مين يحلنى .

من الاختبارات الجميلة اللى فاتت عليه كمان أول أسبوع ، رحت مكتبة البعثة وأخدت جواب توصية للمتحف البريطانى عشان مايدونى كارت أدخل به صالة المطالعة باستمرار وكارت تانى عشان قسم المخطوطات . خرجت من بيتى ووصلت ادجوير رود ف دقيقة وسألت « فين هو المتحف البريطانى؟» ها اركب ولا ماشى ؟» فكرت شوية «ماشى» « تمشى على طول لحد ما تلاقى القوس الرخام ف وسط ميدان ، اكسر شمال ودغرى ف اكسفورد ستريت لحد الآخر تلاقى المتحف . مش ممكن تتوه فيه » غريب . كل واحد انجليزى يوصف لك مكان يقول لك « مش ممكن تتوه فيه».

اشمعنى يعنى أنا دايما باتوه . مشيت حسب التعليمات وفعلا لقيت القوس والميدان .. وقفت اتفرج عليهم لكن أنا لقيت اليمين «ايه دى من فضلكم» «دى هايد بارك» . هايد بارك خيرا . حاجة تانية أهم من القوس والميدان . لقيت جنينة كبيرة على أيدى خطر

لى أننى أخش وأسيبنى من المتحف ، لكن الإرادة كانت قوية رحت كاسر شمال ومشيت ف اكسفورد ستريت سينمات ايه وزحمة اية وفترينات ايه ونشاط ايه . الناس رايحين معايه وجايين ضدى الساعة تسعة الصبح وعليهم حيوية الحياة نفسها فين العواطلية اللى بيقعدوا ع البول نور ومارتينى والامريكين الساعة عشرة الصبح أيوه فين القهاوى هناك مافيش حاجة من دا كله . هناك مافيش غير رجالة ماشيين وستات ماشيين وأتومبيلات ماشية وأتوبيسات ماشية . البلد كلها ماشية . تحس أنك ف نهر والنهر فيه تيار بيصب فين دى مسألة تانية مش تحس أنك ف مستنقع ووجود ثابت قديم . أنا اقترح إن الحكومة اللى عاوزة تصلح بلدنا حقيقى حقها تبتدى بتأليف فرقة من أصحاب الكرابيج الغيورين ، يفوتوا ع القهاوى كل يوم الصبح وكل واحد يلاقوه قاعد مالوش عمل يمسكوه يضربوه على أفخاذه ف وسط الشارع ، كل واحد ببدلة يلاقوه بيتف ف الشارع أو بيناكف ف كمسارى الاتوبيس المزحوم ويعطل خلق الله أو بيلكلك ورق ويرميه ف الشارع والسبت جنبه برضه يعملوا فيه نفس العملية . نهايته فترينات ايه اللى ف اكسفورد ستريت . دا اسمه جون ليويس ودا اسمه سيلفريدج يتهيألك إن كل بوصة مكعبة فى الشارع دا تساوى تقلها دهب . دهب العالم لموه ورموه ف الشارع .

قال شملا قال هأ . مشيت والبلد كلها مشيت معاية . وكل عشر دقايق ألاقى شحات واقف بكمنجة حاطط برنيطته ع الأرض. وقفت ف الزحمة دى عشان اسمع . الله . دا بيضرب آفن ماريا ، ارتجفت شفتاى ورفعت وجهى إلى السماء وقال فؤادى « بل السلام عليك يا مريم يا أم الملاك المحترق الشهيد ولتنم ف مثواك طيب النفس يا شوبرت وأنت يا سيدى السائل ، لو أن الأ الحزينة الجاثية عند سفح الصليب سمعت لحنك لأرسلت فيك من دموعها بعض ما أرسلت فى السيد المسيح» وقفت أفكر دقيقة تكون ايه المدينة دى هم شحاتينهم ارتيستات واحنا ارتيستاتنا شحاتين . دى مسألة مفروغ منها دلوقت . لكن بأى حق يسمحوا هم بعد المدنية دى كلها أن راجل يعزف موسيقى كده يدور يشحت ف الشوارع . يمكن الراجل نفسه فيه عيوب خلقية كدا . يمكن . يمكن سكرى ولا قبيح ولا مهمل يمكن . مشيت عشر دقايق لقيت راجل تانى ايديه فاضية واقف يشوح ف الشارع ويغنى .. أوبرا . يا إله العرش . يعنى دا كمان سكرى ومهمل وقبيح يمكن وغيره بيلعب فالسات خفيفة وموسيقى غجر وغيره بيقرا فصول من الكتاب المقدس ، وكل واحد فيهم برنيطته جنبه والمحسنين كل واحد يرمى بنس اتنين على قد ما تجود نفسه ويسمح جيبه ويعد

كده عرفت إن القانون ف انجلترا بيمنع الشحاته ، يعنى قوله حسنة لله يا محسنين ، وإن الجماعة دول بيحتالوا ع القانون بأنهم يغنوا أو يلعبوا ألعاب بهلوانية ف الشارع مش عشان يبسطوا المارة لكن عشان يثبتوا للبوليس أنهم مش شحاتين أنهم من أرباب الحرف . مش تسولوا البنسات اللى ف البرنيطة ، إنما كسبوها بعرق جبينهم . بعد كدا عرفت أن الشحات اللى كنت دايما أشوفه بيتسكع قدام كوينزهول جنب محطة الإذاعة البريطانية كان كمنجاتى ف أوركسترا عالمى وبعدين حصل له عطب ف ذراعه قام فصلوه ومن يومها عاطل لأنه صرف شبابه ورجولته ف المزيكة وما يفهمش ف حاجة غير المزيكة . بعد كدا عرفت أن المجتمع الأوروبى فيه قسوة تفكرك بآكلة لحوم البشر . بعد كده عرفت حاجات كتيرة ها أحكيها لك لما ييجى أوانها .

أحكى عن البنات كمان ولا بلاش ؟ ف اكسفورد ستريت امشى ف حقل من الغانيات مادور راسى يمين وشمال ماشوفش غير جمال ف جمال ، من عجبى ابديت اعد : دى حلوه ، دى وحشه ، دى وحشه ، دى حلوة ، دى حلوة .. الخ .. طلعت نسبة الجمال حوالى تمانين ف الميه . لكن للأسف ، جمال وشباب لكن اتهيألى أنهم عاملين زى تماثيل الشمع ، لا فيها نفس ولا حرارة ..

من شدة إعجابى وعجبى قررت إنى أول ما أرجع البيت ابتدى قصيدة اسمها « فى متحف الشمع» أوصف فيها سوق التماثيل اللى كنت باجوس فيها طول الصبحية . تمانين ف الميه يخدوا ستة على عشرة وطالع . قعدت برضه أفكر ف مصر وبنات مصر .. كليوباترا ونفرتيتى ، فيه أجمل من كدا ، العالم كله يعرف أن مصر العاجزة سحرت روما الباطشة وجابتها لورا بجمال العيون وفتنة القدود .

وأخيرا وصلت المتحف البريطانى .. أخذت رخصة دخول لصالة المطالعة ولاودة المخطوطات وجرى ع الكتالوجات .. ابتديت ألم مراجع للرسالة .. ضاع اليوم كله قبل ما أفهم ازاى استعمل الكتالوجات . سألت ، قالوا لى .. دخت وعدمت وكل تلت ساعة أقريف أقوم أطلع اشرب سيجارة وأنا باتمشى بين الأعمدة الكورنثية المهيبة اللى دايما مبلولة ، وأدرس الناس اللى قاعدين ع البسطة الواسعة ، اللى بيشرب واللى بيدخن واللى قاعد على دكة خشب مزيج غريب من الفلاسفة والعواطلية والباحثين والمعتوهين الناس داخلة طالعة رجالة وستات ، اللى بدقن زى دقن رسكن واللى بدقن زى دقن شاول الثانى واللى ببيريه باسك وكرافات موشوار والنضارة الدهب والعصاية العاج . خرجت ف العصر وف سكتى حييت الحرس ووقفت عند السور أتأمل . هنا كارل

ماركس كان بيجى يلتمس الدفء لأنه كان بلا مأوى ، وهنا سطر الإنجيل الجديد وسماه «رأس المال» هنا درس دكتور جونسون العظيم بعد قرنين من الزمان أطاح فيهم الشعر المستعار وقامت الثورة الفرنسوية ، وحكمت الطبقة المتوسطة وانهارت ، والناس غنوا الانترناسيونال ، والآله أصبحت إله ، المتحف البريطانى لسه زى ماهوه بيتردد عليه الصعاليك زى اللى ترددوا عليه أيام الشاعر سافيدج . بيصت للمتحف تانى وافتكرت كلمة ت . س . إليوت أن شكسبير استفاد من تراجم بلوتارك أكثر مما استفاد أى مخلوق من مكتبة المتحف البريطانى كلها . أدى الحكم ولا بلاش .

أدى الكلام الموزون . هزيت كتافى باستخفاف وقلت للمتحف «إلى الغد يا خزانة الفكر ، اتركك ف حفظ توت كاتب الآلهة » ثم توليت عنه باحثا عن بار .

تانى يوم الصبح حبيت أعمل نفس العملية ، يعنى أروح المتحف ماشى من ادجوير رود . وهات يا مشى . عبال ما وصلت هايد بارك كانت رجلى اتكسرت . الله ؟ ايه الحكاية ؟ أنا مشيت المسافة كلها امبارح بمنتهى السهولة . لكن امبارح مش زى النهارده امبارح كنت سايح مشغول ف الفترينات وتصفح الوجوه ، قام ماحسيتش بتعب . النهاردة أنا راجل لندنى عارف سكتى

وغرضي . نطيت ف اتوبيس طلع هو. هناك الاتوبيسات على فكره بيمشوا ع الشمال . وصلت المتحف وكان البروجرام بتاعى فحص مخطوط لقصيدة من قصايد بليك . وفعلا مشيت فيها شوية ونقلت جزء منها ضاع منى دلوقت .. الفكرة في كل دا إنى كنت باوجه نفسي بنفسي . مافيش استاذ يرشد أعمل ايه قدامي مكتبه فيها ما اعرفش كام مليون كتاب وأنا عامل زى الطفل اللى ف متروبوليس ولا الراجل الى تاه ف قصر اللبرنت .. لازم ابتدى من نقطة عندى موضوع وعندى فكرة عامة عن الموضوع . « لغة الشعر» كانت موضوع رسالتى . أبسط طريقة هو إنى ابتدى بطريقة عملية ، وانسى كل اللى كتبوه النقاد عن الشعر ، وبالأخص إنى زى ماقلت لك زمان كنت متأثر أيامها جدا بالتكتيك الريكاردى - يعنى طريقة دكتور ريتشاردز - ف دراسة الآدب ف المعمل إذا أمكن . قلت ف عقلى خد واحد زى بليك أتكلم كتير عن الشعر وازاى نزل عليه الوحى من السما ، وتشوف المسودة بتقول ايه والنص الأخرانى بيقول ايه وفكر ف الكلام المشطوب وف الكلام اللى حل محله ليه حل محله ، أبص ألاقى صاحبنا اللى دوش دمغانا بنظرية الالهام ونبوة الشاعر مليان شطب . اللى يشوف الشطب الكتير ف مخطوطات بليك يحتار صحيح . إذا كان دا كله إلهام ، وأمال الصناعة تبقى ايه الغرض . أنا مش ناوى

أحكي لك عن شغلي ف الجامعة لأنه يصدع الدماغ .

في المتحف اتعرفت بكام واحد وواحدة . وبره المتحف اتعرفت بواحد بس ، واحد بس ، إنما كان شخص غريب جدا . مش فاكر اصطادني ازاي . افتكر كنت باضرب بلطة بين العواميد وبادخن سيجارة قام صاحبنا جالي وقال لي أنه كومسيونجي بتاع مكتبة اسمها الفينيكس (يعني العنقاء) وعرض عليَّ إني اشتري كتب لحد عشرين جنيه وأسددهم على أقساط شهرية بسيطة .. فكرة هايلة . قعد ينصحني اشتري إيه وما اشتريش ايه لقيتها كلها كتب حرة خارجة عن دراستي وأنا شخص نفعي جدا ، إن ماكنش كتاب عن لغة الشعر أو على الأكثر لغة النثر ماأدفعش فيه نكلة . البيع مانفعش إنما نشأت بيننا صداقة غريبة من كتر ما كنا نتقابل ف المتحف ونتكلم . الراجل كان طويل وعريض وغامق ويهودي وشيوعي وعقله مريض واسمه دافيد سيرميد . لكن أنا وجدته ساعتها مفيد . كان كل يوم يصطادني ونمضي كام ساعة كلام . يدويك اقرأ كام صفحة ف كتاب ريدلي عن كيتس مثلا واطلع اشرب لي سيجارة وعنها ونص ساعة طارت ف الكلام عن لندن ، عن ماركس ، عن الأفلام ، عن الكتب . عن الستات عن الانجليز . فيه ألف موضوع بيفتحوا نفسهم بس اللي له غرض . ادخل اكمل قراية واطلع ، نفس العبارة . وصاحبنا باسط ذراعيه

بالوصيد قدام باب المتحف الجوانى كأنه حارس المتحف أو كلب ولف رابض عند بوابة سيده أو كبش حجر على باب معبد .. ولما ييجى معاد الشاى نخرج سوا ويشرح لى أحيانا جغرافية لندن .. وأحيانا مبادئ الماركسية .. مهوشة طبعا .. حد فاهم ؟ أهو دش ويس .. عمل زى ما تقول دليل الأنصاف إنى أدفع الحساب كله كل مرة ، إن كان شاى ولا لقمة ناكلها ولا فيلم نشوفه ولا أتوبيس ناخده .. كان كلامه عن الاشتراكية لا ينتهى ، وحقده ع الطبقة المتوسطة لا يحد . لحد كدا مفهوم ومعقول . فيه ناس كتير أفاضل برضه كده . لكن صاحبنا كان تفكيره مسموم لدرجة أن نوبة دخلنا رستوران وحبيت أطلب كريمة أحلى بيها قام قاللى . «أحسن لك ماتاكلش كريمة ، دى طبق بورجوازى» عجيبة . كل الحاجات كانت بتنقسم ف مخه بشكل اتوماتيكى إلى حاجات بورجوازية وحاجات بتاعت الكتلة العاملة . كل دا معقول . لكن لما توصل لدرجة أن طبق كريمة المستغلة ف المجتمع ، دا يكون لحد زى ما بيقولوا الانجليزى . ابتديت أشعر أنه بيضيع وقتى صحيح.

– مانعطلكش يا سى دافيد . أنا عندى عنوانك ، وإذا احتجت لكتب ها أبعت لك جواب . مع السلامة .

واشتريت وقتى بقليل من الشجاعة الأدبية .

دولسناف الجنينة

دولسينا ، إن كنت ماتعرفش ، دى صاحبة دون كيشوت وأنا زى ما قلت لك أول ما دخلت لندن برضه اقتحمتها زى دون كيشوت ما كان بيقتحم طواحين الهوا الكبيرة وهو فاكر انها عمالقة تقوم تخبطه ف راسه يقع ويفوق . أنا كمان وصفت لك ازاى حبيت اقتحم باريس زى الفارس قام خبطنى طواحينها ف رأسى . اللى حصل ف باريس حصل ف لندن كل عاصمة فيها طواحينها ، أول طاحونة كانت الجدع اليهودى اللى كان بيصطادنى ف المتحف البريطانى ويضيع وقتى . تانى طاحونة كانت أكبر شوية من الجدع اليهودى لأنها أخذت منى شهر كامل قبل ما أفوق من خبطتها ..

نزلت يوم حد العصرية أتفسح ف هايد بارك ، هايد بارك اللى جابت شهرة للندن زى البرلمان الانجليزى والمتحف البريطانى أنا كنت قريت عن الناس اللى بيجتمعوا هنا بالميات ويخطبوا ف السياسة ويقولوا أى كلام يعجبهم ضد الوزارة وضد الملكية وضد الأديان إذا حبوا كمان . قريت ازاى إن الانجليز كل ما يفتخروا بحرية الرأى عندهم يفتخروا بهايد بارك منبر الرأى العام ف

انجلترا . صحيح هايد بارك مالهاش مثيل ف الدنيا . مافيش حته فى الدنيا الناس تتلم فيها على كيفهم ويقولوا كل اللى ف صدرهم، اللهم إلا حرم الجامعة بتاعتنا . لفيت ف الماشى اتفرج .. لقيت من بعيد شلل كتيرة متنتره ف الجنينة .

قلت لازم أسمع بيقولوا ايه .. ومشيت أمد وأنا قلبى بيدق من الحماس افتكرت إنى هاسمع بيزعقوا وبيهتفوا «تحيا الثورة» أو «ليسقط تشمبرلين» . رحت لقيت راجل واقف على سلم خسب مجوز وف أيده كتاب، عجوز مبهدل ف لبسه ، بالتأكيد فقير وحواليه حوالى عشرين راجل ومره . سمعته يقول :

– الكنيسة الانجيلية بتمد ايديها للأبناء البرره الجداد ، والسيد المسيح بيبص من فوق وعينيه مرغرغة بدموع الفرح كل ما يشوف واحد من الضالين دخل بيت الله .. ياالله نصلى ونرتل ترتيله ٥٢٠ .

وراح فاتح الكتاب اللى ف ايده وابتدا يرتل والناس وراه رحت منسحب من سكات أحسن حد يسألنى ما بترتلش ليه مشيت كام خطوة لقيت شاب ماحلقش دقنه ادى أسبوع ، باين عليه عامل ، واقف على منصة بيخطب بصوت مبحوح وفوق

رأسه العلم الشيوعي بيرفرف . سمعته بينتقد سياسة الحكومة بالنسبة للحرب الأهلية ف أسبانيا وبيطلب من الناس أنهم يبعتوا أكل ولبن للجمهوريين . قلت دا الكلام الجد ولا بلاش بالأخص لأن أنا نفسي كنت أكره فرانكو عمي وافتكر أنه زي كل الفاشست اللي ف الدنيا خاين لبلده . بصيت حوالي أعد الناس لقيتهم ما يزيدوش عن خمسين ، عشرة منهم بيتريقوا ع الراجل بصوت واطي وعشرة زوار زي حالاتي ، سمعوا لهم دقيقتين وزقوا ، وعشرة باين عليهم نقل والباقين صحيح مندمجين مع الخطيب . وشفت عسكري بوليس على بعد عشر ياردات رايح جاي بس عشان حفظ النظام ف حالة ما يحصل شغب . مشيت لحد اللمة التالية لقيت مره صغيرة مش بطالة ، فكرتني بميجور باربارا بتاعة برنارد شو ، قاعدة توعظ ف الروح القدس وقدامها على طول راجل قاعد يسب ف الأسرة المالكة الانجليزية واحد واحد . زهقت أخدت بعضي ومشيت ..

أنا يظهر كنت مخدوع ف هايد بارك . عرفت أن دول حبة مجانين قاعدين يهلوسوا والحكومة سيباهم ف حالهم لأن مافيهمش خطر . ومكانهم الحقيقي مستشفى أمراض عقلية مش

السجن . أكتر من كده . عرفت أن بعضهم حافظ الخطبة بتاعته صم وبيروح يسمعها كل يوم حد على ناس جداد . عرفت أن أغلب الناس اللى بيخطبوا ف هايد بارك « حالات عقلية» زى ما بيقولوا الانجليز يعنى من الجماعة المشتبة ف عقلهم ويظهر أن جنونهم من نوع خطابى فبيروحوا ينفسوا عن نفسهم . أنا أفتكر أن أحنا ف مصر عندنا حتة واحدة فيها حرية الكلام مقدسة ودى لاهى كلية الآداب ولا هى كلية الحقوق لكن الحتة اللى بين كلية الآداب وكلية الحقوق . أنا شفت التلامذة بيتلموا فيها أيام الاضرابات وبيهتفوا ألعن هتافات خلقها ربنا والبوليس واقف بحكم القانون بره سور الجامعة ومش قادر يدخل لهم . يوم ما تختفى الحرية من جو مصر هايفتكر التلاميذ إن كان عندهم حرم جامعى ، وأنهم كانوا بيعبروا بصراحة عن شعورهم ف الحرم ده . أنا لو كنت تلميذ كنت أموت عشان أدافع عن التقليد ده . أنا لو كنت أقدر أعمل حاجة كنت أطالب الحكومة أنها تدى حصانة برلمانية ، زى الحصانة البرلمانية ، للطالب قبل الأستاذ طول ماهم بين أسوار الجامعة ، وأنها ترفع المسئولية الجنائية عن كل جرائم الفكر والنشر مهما كان نوعها كل ماهى محصورة داخل الحرم الجامعى وأنها تحط الحصانة دى ف ايد مجلس الجامعة

لوحده . لو كان عندنا نظام زى دا ماكانش طه حسين جرجروه للمحكمة عشان رأى علمى شرحه ولا الطلبة حبسوهم عشان قالوا يحيا الدستور.

سيبك أنت من الهايد بارك . الناس اللى بيقولوا لك إن رمز حرية الكلام ف انجلترا دول جرنالجية هواشين . حرية الرأى ف انجلترا تلاقيها ف أساتذة الجامعات لما يهاجموا النظام القائم بأوضح عبارات ، تلاقيها ف الصحافة لما تقول إن ملك انجلترا ما يسافرش أمريكا ع «الريبالس» البارجة الكبيرة ، لكن يشوف له مركب حربية صغيرة عشان كان فيه خطر حرب كمان تبان ف المناظرات والمحاضرات السياسية زى ما حصل مرة إن اتحاد جامعة اكسفورد عمل مناظرة أيام أزمة ميونيخ موضوعها أنه « لا يجوز الدفاع عن الملك والوطن» ، وزى ما حصل أن اتحاد جامعة كامبريدج عمل مناظرة موضوعها إن «الامبراطورية البريطانية خطر دائم على سلام العالم» ، وف الحالتين الجانب الثورى كسب أغلب الأصوات وانتشر ف الجرايد . لكن دلوقتى خلينا ف هايد بارك « الجنينة» مش المنبر .

مافيش فايدة أنك تقارن هايد بارك واللوكمسبورج . زى الكوكت الفرنسوية المدندشة ، اشى تماثيل واشى فساقى . لكن

هايد بارك عاملة زى ست انجليزية سبور دا جمال ودا جمال . وبلاش تحيز . درت ألف ف الجنينة لحد ماقربت أوصل آخرها من ناحية النصب بتاع البرت أو فيكتوريا لقيت اتنين عمال عواطلية قاعدين يعاكسوا ف بت غلبانه . زى شغل مصر تمام ، ودى حاجة نادر تلاقيها ف انجلترا .

والحقيقة أنا وصلت ف آخر الحكاية وماشفتش غير الجدعان ماشين يتسكعوا لبعيد والبنت واقفة تبرطم . «مغفلين» « أيوه مغفلين» ..

جيت جنبها وقلت بفضول .

– كانوا بيضايقوكى ولا أيه ؟

– ايوه .. متشكره ..

ف الأول مافهمتش متشكره على ايه .. اتابيها افتكرت إنى جاى انقذها منهم وحسبتها شهامة منى أجى استفهم . شوف يا أخى الدنيا ماشية ازاى ..

المتنبى مرة قال «ويختلف الأسمان والفعل واحد ، إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا» . أقول لك الحقيقة أنا اتكسفت من نفسى . هيه بتفتكرنى فارس من غير حصان جاى أطلع سيدة من محنتها

وأنا عارف تمام إنى ماسألتش السؤال بتاعى إلا من باب التعارف . لو كانت دى بنت مصرية يمكن كانت قالت لى « ياسم» يادم ، وأنت مالك ، وأنت ايه حشرك . روح يا أفندى شوف لك شغلة أعملها بدل ما أنت داير تلقح جتتك على بنات الناس» .

ويمكن ساعتها أكون أنا مسكين صحيح عاوز أساعدها .

أوعى تفتكرنى إنى متحامل من غير مناسبة . أنا قلت ف أكثر من مناسبة أن جيل واحد من التربية الصالحة ف ظروف اقتصادية صالحة كافى أنه يغير عقلية المرأة المصرية من صف الجوارى لصف الأحرار .

مشينا مع بعض . حكت لى حكاية الجدعان اللى بيعاكسوها وقالوا لها أيه وقالت لهم ايه : مش مهمة . قالت لى أن أسمها باميلادنى ، وأنها كانت لحد كام شهر فى مدرسة أو ف دير ، مش فاكر ، وإن فيها دم أسبانى عن طريق أبوها وأنها مابتشتغلش وأنها عاوزة تبقى ممرضة وإن أمها قلبها قاسى عليها من يوم أبوها ما مات واتجوزت غيره وأنها ما حبتش تصرف عليها قام بعتتها الدير وأنها مقيدة حريتها لآخر درجة ومش مخلياها تسهر بره بعد الساعة عشرة وحاجات كتيرة مش فاكرها دلوقت .. وأنا

كمان قلت لها حاجات كتير عن نفسى والحاجات المهمة طبعا ولما اتغوطنا شوية فهمتها أن أعضاء البعثة يترفدوا إذا أتجوزوا أجانب . يعنى افهمى الأمر وما فيه . طبعا الحاجات دى كلها ماقلنهاش ف خمس دقائق . بالعكس دى يمكن أخذت أيام . أنا بس با احكيها لك ورا بعض عشان أخلص منها وانتبه لحاجات أهم منها .

بعدما مشينا سوا ربع ساعة وصلنا بحيرة أو نهر أو ما افهمش ايه برضه جوا هايد بارك . قالت لى :

– دا السير بنتايم ..

قعدت كام دقيقة أتأمل فيه . أنا شفت السير بنتايم ميت مرة لكن من ناحية واحدة ، من ناحية البوفية اللى ف الجنينة وعمرى ما عرفت آخره فين . وكل مرة أشوفه ألاقيه واحد من حاجتين . ف الأيام الصافية أبيض أملس زى النيل ف أيام التحاريق بيلمع ف حتت وف حتت لأ ، وف الأيام الغايمة شكله زى الرصاص السايح من حرارة طبعا . سرحت دقيقتين وبعدين رفعت راسى وقلت من غير ما آخد بالى .

– تعرفى . هنا هارييت وست بروك انتحرت أدى مية وخمسين سنة تقريبا .

– مين هارييت وستبروك دى امرأة شيلى الأولانية كان أبوها فاتح هوتيل وبعدين الشاعر حبها واتجوزها .

– وانتحرت ليه ؟

– عشان سابها بولد أظن وهرب مع مارى جودوين بنت استاذه الفيلسوف وليم جودوين وراح ايطاليا . فيه كمان بنت تانية من عيلة جودوين انتحرت ف ليذر عشان كانت بتحبه . مش دى كانت أيام غريبة ؟ نابليون ، بيتهوفن .. جيته . شيلى بايرن ، كيتس . شتوبران ، دى فينى . دى موسيه . شليجن .. مدام دى ستايل . مش دى كانت أيام غريبة ؟ التريكولور والجيش ، اللى ماشى على بطنه . مش دى كانت أيام غريبة ؟

أنا لما كنت بسأل ماكانش قصدى أن باميلا ترد . أنا كنت با أكلم نفسى .

– شلى كمان مات غرقان . القاتل يقتل ولو بعد حين .. يموت بالميه برضه . مش دى مصادفات غريبة ؟ «ناميسيس» ، على رأى اليونان . ولو كنت ف طرف المعمورة . خرافات . اعترف أن دى كلها خرافات لكن فيها عزاء ، أنا عارف أن ألهة الانتقام سواعى كتيرة بتنام وعشان كده افتكر لازم يكون فيه جنة ونار .

أنا كنت عارف لندن حته حته قبل ما أسافر من مصر . بس عن طريق الكتب والروايات كنت أرسم ف خيالى خرط

لو ستمنستر وبيكاديللى وسوهو وجهة هايد بارك . شوف لما تحلم بحاجة واحدة كل ليلة وتصحى يوم تلاقيها قدام عنيك ، تضطرب وإلا ما تضطربش ؟ أنا كمان لما شفت السير بنتايم اتحركت شجونى . دا مش فرح مع أنى ف الواقع اكتشفت الاكتشاف دارى ما تشوف حاجة الزمن ما أتلفهاش . يمكن عشان كدا فكرة الابد بتزعجنا . أنا حياتى غنية بالمواقف الغنية لأن مخى متمرن على تداعى المعانى . ودى مش لازم ساعات سعادة إنما بالتأكيد ساعات تأمل عميق . والبنت اللى جنبى اللى كل أملها فى الحياة أنها تعمل ممرضة ، تعرف ايه دى عن شلى وهارييت وست بروك . رخره بصيت لى وأنا سهتان با أحكى لها عن تاريخ المنسى والتاريخ المحفوظ وعينها واسعة زى الفنجان بتقول . طيب والرجل الأسمر دا ايش عرفه باللى حصل ف السير بنتايم ادى ميت سنة وخمسين . قلت ف عقلى . الرجل الأسمر دا يعرف حاجات كبيرة ياباميلا ، بس صبرك عليه .

لما كنت ف ثانوى كان فيه مجلات مصرية كتير تسألك سؤال مش معقول . إذا كنت مش مولود ف القرن العشرين كنت تحب تتولد فى أنهى عصر ساعتها كنت أفتكر إنى كنت أحب أعيش ف

عصر الثورة الفرنساوية عشان أقرأ روسو وهو لسه سخن وأشوف مارى انطوانيت بتاكل البقلاوة بتاعتها وأسمع ميرابو بيزأر ويجلجل ف الجمعية التشريعية وف ملعب التنس واكتب بنفسى على حيطان التويلرى بالطباشير . الحرية والأخاء والمساواة ، وأدخل مع شارلوت كورداى على مارا الحمام بتاعه وف النهاية اتفرج ع المغامر الكورسيكى من أول ما طلع من نادى اليعاقبة لحد ما مس حافة السما برأسه وأشوفه كمان بيهوى زى الشهاب . برضه وأنا واقف جنب باميلا على شط السير بنتايم لو كنت سألتنى نفس السؤال كنت جاويتك نفس الجواب . لأن مرأى البحيرة فكرنى بالعهد الحافل وفكرنى بالبحيرة الكبيرة والبحيرة الصغيرة اللى غنى جنبهم شعراء الخيال وفكرنى باللعنة اللى شردت قلب القلوب وبطل مسولونجى والشاعر المسلوك .. لكن لو تسألنى نفس السؤال دا لوقت أقول لك أنى غيرت رأيى ، وإنى برضه أحب اتولد ف القرن العشرين . أنا دلوقت بس حسيت أن احنا ف أخطر عصر فاتت فيه الإنسانية ، وإن أحنا بنشاهد أكبر سباق بين المدنية والكارثة الكبرى فات على جنسنا من يوم الإنسان ما اكتشف نفسه ، وأن احنا بنقرر مين اللى هايسود الأرض دى . العقل ولا العاطفة ولا المخلوق المرعب الجديد اللى بيعزل ويطبع ويبنى ويودينا لحافة البسيطة ف سبع ت أيام .

بعد شوية كان لازم أخذ شاى ، قلت لباميلا تاخد شاى معايه جت . وشوية شوية أخذنا على بعض لدرجة إنى ابتديت اداعبها بنكت أدبية – زى كل حاجة با اكتبها – عايزة شرح وتعليق . قلت لها تغير اسمها قام استغربت .

– أنا ما أحبش أسمك لأنه بيفكرنى بباميلا بتاعت ريتشارد سون .

– ومين باريلا ومين ريتشارد سون ؟

– ريتشارد سون دا روائى انجليزى عاش ف النص الأول من القرن الثامن عشر وكتب رواية اسمها «باميلا» ، أو «جزائر الفضيلة» موضوعها ركيك و«سنتيمنتال» . ف كلمتين قال ايه باميلا بنت خدامة عند واحد لورد خدامة جميلة طبعاً لكن عفيفة ، حب سيدها يضحك عليها ماقدرش قام اقتنع بطهارتها ، وعشان يكافئ الفضيلة راح متجوزها وعاشوا ف تبات ونبات وولد وصبيان وبنات . الحكاية سخيفة لكن مكتوبة كويس ، مش كده تعرفى ، كان فيه واحد روائى تانى اسمه فيلدنج عايش ف نفس الوقت حب يضحك الناس على ريتشارد سون وبعدين فكر يعمل رواية اسمها «شاميلا» يعنى باميلا مزيفة ويعكس فيها الموضوع

ويورى أن مـا حـدش بيكافئ الفضيلة وبعدين خلق عقده لطيفة وأشـخـاص لطاف والمسـألة خـرجت من ايده قـام لفي المشـروع الاولانى وسـمى الرواية « جـوزيف اندروز» وف الرواية جـوزيف اندروز كان خدام عند ليدى بوبى وبعدين ليدى بوبى استحليته ع الحياة دى . أنا كنت ف مصر ساكن ورا الجامعة وكان يفوت عليه بالأسبوعين ما انزلش البلد .. أنا لازم أهرب من لندن . أنا وقعدت تراوضه مدة طويلة ، لكن جوزيف ، زى پاميلا ، وزي – سيدنا يوسف ما عمل مع مراة فوطيفار عزيز مصر ، رفض واستمسك بأذيال الفضيلة تعرفي النتيجة كانت ايه ؟ ليدى بوبى مش اتجوزت جوزيف روز لكن طردته ودار يطلطم من مكان لمكان .

أهو المهم قعدت أسليها بكلام زى دا يوم بعد يوم وقعدنا على كدا شهر كامل . لكن ف الشهر دا حصلت حاجات أو على الأصح ماحصلتش حاجات ، بعدما كان بيحصل أن كل يوم الصبح كنت أروح المتحف البريطانى لقيت نفسى با أنام لحد الساعة عشرة واحداشر ، ومن يوم ما عرفتها دا ما بقاش يحصل . لقيت نفسى داير اتفسح ف لندن مع باميلا مرة سينما مرة تياترو مرة جنينة ، مرة صرمحة ف الشوارع لكن فاكر تمام أن أجمل أوقات كنت

أمضيها كانت واحنا بنجرى ورا بعض زى العيال ع السلم الميكانيكى اللى يوصل للمترو تحت الأرض وكانت كمان ف سوهو واحنا بنتعشى تقريبا كل ليلة . سوهو زى ما أنت عارف حى غريب له جاذبية شديدة ومليان أسرار . ف الأول أسراره هى اللى جذبتنى لكن بعد أسبوع بقيت أحب الحى بذاته . كنت اقرأ ف روايات الجيب عن أسرار سوهو الرهيبة ، سوهو حى الجريمة . وأول ليلة رحت سوهو . ولازم أقول لك ع الحقيقة . أول ليلة رحت سوهو كان مالى خيالى صور ناس صغيرين من الصين شعرهم واقع وعنيهم ضيقة ووشهم أصفر وأشنابهم خفيفة ونازلة لتحت – دى صورة نموذجية طبعا ناس من دول كامنين ف زوايا الشوارع المظلمة ، شايلين خناجر بين أسنانهم ومستنيين الفريسة . يمكن أنا ، يمكن أنت ما أعرفش . أو شلة من أوباش الطلاينة بكسكتات ومناديل حمرا وسخه معقودة حوالين رقبتهم وجزم مخروقة بيمضغوا تبغ ويتفوا ع الأرض من غير حرج دايرين يضربوا بولطه تحت صدر الليل الكئيب . أوسبتات بطالين من حثالة كل الشعوب يقعدوا جنبك ف الروستوران ويساوموك على حتة أفيون . كنت أسمع ف وسط الليل الساكن صرخة شنيعة وبعديها أنة

مكتومة ، وأشوف من الشباك المتهدم الوسخ اللى بيدى نور خافت خرقة معلقة وراجل مشنوق . كل التهيؤات دى كانت تجى لى قبل ما أدخل سوهو . ولازم أقول لك ع الحقيقة . أول ليلة رحت سوهو كان قلبى بيترجف ويمكن أقول لك أنى شفت فعلا عينين بتبرق ف الضلمة من بعيد . طبعا ماحصلش حاجة بعد كده أخدت ع الحتة وابتديت أدور بنفسى ع الأسرار اللى بيحكوا عنها مالقيتش حاجة وبعد أسبوع بقيت أكتفى بالعشا الهادى والنبيت اللطيف . لكن لازم أعترف أن الحى يخوف القلب الحديد . الشوارع الملفلفة اللى تتقفل على غفلة والأنوار الواطية الطويلة اللى من ظلالها والحوارى الداكنة اللى تحود من غير انذار .. أنا ماشفتش حد ف سوهو شكله عادى أبدا . جرسونات وزباين وناس فايتين ، كلهم ف حاجة ف وشهم ماتتفسرش ، إن كان معنى غير مألوف بيطل بين حواجبهم أو فك اجرامى أو مرارة واضحة فأركان الشفايف ، بيبة قديمة عمرك ما شفت زيها . المهم فيه حاجة والسلام ، وإن كان ضرورى تحل اللغز ، افرض بس أن كل واحد عايش ف سوهو لازم له ماضى كثيف .

شهر كامل ضاع منى ما عملتش فيه أى شغل . طبعا ضميرى ماقعدش نايم طول الوقت زى ما أنت فاهم .. بالعكس .. كنت با

أعمل مجهودات تذكر عشان أخلص كتاب وابتدى كتاب تانى .
لكن دا مش نوع الشغل بتاع واحد زيى كان بيسهر صباحى بمعدل ليلتين ف الأسبوع مدة تلات أربع سنين عشان يعلم نفسه .
قلت لا . الكلام دا ماينفعش ، أنا لازم أشوف لى حل اللى خوفنى كمان - مش لازم أخبى عليك - أن باميلا ابتدت تتشعبط فى .
لاحظت مثلا أنها ابتدت تكسر عشانى قانون الساعة عشرة اللى أمها قالت لها أنه حد السهر . وكنت أنا جنتلمان بشكل كافى إنى أفكرها ف الوقت المناسب . تقوم تقول لى أنها مش هاتسأل ف كلام أمها .

طبعا أنا وظيفتى انتهت لحد هنا . ماتقدرش تنتظر منى أنى أديها نصائح أخويه ف طاعة الأمهات . المسألة ابتدت تبقى خطيرة .. أقول لك ازاى كبرت . يوم من الأيام كنا عندى ف البيت، وف وسط ما احنا قاعدين ف أمان جنب الدفاية باميلا جت وقعدت جنبى ولفت ذراعها حوالى ورمت رأسها على كتفى وقالت بصوت واطى :

- أنا با أحبك .

بلعت ريقى ومعرفتش أقول ايه . وبعدما جمعت أفكارى حاولت أنى أصرف الموضوع بذوق . قلت لها :

- أنت عمرك كام سنة ؟

- تمنتاشر ..

- انتى لسه صغيرة . أنت مش عارفة بتقولى ايه .

- لأ . أنا عارفة أنى باحبك .

ساعتها لقيت أن من الحكمة أنى أطنش وأخلى المسألة تعدى . حكم المناقشة ف المواضيع دى من أسمج ما يمكن . لولا البنت كانت طيبة قوى كنت افتكرت أنها بتشتغل على عشان كده كنت مضطرب طول الوقت . أنا اتحاشيت بالعامد أنى أوصف لك باميلا دى . أوسكار وايلد كان عنده تقسيم لطيف للستات . عنده الستات نوعين . ست بسيطة وست مدوهنة . باميلا كانت بنت بسيطة على حسب تعريف أوسكار وايلد ، أخلاقها عادية ، ماتنساش تنضف أسنانها مرتين كل يوم لكن تستحمى مرة واحد ف الأسبوع ، معلوماتها معلومات تلميذ ف تانية ثانوى وذكاءها على قد معلوماتها . صحيح مافيهاش ولا حاجة واحدة وحشة لكن مافيهاش ولا حاجة تنحب .

ابتديت أحس بالخطر جى من بعيد ، حب ايه وابتاع ايه هو أنا بتاع حب ، أنا جى اشتغل . وبالأخص بعد الأزمة النفسية اللى كنت فيها سنة ١٩٣٤ كنت تقطع ودانى وما أسلمش نفسى

لعواطفى تانى . وبما أننى ساعتها ماكانش عندى عواطف لا من ناحية باميلا ولا غيرها صممت أنى أنهى المسألة بأسرع وقت ممكن .. رحت مكتب البعثة واشتكيت اننى مش عارف اشتغل فى لندن وطلبت أنهم يسمحو لى أنى أبتدى فـ كامبريدج على طول .

مدير البعثة قال لى :

ـ إذا كنت مش عارف تشتغل ف لندن مش لهم استريح . الحسبة كلها شهر والفصل الدراسى التانى يبتدى وتسافر سفر طبيعى .

برضه ما اقتنعتش . لقيت ديسمبر داخل رحت من سكات مسافر كامبريدج عشان أجس النبض وقابلت كل الناس اللى أنا عاوز أقابلهم وتانى يوم رجعت لندن مبسوط لأن الكلية بتاعتى سمحت لى أنى ابتدى حياتى الجديدة ، حياة الاطلاع اللى أعديت لها شخصيتى طول العمر . لكن مشكلة واحدة بس . باميلا . ازاى أفهمها من غير ما أجرح شعورها ؟

أخذتها تتعشى فى بكاديللى بدل سوهو ، عشان بيكاديللى نوره أكتر من نور سوهو والنور زى النهار بيبدد الأوهام ويدى الحقيقة شكل ولون . بعد ما شبعنا قلت لها .

.. أنا اتفقت مع أستاذتى أنى أنزل كامبريدج بعد بكُره يعنى ماقدمناش غير يومين .

وجوم شديد . عرفت أن ماليش حق أفتح موضوع زى دا ف رستوران احترمت صمتها وقمت أنا بالكلام .

ـ وأنت أحسن تبتدى تتعلمى تمريض بمجرد ما أسافر أنا . برضه وجوم . احترمت صمتها تاني واستمريت ف الكلام .

ـ أنا متأكد أني ها اشتاق لك .

ماردتش . ولما شفتها مصرة ع السكات ومطاطية راسها رحت أنا كمان ساكت ومطاطى راسي وطلعت ورقة من جيبى وقعدت أقطع فيها حتت حتت ، أطبقها وأقطعها ، أطبقها وأقطعها ولما خلصت ابتديت بأسناني . بعد كام دقيقة ابتدت هى تتكلم . ياريتها ما اتكلمت شفت عينيها مرغرغة شوية .

ـ ما تقدرش تستنى أكتر من كده ف لندن ؟

ـ طبعا « أقدر » لكن أنت عارفة أنى لازم أكون ف كامبريدج بعد شهر لما يبتدى الفصل الجديد .

ـ أنا فاهمة دى من الأول .

ـ ومادام ها اضطر أسيب لندن يوم من الأيام مافيش فرق أني أسيبها بعد يومين وأنى أسيبها بعد شهر ويومين . لازم الواحد يبقى دايما مستعد عشان يواجه أى مشكلة .

ـ عندك أنت ما فيش فرق ، لكن عندى أنا فيه فرق كبير .

أدى قلم أخذته .. رجعت هى وقالت :

ـ أنت زعلان عشان مش عارف تشتغل ، لك حق تزعل لكن استنى معايه الشهر دا وأنا أساعدك ع الشغل .

ـ أنا آسف خالص ، أنا وعدت أساتذتى ف كاميريدج أنى جى . ثانيا أنا ثبت لى أنى ضعيف ولندن قوية . أنا طول ما أنا هنا ماتبلعنى المدينة الكبيرة دى . فيه حاجة ضاعت منى من يوم ما جيت لندن دى ومش عارف استردها أبداً . شخصيتى ضاعت منى . وقتى مش عارف أنظمه . مجهودى مش قادر أحصره ، وأهم لازم أبقى سيد وقتى وسيد ظروفى وسيد نفسى أمال ايه فايدة الارادة إذا كان الواحد ما يستعملهاش ف مواقف زى دى ؟ يلا نروح .

طول السكة ماقلناش حاجة . واحنا نازلين ع السلم الميكانيكى ف محطة بيكاديللى نزلنا وقفين تعبانين . قلت ف عقلى ادى حاجة هاتروح منى لما أسيب لندن . حياتى الجديدة مافهاش سلم ميكانيكى ، ومجرد التفكير ف الموضوع زعلنى . تعرف الأطفال ازاى يحبوا البون بون والجيلاتى ، اهو السلم الميكانيكى كان بيدينى لذة زى الأطفال من مص البون بون ولحس الآيس كريم . السلم الميكانيكى صحيح من أفراح الحياة ، لكن زى بعضه ، الحياة فيها أفراح كثيره تانية .

أول ما دخلنا الاوده صاحبتنا ارتمت ع السرير وقعدت تبكى..

ـ الله ، الله مش لازم تعملى كدا .

ورحت لها أهون عليها وفي قلبى مزيج من الألم والغيظ .. أنا كنت متغاظ لأنها بتكبر فى الحكاية من غير سبب . قلت لنفسى . «بمنتهى النزاهة والمعقولية أحكم . إيه يعنى اللى هايحصل لها إذا مشيت أنا . ولا حاجة . برضه هاتلاقى واحد تانى زيى أو أحسن منى يسليها ويملا فراغها ويسمعها كلمات الحنان . أنا مش فاهم ليه هيه بتعمل كدا » بعد كدا فهمت أن فى حياة الانسان أمور النزاهة والمعقولية مابتتدخلش فيها . أنا طبعا كنت عارف كدا طول عمرى لكن الحقيقة العظيمة دى غابت عن عقلى ساعتها لأن عواطفى كانت باردة ، وما افتكرتهاش غير لما سخنت تانى بعد سنة وزيادة . لما لقيت السياسة مافهاش فايدة مع باميلا جربت أسلحة تانية مش مشروعة سبتها راقده ع السرير ومشيت لحد الدفاية واتكيت ع الحاجز بتاعها وعطيتها ضهرى وقعدت أفكر . بعد خمس دقايق قلت بصوت هادى مليان تصميم من غير ما أغير مكانى ووشى ف النار .

باميلا ..

ـ ييس دارلنج .

بلعت ريقي .. واستمريت من غير لهجة . أنام لازم أطمئن .

ـ أنتى فـاكـره الكلام اللى قلتـهـولك ف مـحل اللبن تانـى يوم عرفنا بعض ؟

ـ أيوه فاكراه أنت قلت الحكومة بتاعتك تفصلك إذا اتجوزت من هنا .

ـ تعرفى ليه أنا قلت الكلام دا ؟

ـ طبعا . دا كانْ تلميح ليه وأنا فهمته .

ـ انتى مش تفتكرى أن موقفى سليم ؟

ـ بالتأكيد . فى منتهى النبل كمان .

ـ سيبك من النبل . دا كـان مـجـرد واجب وأنا دايما با أعمل الواجب . أنا عـمـرى مـا غـشـيت حـدا إلا إذا كنت مـضطر .. طب ومـادام انتى عـارفـة أن فكرة الجـواز بره الموضـوع خـالص يبـقى مافيش داعي للعواطف الشديدة دى .. وإلا ايه ؟

ـ أنا عمرى مافكرت ف الجواز .

اطمأنيت .

ـ أمال ازاى تتصورى علاقتنا ف المستقبل .

ماردتش . فهمت أنى أسـأل أسئلة كتيرة سـخيفة وفيـها قسوة على واحدة أعصابها مهدودة .. كان حقى أفهم من نفسى لكن دى

مش غلطتى .. دى غلطة الوسط اللى اتربيت فيه لأنه مامرنيش ع الاحساسات الدقيقة دى كلها .. السنين ف انجلترا طبعا غيرتنى ، بدرجة انى دلوقتى قادر أحس بكل المرارة بتاعت الموقف على بعد خمس سنين .. لكن ف الوقت نفسه لازم اعتذر عن نفسى لأنى ف الآخر حليت المشكلة بتضحية كبيرة . خطر لى ساعتها أن باميلا يا أما بنت عيلة بتروح سينما كتير ومش فاهمة هيه بتقول ايه ، يا أما أنها صحيح بتتكلم جد عن شعور جد ف جد ..

وف الحالة التانية دى مش من مصلحتها أن أنا أمشى من لندن ساعتها أو بعد شهر ـ وهى تقعد تنتظر من غير فايدة . يوم تجيلى كامبريدج ويوم أجى لها لندن .. وبعد كام سنة وأنا راجع مصر تلاقى نفسها ف نفس الموقف الأولانى .. وتبتدى تبحث عن صداقة جديدة .. شئ كتير من الحزم كان لازم .. فلما مانفعش فيها المحاولات قلت أن الطريقة الوحيدة هى انى ازعلها منى .. أقول لها كلام يوريها أن أنا شخص أخلاقه ضعيفة وقد كان .. قلت لها كلام كتير ف منتهى القسوة عليها وف منتهى الظلم لنفسى . لازم أكون وحش معاها . مافيش غير المهندس اللى كان سكان معايه ف كامبريدج تراس وعلمنى لعبة الهويست هو اللى كان عارف التفاصيل قلت لها انى ماباحبهاش ودا كان صحيح

ولكن ماكانش ضرورى يتقال .. قلت لها أن أنا عمرى ما اهتميت بها ولا عمرى ما اهتم بيها ف المستقبل .. ودا ماكانش صحيح لكن الحكاية نجحت أو تهيأ لى أنها نجحت طبعا أنا ما أعرفش هيه كانت بتفكر ف ايه وهيه بتسمع الرصاص نازل عليها من كل حتة .. لكن على أى حال أنا طعنتها فى كبريائها ودا كفاية .. أطعن أى واحد كريم فى كبريائه تلاقيه يعمل كل الحاجات اللى أنت مش عاوزه يعملها .. ولما خلصت كلام لبست الجاكتة وقلت بأسف صحيح ..

ـ أنا لازم أوصلك بيتك دلوقت .. دلوقت أهو ..

قالت وأهدابها مرخية ..

ـ دى أحسن حاجة قلتها النهارده .

الحمد لله .. فاتت الزوبعة .. فاتت ومعاها رجولتى كلها .. لكن زى بعضه ..

وقدام باب بيتها بوستها مرتين .. ورجعت ارتب عواطفى .

كامبريدج من بعيد

فيه حاجات كتير ، ماتقدرش تفهمها إلا إذا شفتها من بعيد . بعض صور سيزن مثلا .. كنيسة الساكركير ف باريس . بعض المناظر الطبيعية اللى فيها اختلاف كتير عشان تفهم جمالها لازم ترجع لورا نص ميل .. الريف المصرى عشان تحس بالفكرة اللى فيه لازم تشوفه من شباك قطر .. وفيه حاجات زى الهرم مثلا مالهاش معنى إلا إذا امتحنتها وأنت واقف على حجارتها . وفيه حاجات قليلة تسحرك من قريب ومن بعيد .. كامبريدج واحدة من دول .. لكن كامبريدج بقى ماتقدرش تفهم جاذبيتها الحقيقية إلا إذا عشت فيها مدة ، وعشت تلميذ ، مش موظف أو سايح أو بقال .. هاتعرف بعدين أن الموظف والسايح والبقال مافيش فرق عندهم بين كامبريدج وأى بلد عدد سكانها تمانين ألف .. لكن قبل ما أخليك تحب كامبريدج زى ما أنا حبتها ها أخليك تحبها زى ما بتحب الاقصر وأطلال الرعامسة .. دى نعمة كبيرة من عند ربنا أنى أقدر استحضر التأثيرات الأولى ، لأن ما فيش ناس كتير يقدروا يفتكروا الشبح بعد ما يملاه الجسم .

أول يوم رحت كامبريدج ف حياتى كان ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٧ . اليوم ابدأ بضباب وطول ماكنت ف القطر كانت بتمطر ف

كامبريدج وعبال ماوصلت البلد لقيتها مبلولة وحيطانها بتشر ميه . السما كمان كانت لسه بتنشف نفسها ف الغيوم وكل ما أمشى خطوتين ف شارع المحطة تلسعنى نقطة مطر ف خدى أو تدينى شعور غريب ف شعرى أشبه بالزغزغة . سألت عن كلية الملك دلونى عليها ، والبيوت الحمرا القصيرة عن يمينى وعن شمالى بقت حمرا زيادة بعد ما غسلها المطر والمبانى الرمادى زى كلية بمبروك والبوستة العمومية ساح عليها الهباب وانحدر لتحت .

أنا وصلت الساعة اتناشر وعبال ما اهتديت لمستر بيفيس المؤدب بتاع كليتى واتفقت معاه انى أروح أقدم نفسى لمسجل الجامعة كانت المكاتب قفلت . « تعال له بكره الساعة عشرة ، «رأيت » . كان فيه مشكلة صغيرة طبعا .. أنا جيت بتذكرة سفر شهرية . أرجع والا أبات ف كامبريدج ؟ قررت أنى أبات ، قالوا عشان أوفر . رحت حاجز أوده ف بولز هوتيل طلعت بتمانية شلن وستة بنس نوم بس ولما اتعشيت وفطرت الفاتورة وصلت جنيه بالضبط . مش عارف ليه ..

درت ألف طول العصرية وأنا مش فاهم حاجة . دا أيه ودا ايه . مافيش حد يقول لى من شكل المبانى الكبير والصغير ، والقديم وأبو ابراج والأحمر واللى زى القشلاق والمدور كان واضح عندى

أن فيه حاجات كتير عايزة شرح ، لكن مين يشرح . طبعا أنت ما تقدرش تلف باستمرار وأنت مش فاهم حاجة حتى فى باريس أكتر من تلات ساعات ، وعلى أى حال ماكانش فيه فايدة من اللف لأن الليل كان دخل والساعة كانت قربت على خمسة .. ليل تقيل الساعة خمسة . وف وسط الشتا ليل تقيل الساعة أربعة ونص . دى انجلترا ، إن كان ما عندكش خبر . إن كنت سمعت عن الليالى البيض ، أسمع كمان عن الأيام السود .

رجعت الهوتيل واتعشيت ودخنت ف الصالون ودخلت أنام . شديت الجزمة شد وبعدين افتكرت حاجة مهمة . افتكرت أن ماعنديش بيجاما . دا ليلتها كان حتة مقلب اتلخمت دقيقتين وبعدين ابتديت أفكر بسرعة قوى .. أنام بالفانلا واللباس يوم ٣٠ نوفمبر وأخذ نزلة أو إنفلونزا وإلا أجيب بيجاما من تحت الأرض؟ لا ياأفندم بيجاما من تحت الأرض. لكن أنا ما أعرفش جنس حد ف كامبريدج أيه العمل ؟ قلت ف دماغى اسم اتنين مصريين واحد اسمه سيد حسنين وواحد اسمه ابراهيم صفوت . أنا عمرى ماقابلتهم انما كان حصل أنى قابلت الدكتور يحيى العلايلى وهو بيستعد للرجوع لمصر ف النادى المصرى الملكى بتاع كامبريدج عطانى عنوان الاتنين [illegible]

عصرت ذاكرتى عصر وف النهاية ، افتكرت واحد بس ، أنا مش عارف ازاى افتكرته وأنا ذاكرتى نيله ، أنا متأكد أن ف الظروف العادية كان مستحيل أنى أفتكره ، لكن الروصريصة ياحبيبى تفوق أنيل ذاكره . ماصدقت العنوان ضرب فى مخى رحت لابس الجزمة ونازل جرى وأنا با أقول لنفسى ٦ شارع سانت لوك ، شارع سانت لوك ، خايف أحسن أنساها وماصدقت دخلت ف تاكسى رحت زاعق ف السواق ٦ شارع سانت لوك من فضلك ، واتنفست الصعداء .

الموقف كان من أبوخ مايمكن . اتصور واحد ماتعرفوش تخبط عليه الساعة تسعة بالليل عشان تستلف منه بيجاما . عمرها ماحصلت دى . أنا نزلت ف الشارع الضلمة كانت ضلمة طبيعية مش ضلمة غارات ـ ونبهت ع التاكسى يستنى ودخلت أحسس من البوابة الحديد القصيرة بتاعت الجنينة اللى خبطنى آخرها الفوقانى فى بطنى مرتين . وف مكان الجرس حسست كمان قام طلعت لى مرة وسألتنى بمنتهى الجفاف :

ـ عاوز ايـــــه ؟

ـ عاوز مستر حسنين إذا كان ساكن هنا .

وشاورت ع الباب بتاع أودته عند سفح السلم الخشب .. خبطت وأنا خايف ومكسوف .

ــ أدخـــــل ..

شفت شاب أسمر صغير زى البليه .. برضه لحد دلوقت خفت مايطلعش هوه ويطلع تلميذ هندى والا حاجة . سألته ــ بالانجليزى.

ــ أنت مستر حسنين .

ــ أيوه ..

ــ أنا اسمى عوض . أنا مصرى وها ادخل كامبريدج بعد شهر ، حصل لى فصل بارد النهارده ، كنت با أعمل مقابلات مع سلطات بتاعت الجامعة ومضطر أبات لبكره .. الفصل البارد هو أنى ماعنديش بيجاما . تقدر تسلفنى واحدة ؟ أنا العلايلى هو اللى عطانى عنوانك وقال أنك تقدر تساعدنى .

كل الحاجات دى اتقالت بالانجليزى وباضطراب شديد .. زى ماتقول أن كل كلمة أقولها زيادة كان الغرض منها أنى أزيل شكوكه . وهو من ناحيته ماقالش كلمة واحدة تشجع قام لبخنى زيادة . واحد زيى ف موقف زى دا كان عايز ابتسامة أو كلمة اتفضل أو خد سيجارة تضيع لخمته لكن صاحبنا ماعملش حاجة

من دا كله . كان رسمي خالص معايا ودخل ف الموضوع على طول .

ـ أنا ماعنديش بيجامات شتوى . كلها ف الغسيل . إذا كنت تقبل بيجاما صيفى أقدر أسلفك واحدة .

ـ أنا ممنون خالص .. بكره أول حاجة أعملها أرجعها لك .

ـ معلهش .

أخذت البيجاما وشكرته وكنت ف التاكسى ف لحظة والأزمة فاتت ، نمت ليلتها نوم مش بطال .

وتانى يوم الصبح عملت كل الزيارات الرسمية وحوالى الضهر لقيت نفسى فاضى رحت شارع سانت لوك بالبيجاما لقيت صاحبنا ومعاه واحد تانى حجمه قده مرتين حسنين قال :

ـ دا عوض . دا بدر الدين .

ـ اتشرفنايا افندم .. اتشرفنا يا أفندم .

بعد خمس دقايق كنت ف الشارع تانى لكن معايه بدر الدين . بدر الدين كان لطيف قوى ومشانى على كوبرى الشلال ، وقعد يشرح لى طول الوقت الحاجات اللى بتحصل ف البلد . لكن لسوء الحظ كان لازم أسيبه وأرجع لندن ، عشان كده ما لحقتش أتفرج على حاجة .

دى كانت أول زيارة لكامبريدج . وكانت مليانه مطر ومفاجآت لكن جابت نتيجة ودا كان عزاء . طول ما كنت ف لندن كنت با أسمع حكايات غريبة عن كامبريدج . اللى يقول لى دى بلد السلفلس واللى يقول لى دى بلد الغراميات اللى مش مكتوبة واللى يقول لى دى « زيدة المجتمع » ، يعنى فيها أحسن طبقة ف انجلترا واللى يقول لى دى هيه أكبر حاجة مسئولة عن تأخر الانجليز السياسي . كل الحاجات دى ما تقدرش تحققها غير لما تعيش ف البلد لكن أنا ساعتها كان مالي مخى حاجات مالهاش دعوى بكل دا . كنت با أفكر ف الحوارى الضيقة الملفلفة اللى مافهمتش معناها غير بعدين . كنت با أفكر ف الحيطان اللى غسلها المطر والتلامذة اللى راكبين بسكلتات ولابسين روبات طايره ف الهوا ، وكوفيات طويلة طويلة صبغتها زاهية وعلى كل لون . كنت بافكر ف الحرب الأهلية بتاعت انجلترا وازاى كامبريدج نصرت كورمويل ـ والجمهوريين بينما اكسفورد نصرت شارل الأول والملكين . فكرت ف البرولوج بتع « ابراهام لنكولن » بتاع مستر درنك وتر . مستر ديفيز كمان فكرت فيه ومستر حسنين وتذكرة الرجوع اللى ضاعت منى ف اللوكاندة والكلام اللى ها أقوله لمكتب البعثات ولباميلا . كل دا فكرت فيه ف القطر . لكن من الحاجات اللى شفتها

ماكانش عندى شك انى كنت على حافة اختبار غامض كبير يمكن يتناول حياتى كلها بالتغيير .

خلى الاختبار الغامض على جنب دلوقت ، وخلينا ف الأمور الى قدر تفهمها من بعيد . أنا حتى دلوقت مش عارف أكتب بأنهى أسلوب . إذا قلت لك دخلت متحف فنزويلم ولقيت كيت وكيت أبقى زى الرحالة محمد ثابت ويبقى أحسن لك ميت مرة أنك تقرأ الكتاب الأزرق بتاع السواح . وان قلت الحقيقة اللى في قلبى هاسمعك دق النواقيس وأرسم لك الأبراج اللى سكنت صدرى وملته بالأحلام . وبعدها تقول الأحلام أحلامك واحنا هنا راضيين . اهتم بالتعبير . اهتم بالتأثير، اهتم بالرمز والايحاء مش عارف أعمل ايه أهى دى خواطر بتجول ف رأسى وباحسسها ف الألفاظ.

كامبريدج أول ماشفتها من بعيد هى كامبريدج زى ما أنا شايفها دلوقت من بعيد مش ف التفاصيل لكن ف الجو والابعاد والظل والألوان . بينى وبينها بحرين لكن لسه فاكر التلج اللى قعد فيها تلات سنين والصحو اللى قعد فيها تلات سنين ، والكنايس اللى ماغيرتش كانها سنين وسنين . القلب مايعرفش مأساة الفصول ولا الروتين بتاع الهدم والبنا ف الكون . كنت أمشى ورا

الكليات وأغرز جزمتي لحد الشراب ف أرض يناير البيضا وأسيب ورايا أثر محفور طويل زى نص المسافة م هنا للأفق وأشوف الصنوبر بعد الصنوبر وكل شوية شجرة دار كلهم طارحين ورق أبيض ماعكروش حتى خيال الغيم . وأكتب ف عقلى جواب لمستر فرنس أشرح فيه له الحاجات اللى شافها كيتس ف هامستيد هيث شفتها أنا عند باب مكتبة الجامعة . وأفكر ف نيتى دقيقتين وف الماضى وف الأمل أبص ألاقى أوراق قلبى اللى كانت بتقع واحدة واحدة ع التلج الناصع أخضرت وثبتت فيها براعم الحبوالحياة ، وأبقى عامل زى الروضة ويشع الرضا والحنان على الطبيعة المسجاة ف التلج المغزول ، أحس أن أنا الحى اللى بيوهب غيره الحياة وتحت عينى ألاقى معانى الشر والموت والقسوة والوحدة اللى بتتصاعد من الغيطان الجرداء ألاقيها تتحول أحيانا تابلوهات حقيقية ونسب وألوان ف انتظار الشاعر والرسام ، وأحيانا تتحول الأرض وما عليها لكنيسة معلقة وديعة مليانة بتفاؤل بتصلى وأجرام السماء لاهية واسمع لجرس البرد بيرتل « أوندى فرويده » تسبيحة المعرفة الكاملة والامتنان .

لا . القلب مالوش دعوى بالفصول .

أدخل كنيسة الملك يوم عيد ميلاد المسيح ، مش عشان أصلى لكن عشان أدرس العمارة القوطية بتاعت البنيان . أقف مؤدب مع

الواقفين وعيني دايره تجول . أتأمل السقف المسنود على بواكى مكسورة أساسها جي من بره وما أشوفش غير نقط اتصالها من جوه ابتدى اتهز . أشوف الكنيسة طويلة قوى وعاليه قوى تملانى الرهبة . ولو كان السقف سانداه عواميد كان بدالى سقف معبد وثنى بتاع الله خلقه ضيق ويحب الانتقام ، لكن الفراغ الكامل بين الست حيطان والأطوال اللى مش معقولة أكدوا ف نفسى الخشوع . « حسيت » ازاى الفن القوطى العمودى فن مسيحى وأتأملت علاقة الفن بالحياة . مين يقدر يصلى للمسيح ويعبد ربنا ع الفكرة المسيحية ف البارثنون الجميل المشرق بين الأعمدة الكورنتية والخطوط الواضحة المتساوية المتوازية والا ف كنيسة المادلين بتاعت باريس ؟ دى معابد توحى بالمعقولية والتأمل الواضح والاتزان ودى مش روح المسيح . روح المسيح موجودة فى الحب اللى احنا بنكره بعض عشان ننشره وف السلام اللى احنا بنقتل بعض عشان نوطد أركانه وف التجرد وف عذاب الجسم وهو بيدمى تحت سياط الارادة عشان يدبل وتتحد هيه بالوجود . دى مثل عالية عالية زى السقف العالى اللى كله اقباء مش كاملة . وف وسط ما أنا با أسمع صوت الارغن الغليظ اللى حرك ف نفسى الخوف بالتدريج واسمع كوراس الاطفال بيرد عليه فى نفس واحد،

أصوات ، ناعمة صافية زى الاجراس الفضية ، أهدابى وقعت ع القزاز الملون ف الشبابيك والضوء المكبوت اللى جى من بره خلى كل واحد موجود ف النور المخنوق اللى جوه يشوف صور القديسين والقديسات منقوشة بالأحمر والأزرق والأصفر والأخضر وشبابيك الكنيسة من غير انسجام .

الفن القوطى جسد لى آلام المسيح .

وطلعت من الكنيسة لقيت كفن التلج منشور على وش البسيطة . وكفن التلج جسد لى آلام الطبيعة .

ومشيت شوية وبصيت ورايا لقيت الكنيسة من بره بأبراجها الخرافية الكثيرة المصفوفة ع الجنبين مش زى الحلوفة المقلوبة زى ما وصفها راسكين . لقيت الابراج زى الافكار القديمة القاتمة الكثيرة اللى لسه ما أخدتش شكل ولا هيئة . والأبراج الخرافية جسدت لى آلام الفنان ..

فيه حاجات كتيره ف كامبريدج تخليها قرية من القرى الوسطى . أقرأ شعر توماس جراى تلاقى فيه أوصاف كتيره تنطبق على كامبريدج . لكن اللى أهم من دا انك منين ماتروح فى البلد تلاقى صحايف التاريخ زى مابيسموها مبسوطة قدام عنيك وشواهد البطولة بارزة ف كل مكان . دى كلية مبنية ف القرن

الرابع عشر ودول ف الخامس عشر ودول ف عصر أسرة تيدور وهكذا . تدخل كلية ترينيتي تلاقى مربع ورا مربع ، وتلاقى بواكى قديمة حوالين المربع وأرضية إذا مشيت عليها ترن ويرجع لك الصدى من عمرها القديم . يقولوا لك . هنا نيوتن بان يقف ف طرف تربيعة ويضرب الأرض برجله ويقيس المدة بين الصوت والصدى . نيوتن السرحان اللى أستاذه حسبه غبى وقال له روح لأمك ياشاطر اكتشف الجاذبية ورجع استاذ ف كليته اللى اتبرأت منه . وقبل ما تخرج من الباب تلاقى كنيسة ع الشمال . تخش الكنيسة تلاقى نيوتن نفسه مصبوب ف رخام . تبص له زى ما كان ورد زورت بيبص له آدى ميه وخمسين سنة من شباك أودته ف كلية سانت جون .

وتلاقى لورد تنيسون قاعد جنبه من ناحية ملبسينه صندل رومانى وتوينكا رومانية ودقنه الغزيرة بتقطر شعر ومعانى وتلاقى مكسويل وهيوليت قاعدين جنبه من الناحية التانية ف تواضع شديد . دخلت كلية سانت جون لقيت واحد صاحبى ساكن ف نفس الاودة اللى كان ساكن فيها ورد زورث . ياريتنى كنت محله .. تخش لجوه شوية تلاقى قنطرة مبنية ومسقوفة على شكل قوص تعدى عليها للتلت الورانى من الكلية أو تقف عليها تشوف نهر

الكام ينساب تحتها زي الترعة الابراهيمية . دى قنطرة التنهدات بيسموها ، وان سالت بيسموها كده ليه يحكولك أسطورة جميلة عن لورد كان تلميذ ف سانت جون وحب واحدة متجوزة أو من العوام مش فاكر حب عنيف من يأسهم كانوا يتقابلوا ع الكوبرى دا ويتنهدوا على غرامهم العقيم . الحكاية أصلها بكل بساطة ان قنطرة التنهدات بتاعت كامبريدج اتبنت على نمط البونشى دى سوسبيرى ، يعنى قنطرة التنهدات بتاعت البندقية ، قام أخدت اسمها . أول مارحت جديد الاسم جذبنى لدرجة انى كنت أروح هناك كل يوم وأتنهد ، مش على غرام ضايع لكن ع الحاضر اللى هايبقى ماضى والنعمة اللى ها اطلع منها بعد أربع سنين . ياما كنت أقف على قنطرة التنهدات وأسيب بصرى يجمع صور النهر الملفلف والكبارى اللى محنية عليه كنت أتأمل وأتأمل ف كوبرى كلية قلير عشان بس اكتشف ليه أصحابى الانجليز كانوا هايتجننوا بيه ، مافيش فايدة . وف سرى كنت ألعن كريستوفون اللى بنى كاتدرائية سانت بول قام الناس بتشوفها معكوسة ف بقية أثاره وكباريه ، اللى يسوى منها واللى مايسواش ولما تطلع زهرة الكروتاس كنت أقف على قنطرة التنهدات وأتفرج ع التلامذة ف القوارب عريانين بيزقوا المدرة والبنات بتوعهم راقدين فيها

مسلطحين بيقروا رواية أو بيحملوا باللى هايعملوه لما النهر يرميهم بره البلد خالص عند مرابط العشاق . أشوف كدا واتحسر ع النيل وخيمة الحداد المضروبة عليه ف الشتا وف الصيف .

أروح حته يقولوا لى دى شجرة التوت بتاعت متلون ، إمشى بحذا الكام يمة كلا يهايذ يقولوا أنت ماشى ف سكة ملتون و. أ. ا . هاوسمان اللى اتفسحوا فيها ونظموا القريض . أوصل كلايهايد آلاف البر المشهور اللى فات عليه جون جلبن اللى ف قصيدة وليم كوبر ، أخش أشرب لى شوبين بيره للذكرى واطلع أدفع بنس ضريبة مخصوص عشان أمشى ع الكوبرى اللى نط من عليه جون جلبن بحصانة عشان مايدفعش البنس اللى أنا دفعته ، أقوم أشيل ف جيبى التذكرة الزرقا اللى الحارس عطاها لى مقابل البنس واحتفظ بيها لحد دلوقت . كل دى تفاصيل يمكن مالهاش معنى عندك ، إنما عندى أنا هى مادة الماضى . أمشى بحذا الكام ف الاتجاه المضاد لحد جوانشستر آلاقى بركة بيرون وبيت روبرت جروب والناس يدلونى ع المكان اللى كانت فيه طاحونة شوسر وأفتكر روايته القبيحة « حكايات كانتربرى » اللى تلامذة كامبريدج الأشقياء كانوا بيرحوا بالليل يناموا مع مراة الطحان ويرجعوا قبل وش الفجر يتسللوا ف كلياتهم . الكلام ده خد بالك كان ف القرن

الرابع عشر . امشى ف الشارع اللى بيغير اسمه كل خطوتين اسمع حيطان الكليات قاعدة تهمس وتكايد بعض :

بيتر هاوس : أنا أقدم كلية . أنا طلعت الشاعر جراى .

كلية كوريوس : أنا طلعت سبنسر ودرايدن .

كلية كنجز : أنا أشطر كلية . أنا أخت ايتون . أنا طلعت ادموند وللروبرت والبول وأ . أ . هاوسمان . أنا عندى أحسن أساتذة الآداب والاقتصاد .

كلية ترينتى : أنا أشرف كلية .. أنا طلعت نيوتن وماكولى وتنيسون وماكسويل وترمسون وفريزر . أنا عندى مخطوطات ملتون وتنسيون .

كلية سان جون : أنا أذكى كلية . أنا طلعت ورد زورث وبيرون. أنا عندى أحسن أساتذة ف الرياضة .

كلية مودلين : أنا أغنى كلية . أنا طلعت دكتور ريتشاردز وأوجدين ووليم امبسون .

كلية جيزاس : أنا زشطر كلية ف الألعاب . أنا دايما أكسب سباق القوارب .

كلية كرايستس : أنا طلعت ملتون وداروين ودا كفاية علىَّ .

إذا كنت عاوز لسته أوفى من دى شوف كتاب لاوجستين بيريل

اسمه « أوبيتردیکتا » . أهو طول ما أنت ماشى لازم فيه حاجة عاوزة تقول لك حاجة . بس اللى عنده ودن يسمع . أنا باكتب الكلام دا جنب القلعة لزق . فيه جنب القلعة لزق درب اسمه درب اللبانة ساكنين فيه شوية فنانين أو على الأصح فاتحين فيه ستوديوهات . وكل ما أرفع عينى وأنا ف ستوديو رمسيس يونان ألاقى القبة الكبيرة بتاع جامع ما أعرفش اسمه عليها نقوشات زى نقوشات اللى على أكتاف القواصين بتوع السفارات والحجاب المهيمن . وتحت القبة مخطوطات على شكل البنور اللى لما تبص فيه للشمس تشوف ألوان الطيف بس دول بقى مخطوطين ف الحجر ، الفنانين ف كل الدنيا زى بعض ، يدوروا على أقدم حتة ف البلد يسكنوا فيها والحاجة ماتبقاش « بيتوريسك » عندهم إلا إذا كانت مهدمة أو لحسها الزمن . أنا كمان عشان مصاحب فنانين با أعمل زيهم . الماضى هو البرج العاجى اللى الفنان يهرب له كل ما يقرف من الحاضر ، مش لأن الماضى فعلا جميل أو خالى من الأحزان لكن لأن البعد بيطمس البشاعة ويزيد الغموض والنفس الشاعرة تحب الغموض أن الغموض بيكتر المعانى . شوف الذاكرة بتشتغل ازاى تفهم الفنان .. من طبيعة الذاكرة انها تنسى بسرعة ساعات الألم وتفتكر الاختبار الجميل . عشان كدا

احنا بنتحمل الحياة . لو كان الانسان بيفتكر بوضوح المواقف العصبية اللى مالهاش عدد ف حياته كان كل واحد انتحر . والحياة عدو الموت ، واحنا أحياء . دا عن الماضي . أما عن المستقبل فحكمه حكم القاضى . إذا كان الانسان بيشوف بوضوح المتاعب المكتوبة ف سفر الغيوب برضه كان كل واحد انتحر . هو الوتر الأخير ف القيثارة اللى ف صورة واطس عن « الأمل » ، هو اللى بتسمعه ، وطول ما بنسمعه أدحنا عايشين . واللى مابتسمعوش بالنسبة لنا مش موجود . والرحمة للناس اللى سامعين انهم مش سامعين بقية الأوتار ،والويل للناس اللى عارفين انها انقطعت من زمان . كل واحد فينا بيحن للماضى ، وعشان كدا تلاقى كل واحد فينا على رأى هوراس .

يعنى يقول لك « الجيل دا فسدان . دا احنا ف أيامنا كنا بنعمل ونعمل » دا منطق الخيال مش منطق العقل والفنان اللى خياله شديد زى روسو اخترع أن فجر الانسانية كان عصر ذهبى كله حلاوة ونور بعبارة ماثيو ارنولد ، واخترع أسطورة أن الانسان الأول كان « همجي نبيل » .. التمرد ع الحاضر والحنين للماضى مافيش شك انهم أحيانا معقولين لهم فايدة لكن ف أحوال كتيرة بيبقى مالهمش مناسبة ومجرد عاطفة شعرية أنا أفضل التمرد ع الحاضر والأمل ف المستقبل .

كل واحد متضايق من عصره ، وبيقول انه عصر مادى وحش وان العصور اللى سبقته كانت أحسن منه . واللى يسأل أى واحد عايش دلوقتى برضه يقول نفس الكلام . التشاؤم قديم من أيام إمباذ وقليس والمسيح . دا يوريلك ازاى الحكم دا حكم عاطفى . اللى حاصل هو أن الروح الحساسة بتكون تعبانة ف كل عصر لأن فيها بذرة نظام مش موجود ولازم يتوجد . والماضى دايما بيسحر الأرواح المتمردة لأنه ملفوف ف هالة من السكون البعيد وغموض اللى يملاه بالمعانى . على العموم مجرد أن تفاصيله المؤلمة مش معروفة دا كفاية يديله مسحة جمال .

كامبريدج دلوقتى لأن حواليها هالة غموض ، لأنها باينة لى على البعد زى قرية قديمة داكنة منسية فيها أجراس ، لأن شايف الاقباء بتاعت كلية ترينتى ساكنة ومهجورة وسير جيمس فريزر بيديها نظرة وداع زى ما تقول صورة « الغزلة » بتاعت جورجيو كيركو . دى كامبريدج صحيح لكن مش كل كامبريدج .. الأجراس نفسها اللى بتناديني دلوقت من ورا البحور كانت يوم من الأيام بتقلق مزاجى ، لا تيجى كلها ف مناسبة واحدة تضرب مرة واحدة، تضرب على طول ، تضرب ف كل مكان ، ومافيش عنها نجاه .. وأمواج الكام الصغير اللى دلوقتى بتغنى ف ودنى هللويا

كانت أحيانا بتقفل نفسى عن الوجود ، نفسى اللى عايزه موج المحيط واللاحدود . ولجمال المتجدد دا . ان كان ف الطبيعة أو ف العمارة أو ف صحبة الأحياء أو ف الحلم بالماضى ، الجمال دا ياما انطمس قدامى وأنا هناك . مش انطمس صحيح لكن خلص بعد تلات سنين زى ما تقول راجل عرف كل خط وكل قوس وكل نسبة ف جسم مراته قام رمى تويه على كتفه وخرج يدور على خطوط جديدة . البطر . لولا البطر ما كناش نبقى بنى آدمين . دا احساس بودلير واحساسى أنا كمان . كل الحجات دى اللى جابت لى الملل وقتها هايجى . خلينا شوية مع بعض ف الجمال المنسوخ والجمال البعيد والصورة اللى مش عارف هاتبقى مادة تانى ولا لأ .. خلينا واقفين تحت الشلال مبلولين بنبص للكام الدافق ونسمع السحب بتتمزق ونخاف زى الانسان الأول ونعمل شعر .

وف نهاية الأسبوع ناخد غدانا ونمشى لحد كاتدرائية ايلى ونتمشى ف دهاليزها النورماندية ونفتكر الفرسان والأساقفة ومعارك النبال وتاريخ الصليب .

حتى البنات اللى مخهم مافهوش فكرة واحدة مهمة وريحتهم سمك وبطاطس اللى قابلناهم ف مرقص الرانديفو ورقصنا معاهم

تلات سنين وماكلفوناش حتى تمن عشوة نضيفة ، دول باينين ع البعد زى سمك ف تيار الحياة الحقيقى ، وريحتهم مش أوحش من زيوت الشعر اللى ف خصل أسيادهم ، ومخهم مافهوش فكرة واحدة مش مهمة مخنا ، احنا اللى خرجنا من تيار الحياة وقعدنا ع الشط بشبك مقطوع .

عـروس الآلـــة

المؤدب بتاع كلية الملك ، مستر رونالد بيفس ، كان ف الجناح بتاعه ف الكلية ساعة مادخلت يوم ٤ ديسمبر ١٩٣٧ . سمين شوية وله كرش ملحوظ والواحة عريضة وبيدرس أدب فرنساوى أنا عمر ما حضرت له محاضرة لكن من المحادثات الكتيرة القصيرة معاه عرفت بعدين انه بيفهم ف شغله كويس . على العموم كان فيه حاجة واحدة على الأقل مشتركة بينه وبين الفرنساويين .. صفة المرح . كان شخص مرح وسمين ومليان عطف أدبى . سألنى عن دخلى الشهرى وظروفى عشان يعرف أنا أقدر أسكن بكام وعطانى عنوان بيت أسكن فيه طول أجازة الكريسماس وعنوان بيت تانى أسكنه من يناير على طول أن حبيت . قلت له :

ـ الاستاذ بتاعى ف مصر ، مستر فيرنس ، قال لى انه أحسن لى أن أسكن ف الكلية لو أمكن .

الرجل فكر شوية وبعدين قال بكل بساطة .

ـ مادام كدا ، أنا ها حاول ف المستقبل ، يعنى بعدين قوى أشوف لك أوده جوه المكلية . دا ضد السياسة بتاعتنا لكن مادام المستر فيرنس شايف كدا أنا ها اجتهد .

خفت شوية من كلمته . يعنى ضد السياسة بتاعتنا ؟ خطر لى انه عشان أنا مصرى يقوموا يسكنونى فى بيت بره الكلية . الواحد لما يكون أجنبى ف بلد يبقى راسه مليانة شكوك . ولما يكون مصرى ف انجلترا بتبقى الشكوك ماليه كل تصرفاته ولما يكون مصرى غامق زى حالاتى يبقى طول الوقت ماشى مرجوف . قصدى المدة الأولانية طبعا . يعنى طول ما هو حاسس انه دخيل . بلعت ريقى وسألته .

ـ انتو سياستكو ماتسكنوش « أجانب » جوه الكلية ؟

مستر بيفيز ماضحكش قام رجفنى زيادة ، وكانت ثوانى قليلة عرقت فيها تمام وأنا منتظر الرد الرهيب « أيوه » والاعتذار الشكلى اللى بيجى عادة بعدها عشان يخفف الصدمة فتح بقه وقال :

ـ لأ ، احنا عادة بنحجز أود الكلية للتلامذة اللى جايين من ثانوى جديد عشان دول سنهم صغير وعاوزين رقابة أكتر .. أما التلامذة اللى متخرجين وقاعدين للبحث فدول بنسكنهم ف بيوت خاصة زى البيوت اللى أنت هاتسكن فيها .. على فكرة خد أدى نسخة من قانون الكلية وأدى نسخة من قانون الجامعة أقرأهم كويس قوى من فضلك وحاول أنك ماتكسرش اللوايح ..

أخدت الكتابين وحصل ف قلبي رعبه . برضه الناس دول مش بطالين زي ما كنت فاكر ..

ـ أنا انبسطت خالص اللى عرفتك ياعوض .. إذا كنت تحتاج لأي حاجة بس تعال لي . أنا هنا من خمسة لسبعة كل يوم الا يوم الحد .. مع السلامة .. وابقى تاني مرة ابقى تعال لابس الروب ومعاك الكاب ..

ـ جود باى سير .

من كتر ما أنا مستعجل على قراية اللوايح مشيت اقرأ فى السكة واتهيأ لى أن الكتب اللى في ايدى دي مفتاح الوجود الجديد .. حتى بدل ما أروح أدور ع البيت اللى ها أنام فيه رحت قهوة قدام الكلية لطع عشان ادرس اللوايح لقيت نفسي قدام عدة كبيرة غريبة جديدة على قديمة ف عمرها .. وابتديت أفك تروسها وامتحنها واحد واحد ..

عرفت اننى لازم اطلع من القهوة اشترى لى روب مخصوص وكاب ، وان ما ادخلش من غيرهم ع المؤدب أوالعميد أو الأستاذ المشرف على أو أى واحد له صفة رسمية أو المحاضرة أو مكتبة الجامعة أو كنيسة الكلية .. عرفت انى لازم ألبسهم ف الشارع وف القهوة وفى كل حتة أول الشمس ماتغيب وانى إذا

مالبستهمش وانظبطت ادفع غرامة كل مرة حوالى تلاتاشر شلن عن الروب وتلاتاشر عن الكاب . (التلامذة اللى مش متخرجين يدفعوا نص المبلغ دا) . كمان عرفت أن كل كلية ليها بيوت مرخصة يسكنوا فيها التلامذة اللى مافيش محل ليهم ف الكلية وان البيوت دى خاضعة لكل القوانين بتاعت الكلية ، وانى لازم أسكن في بيت مرخص وما أطلعش من بيتي بعد عشرة مساء وما أرجعلوش بعد نص الليل وما أدخلش واحد صاحبى ف بيتى بعد عشرة وما اسمحلوش يقعد بعد اتناشر وما اخليش واحدة صاحبتى ف بيتى بعد عشرة - إلا طبعا إذا الواحد اخذ تصريح من المؤدب ، والمؤدب مابيديش تصريحات علولا ، لازم يكون فيه سبب معقول .. كمان عرفت ان صاحبة البيت لازم تقفل الباب الساعة عشرة بالدقيقة وكل دقيقة اتأخرها بره بعد كدا لازم تبعتها ف كشف أسبوعي للمؤدب وف الكشف ملاحظات انى دخلت بلبس الجامعة ولا من غير لبس الجامعة .. كمان قريت ف التعليمات ان التلامذة لازم يباتوا ف كامبريدج تلات فصول ف السنة وكل فصل تمان أسابيع ومايسيبوش البلد الا باذن من المؤدب وان نسيوا يمضوا اسمهم في الكلية لما يبتدى الفصل الدراسى يضيع عليهم الفصل كله . غير كدا كل واحد لازم يتعشى

ست مرات ف الأسبوع مع بقية التلامذة ف صالة كليته ، ولازم يختار له أستاذ يشرف عليه فى الدروس ولازم يسيب البلد مدة الاجازات مادام ماعندوش ترخيص بالقعاد ولازم يحلف انه يحترم قوانين الجامعة ولازم مايروحش البارات الممنوعة ولازم يدور المؤدب بتاعه أول مايجى من الاجازة عشان يسلم عليه ولما يجى نازل الاجازة لازم كمان يزوره عشان يقول له مع السلامة .. الواحد كمان لازم يحى المفتشين بتوع الجامعة اللى بيزبطوا التلامذة اذا قابلهم ف الشارع ولازم وهاقول لك ايه وأسيب لك ايه .. سلسلة ماتنتهيش من القيود ..

ودا مش كل حاجة .. بعدما قعدت مدة كافية عرفت أن القيود نفسها نوعين .. نوع مكتوب زى اللى قلت لك عليه ونوع محفوظ ومتوارث بالتقاليد .. وقع ف ايدى كتاب .. مش رسمى طبعا ، اسمه « ماتعملش » كله نصايح للتلامذة الجداد على الحاجات اللى مش لازم يعملوها .. كتاب يضحك صحيح .. مثلا يقول لك ماتبصبص لبنت صاحبة البيت اللى أنت فيه انما بصبص لبنت الجيران ..

أو ماتسرقش بسكليتات التلامذة الفلانيين واسرق بسكليتات التلامذة الفلانيين ..

وف وسط ما أنا بأقلب اللوايح الرسمية لقيت حكاية ألطف من دا كله .. لقيت بند بيقول انه لا يجوز لغير المتخرجين أنهم يلعبوا بلي على سلالم ادارة الجامعة .. طبعا اللى يعرف الانجليز كويس يعرف أن المسألة لازم كان ليها مناسبة فى تاريخ الجامعة بعد كدا عرفت أن الدستور الانجليزى يبيح لملك انجلترا أنه يبيع الأسطول الانجليـزى ويسـرح الجـيش وانه يفتح كل السـجـون ويطلـع كل المساجين ويتصرف ف مقاطعة ويلز زى ماهو عاوز يديها لواحد أو يبيعها على كيفه لأنها ملكه الشخصى . لكن مابسمحلوش يدخن سيجارة ف الحفلات الرسمية .. بعد كدا عرفت أن ملك الانجليز لازم يحلف ف اليـمين انه يضطهـد الكاثوليك ويدبحـهم منين مايروحوا .. بعد كدا عرفت أن مافيش نقابة غير نقابة الصياغ ف لندن ليها الحق انها تعوم بط ف نهر التيمس .. بعد كدا عرفت أن رئيس الوزارة ف انجلترا ما اعترفوش بيه رسمى واعطوا له مرتب الا سنة ١٩٣٧ .. بعد كدا عرفت أن الشعب اللى أنا عايش ف وسطه شعب معقد عايز مدة طويلة وانتباه شديد عشان الواحد يفهمه .. ويوم مافهمته بطلت بلى على سلالم ادارة الجامعة ..

طلعت من القهوة على ترزى اشترى عدة الشغل ، لقيت المسألة مش بسيطة زى ما كنت با اتصور فهمت فيه أنواع كتيره من

الرويات ، الطويل والقصير وابو شرايط زى الشاويشية وابو شراريب والمكشكش من ورا والأحمر وابو درعات مقفولة وابو دراعات مفتوحة ، اضربت أقول للترزى ..

ـ طب استنى لما اسأل المؤدب وارجع لك ..

ـ أنا أعرف كل حاجة ، بس أنت قول لى إنت ايه ..

حكيت له كل حاجة عن كليتي والدرجة بتاعتى والدرجة اللى با اشتغل لها ، قام بسرعة دخل وجاب لى اللبس المناسب .. وقبل ما ياخد الفلوس قال لى ..

ـ مش لازم لك كوفية ياسيدى ؟

ـ كوفية بتاعت ايه ..

ـ هنا كل كلية ليها ألوان مخصوصة وفيه كوفيات عليها ألوان الكليات دى مثلا كوفية كليتك .

وراح ساحب لك كوفية مقلمة أبيض على بنفسجي طولها متر ونص بالضبط أول ماشفتها فرحت ..

ـ ودي تطلع بكام ؟

ـ سبعة شلن وستة بنس .

يابلاش .. يعنى أول ما أطلع من عند الترزى ها أبقى زيى زى الأولاد اللى شفتهم راكبين بسكليتات وكوفياتهم طايره ف الهوا

بعد كدا عرفت ان فيه ألف حاجة كمان عليها الوان الكلية وشارة الكلية من علبة السجاير الجلد لورق أموابات لزراير القمصان لجا كتاب الصيف .. حمى الشرا راحت وابتديت أفكر بعقل ..

الست اللى سكنت عندها الأول ـ مسز ميرسر ـ ف شارع نيونان ، كانت وليه طيبة وشكلها وحش وطولى مرة ونص . جوزها كان أعمى وكان طول النهار بيشتغل ف الورق البارز دا بتاع كتب العميان ، وفهمت منها انه بيكسب كتير من الشغلة دى لانه بينقل كتب للناس المساكين اللى زيه . لما مسز ميرسر عرفت انى مصرى انبسطت قوى وقالت لى انها عاشت مدة طويلة ف مصر هى وجوزها أيام ما هو كان سايس ف جيش الاحتلال وهيه كانت وصيفة عند مرات واحد من القواد ..

الراجل كان يجى عندى الاودة كتير ويدردش عن مصر سنة ١٩ . وصف لى الثورة والتلامذة والاغتيالات وقال لى انه عمى بسبب ضربه ف مظاهرة من المظاهرات . ف الواقع ماعرفش أحدد شعورى ازاى . بالتأكيد أنا تألمت له شوية .. طيب وأهلى اللى قتلهم ؟ وازاى أقبل أسكن عند واحد كان يوم من الأيام يركع ف الشوارع ورا كسين رمل ويفتح المترليوز على أهل بلدى ويحصدهم بالميات .. طبعا هوه مالوش ذنب لأنه بينفذ أوامر ، ولو

كانوا قالوا له أمسك كل مصرى تقابله ف السكة وبوسه ع الخدين كان برضه عمل كدا .. الحقيقة امتعضت من المؤدب بتاعى لانه عارف كل حاجة ومع ذلك بعتنى عنده ، لكن مافكرتش كتير ف الموضوع وقلت غالبا مصادفة أو اضطرار أو ما يعرفش أو الراجل نسى ..

كان ليهم بنت اسمها جون لسه بتروح المدرسة ، تديها تمنتاشر سنة وهو اربعتاشر .. نويه جون اخدتنى تفرجنى ع البلد، لكن ياريتها ما اخدتنى .. كانت تقف كل خطوة والتانية تقول :

ـ دى كلية كذا .. ودى كلية كذا .. انتو عندكو فى مصر كليات.. ؟

- أيوه ياجون..

نمشى شوية نلاقى جنينة..

- انتو عندكو ف مصر جناين؟

- ايوه ياجون..

نمشى شوية ويفوت الاتوبيس تقول:

- انتو عندكو ف مصر اتوبيسات..

- ايوه ياجون..

وشي احمر من الزعل والكسوف، لكن كتمت شعوري صاحبتنا فاكره احنا ايه؟ متوحشين..

فتنا على عامود نور وفعلا قالتها.

- انتو عندكو ف مصر عواميد نور؟

ما احتملتش.. قلت ف منتهى الحدة:

- طبعا عندنا.. انتى فاكره احنا ايه؟ حيوانات؟ أنا لازم اشكيكى لابوكى.. يللا رجعينى البيت..

أنا متاسفة قوى، أنا بس باسال. أنا أعرف أن مصر صحرا وفيها بدو. مافيش فايدة انها تعتذر.. أنا لازم اشتكيها.. اتارى فيه ناس كتير ف انجلترا فكرتهم عن مصر انها صحرا واسعة سخنة ومغروز ف وسطها هرم وكام نخلة.. بقى دا الشعب اللى بيحكم العالم، بقى فيه فلاح عندنا مهما كان أمى يغلط الغلطة دى من الافرنج أو الهنود؟

واحنا بناخد شاى أبوها قال:

- ماتاخدش عليها يا مستر عوض، دى لسة عندها أربعتاشر سنة.

مسكينة جون. لازم أبوها ويخها. أنا ندمان دلوقت اللى عملت الدوشة دى كلها.. بعد كدا عرفت أنه مش بس البنات اللى عمرهم

أربعتاشر سنة بيغلطوا الغلطة دى لكن كمان تلامذة الجامعة اللى عمرهم تمنتاشر سنة وعشرين ومتعلمين وولاد ناس. مرة مثلا كان مستر برين ديفيز رئيس قسم اللغة الانجليزية الحالى ف كلية الآداب بعت لى جواب أنى أروح اتعرف بواحد صاحبه أستاذ ف جامعة كامبريدج اسمه جليم ديفيز بيدرس لغات كليته. رحت له يوم حد لقيت العيلة كلها ملمومة ع الشاى وترحيب كتير من النوع اللى يستتى دين ف رقبتك طول ما أنت عايش لكن بروفسور جليم ديفيز دا كان له ابن طالب ف كلية سان جون بيدرس علم حياة.. الشاب دا طول الوقت قعد يسألنى أسئلة مربكة ف منتهى السخافة لحد ما أبوه سكته. من ضمن الحاجات اللى قالها:

– انتو ف مصر بتستحموا باللبن؟

ما أعرفش ايه اللى عطا له الفكرة الغريبة دى.. لو كنت عارف أنه بيكلم عن البشاوات بتوعنا كنت قلت له.. وبناكل ذهب وبنشرب دموع المساكين كمان.. لكن أنا كنت عارف أنه بيتكلم جد..

قام رديت..

- ياريت..

- انتو ف مصر بتقعدوا تحت النخل وبتفتحوا بقكوا والبلح يسقط فيها؟

- طبعا لأ..

لو كنت فاكر إنه بيكلم بالمجاز كنت قلت له «أيوه» لأن احنا ف مصر بنعمل حاجة زى دى تقريبا.. بنقعد تحت نخل الحكومة والماهيات بتسقط ف بقنا.. مابنطلعش بدرع ورمح عشان نخوض معترك الحياة وننتزع اللقمة من فم الأسد.. لكن بنرقد على حصيرة وسخة زى فقراء الهنود ونبعت الحمام يلم لنا أكلنا ونسيب الأجانب يعملوا لنا شغلنا. لكن أنا فاهم أنه بيكلم جد ف جد.. فهمت أن فيه ناس كتير ف انجلترا مايعرفوش عن مصر غير الكلام اللى قروه عنها ف التوراه....

على أى حال أنا زعلت لما سبت المسز ميرسر بعد كام أسبوع ما انتهاش ديسمبر سنة ١٩٢٧ ألا وأنا ساكن مستقر أربعة وعشرين قيراط عند مسز ويلكسون ف ١٣ جاردن ووك.. مستقر بدرجة أني عشت معاها تلات سنين ورا بعض ولولا أني كنت راجع مصر ماكنتش سبتها..

لقيت ١٢ جاردن ووك من بره زى كل البيوت اللى ف نفس الشارع من بره برضه واطى ومعمول من دورين ومبني بالطوب الأحمر اياه بس الزمن غمقه شوية وسقفه جمالونه، ليه زى العادة جنينة صغيرة من قدام محوطة بسور حديد واطى والدور الأرضى

كله من الخارج عبارة عن باب خشب وعلى يمينه شباك انجليزى واحد شاغل كل واجهة الاودة ومضلع وطبعا بارز لبره ومالوش شيش وعليه ستاير خفيفة.. دخلت البيت لقيت الدور الأرضى عبارة عن أودتين صغيرتين أوده ع الشارع بتاعتى وأوده من جوه بتاعت مسز ويلكسون تطل على جنينة البيت الأصلية الكبيرة من ورا. الاودتين كانوا أود جلوس ع الطريقة الانجليزية دخلت أودتى لقيت فيها طقم كراسى انجليزى.. فوتيلين وكنبه فى الحيطة اللى ف الوش على طول شفت الدفاية السودا، ويظهر أن صاحبة البيت كانت لسه بتنضف فيها..

وف الحيطة اللى جنب الباب على طول الكنبة كانت مسنودة والفوتولين واحد كان محطوط على يمين الدفاعية وواحد كان محشور فى ركن الاودة اللى على شمال الدفاية.. وبين الدفاية والكنبة كان فيه ترابيزة سفرة مربعة خشبها تقيل قوى وعليها مفرش مليان رسومات أزهار مش موجودة فى طبيعة، ومسنود ع الحيطة الشمال تلاقى البوفية خشب جوز فاتح بيلمع دوروين وفيه كان كرسى سفرة وعند الشباك كان فيه درج ينفتح لتحت بمفصلات عشان كتابة الجوابات.. وع الحيطان كان فيه شيالات كتب فاضية معلقة بمسامير.. تلات شيالات، واحدة على يمين

الدفاية وواحدة على شمالها وواحد تقريبا فوق الكنبة بالشكل دا الاودة باينه مكبوسة عفش يعنى لو حبيت تدخل فيها فوتيل كمان يبقى مستحيل، وبالنسبة لحجمها كان واضح أن مافيهاش شبه فراغ، بالأخص عشان السقف كان واطى الأرض كانت مكسية ببساط تقيل قوى قوى وبرضه ملون بأزهار حمرا كبيرة وبايخة وابوخ منها كانت الأزهار اللى مالهاش عدد اللى ف ورق الحيطان والازهار المطبوعة على كسوة الفوتيلات والازهار اللى كانت منقوشة ومشغولة باليد ع المخدات بتاعة الطقم الانجليزى، وأبوخ من الكل بقى صورة مدهد ألوانه زاهية معمول ع المصيص برواز مدور كان معلقا على يمين البوفيه وصورة تانية أدها بالضبط وشكلها بالضبط بس فيها صحبة زهور ومعلقة على شمال البوفيه.. يعنى أنا كنت عايش ف بستان غصب عنى.. ذوق العصر الفكتورى تمام ودى مش غريبة لأن مسز ويلكسون كان عمرها فوق الستين.. ف الأول - الألوان الزاهية هجمت على القرنية بتاعتى واشبعت الحواس بتاعتى زى الخرز الملون والأصداف مايترضى الحواس الفطرية بتاع الهمج.. لكن بعد ماعشت ف البيت ابتديت أكرهها. ولولا أنى بطبيعتى متساهل ومخى دايما مشغول كنت عزلت من البيت بس عشان الأثاث المجليط دا.. غير

عمرى مـاحسيت أن فيـه حـاجـة نقصـانى، كنت أطلع الدور الأول بسلم وألاقى ف وشى الحمام وأحود يمين على بسطة خشب طويلة شـويـة ألاقى باب أودة نوم مسـز ويلكسـون ع الشمـال وف الوش باب أودة النوم بتـاعـتى وألاقى الاودة برضـة تطل على الشـارع بشباكين صـغيرين مش مضلعين انما زى العادة بس طبعا ليهم قزاز بس ومالهوش شيش. كان فيه سرير كبير مودة قديمة ودولاب مـعـمول قـبل سنة ١٩٠٠ وشـيـفـونيير برخـامـة ودفـاية عمرهـا مـا اشـتغلت وكـان الله يحب المحسنين.. البيت قبل مـا انسى كان له جنينة طويلة قوى كنت أشوفها من أودة الحمـام وعمرى مـافكرت أنى استعملها..

قعدت تلات سنين ف البيت دا مـاعملتش أى تعديل فى الأثاث كل اللى عـملتـه أنى مليت شـيـالات الكتب كتب ولما أشـتريت كتب تانى خليت مسز ويلكسون تجيب لى شيالتين تانى حطيتهم على شمال الباب لطع وكانوا شوية بيعاكسوا المرور.. بعد كدا كنت كل ما اشترى كتب كنت أحطها فى الشيفونير والدولاب مع الهدوم.. دا كل التغيير اللى عملته.

من أول شـهـر ف كـامـبريدج ابتـديت اصطدم بالقـيـود وأحس بشـد النظام.. بقى أنا جاى من جامعة «زمنية» خالص.. حـرة

خالص، وعمر ماحد قال لى ف مصر أنت رايح فين أو بتعمل ايه.. طول عمرى ساكن لوحدى ومعاية مفتاحى أبات بره على كيفى، أجيب أصحابى يباتوا معاية على كيفى.. أذاكر ما أذاكرش مافيش على رقيب.. أبص بين يوم وليلة ألاقى نفسى مسلسل بالشكل دا.. ابتديت أفكر فى معنى القيود، وطلعت بنظرية ثورية من أول شهر.. اللى خلى التمرد ياخد شكل محسوس لأول مرة أنى كنت ماشى يوم اتفسح ف البلد يوم راس السنة أنا قابلت واحد صاحبى..

- فيه رقص ف قهوة الدوروثى الليلة الساعة اتنين.. أنت جاى؟

- لا ماعنديش خبر.. لكن أحب أجى..

- الساعة دلوقتى تمانية، وأنت ماتقدرش تقابل المؤدب بتاعك بعد العشا عشان تأخذ منه أذن بالسهر..

- طب وايه العمل؟

- زى بعضه. تعال وابقى روح قبل اتناشر.. أو إذا كانت صاحبة البيت لطيفة خليها ماتكتبش حاجة ف الكشف..

- طب خلاص أنا جاى.. الساعة ٨ أقدام الباب..

- لازم تغير بسرعة عشان مافيش وقت..

وصلت البيت ف ربع ساعة ولبست ف كمان ربع.. وبعدين خبطت على مسز ويلكسون.. حكيت لها الحكاية وطلبت منها المفتاح..

- ما أقدرش أديلك المفتاح.. ولازم اكتب التأخير..

- ليه؟ هوه حد ها يعرف؟

– أنا ماليش دعوة، أنا عندى لوايح بانفذها..

حصل أخد ورد. ف الأول منطق وملاينة وبعدين طلب عنيف وأصواتنا طلعت ف شكل كريشندو كامل لذيذ إذا كان واحد سامعه من خرق الباب.. ولما ظهر لى أن مافيش فايدة شتمتها.

- أنتى باين عليك تفكيرك ضيق..

- أنت مالكش حق تقول لى كدا.. أنا اشتكيك لمستر بيفس..

رحت ساحب الروب والكاب ورزعت الباب ورايا.. وف السكة كنت زى واحد بيقع ف الخطية جديد أكسر القانون والا ما اكسروش، يعنى أيه واحد زيى راشد يعاملوه معاملة عيال أنا طول عمرى رقيب على نفسى ومش محتاج لرقيب من بره.. لكن همه مالهم؟ دا نظامنا، عاجبك، مش عاجبك لم حاجاتك وامشى.

أنا كنت متأكد طول الوقت أن وجود القيد هوه اللى خلانى عاوز اكسره أنا طول عمرى عندى حرية لكن عمرى ما أسأت استعمالها صحيح. أنا مش عاوز أسهر بره لكن لما ييجى مستر بيفس أو أى قوة ع الأرض تقول لى ماتسهرش بره أعمل بالعامد واسهر.. دا مفتاح شخصيتى، وافتكر زنه فيه ناس كتير زيى..

أنا لازم أروح لمستر بيفس واطلب أنه يعفيني من كل القيود الصبيانية دى.. لازم..

رحت الرقص.. واتعرفت بناس وغلطت كان غلطة وف الآخر اتركنت ع البار وقعدت اشرب واتفرج ع الناس. الواقع حتى دا كان اختبار جديد بالنسبة لى.. قبل ما أروح انجلترا كان كل اللى أعرفه عن أفراح الأوروبيين أن كل راجل ياخد ست ويحضنها ويقعد يلف معاها حوالين الاودة ع المزيكة، ويسمي دا رقص.. مرة أو مرتين رحت صالات رقص ف ألفى بيه لكن ماكنتش فاهم حاجة عن حركات الرجلين المزيكة الجاز طبعا كانت تبسطنى لأنها سهلة وواضحة وحامية وأى حمار يفهمها لأن مافيهاش حاجة تتفهم. لكن الفكرة العامة اللى كانت عندى عن الرقص الافرنجى أنه أحسن من الرقص العربى ها أقول لك ليه أولا لأنى دايما متحامل على العوايد الشرقية ويهاجم كل حاجة عندنا بمناسبة ومن غير مناسبة، ثانيا لأنى كنت فاكر زى أغلب الشباب دلوقت أن الإنسان مايبقاش متمدن إلا إذا كان يعرف يرقص أفرنجى. طبعا أول ما وصلت لندن حاولت أتعلم رقص، لكن بعد درسين هربت وبقيت أتهم نفسى أن ودنى مش موسيقية وأن رجلى خيانة...

ليلتها رقصت مرة واحدة بس ولو كنت صحيح جنتلمان كنت أخدت عنوان البنت اللى رقصت معاها واشتريت لها جوز جزمة جـديد.. لكن الواحد لما يجى يدفع جنيه بينسى أحيانا واجبات الجنتلمان ويقول ف عقله ما هى غالطتها، وهى اللى خليتنى أرقص ومادام هي عاوزة تضحك شوية لازم كمان تدفع تمن الضحك.

الصالة كانت بتطفح بالنور والورق الملون ع الأرض وعلى كتفى وعلى صدور الناس التانيين، وف جزمتى طرطور والساعة بتقول حداشر والبق اللى بينفخ ف السكسافون متحمس والخمرة بتتألق ف كل العيون، أنا ماكانش عندى سبب شخصى واحد يخلينى انبسط فوق العادة لكن كنت مبسوط اللى كل الناس مبسوطين.. أنا نص السعادة اللى با أشوفها من النوع دا با استمدها من قلوب الغير، سعادة موضوعية هادية، فات ف راسى المؤدب وصاحبة البيت. أخاف من المؤدب ولا استقبل السنة الجديدة؟ الساعة اتناشر هايطفوا النور واسمع التلامذة والبقالين وموظفين البنوك والهاملات وسيدات الأسر بيغنوا قصيدة روبرت بيرنز وبيبوسوا بعض ف الضلمة وأنا لوحدى ماليش اشرب نخب أول واحد اكتشف السرور. والساعة اتناشر دقيت قلبى بالفالز

المشـهور اللي بينقط حنان وهمـهـمت مع الكوارس بصـوت جـوه راسي عملته وماسمعتوش.

تاني اليوم المغرب كنت عند المؤدب.

- مستر بيفس، أنا عاوز اسكن في بيت مرخص.

- ليه، حصل حاجة؟

- البارح اتخانقت مع مسز ويلكسون. كنت عاوز أسهر وطلبت منها المفتاح مارضيتش، شتمتها.

- هي ليها حق. هي كانت بتنفذ القانون.

- دي خايفة ع الترخيص مش خايفة ع القانون.

- لأ.. هي بتنفذ القانون.

لأ.. هي خايفة ع الرخصة..

- اسمع الكلام دا مش هايوصل لنتيجة. إذا كنت عـاوز تعـزل مستعد أوديك بيوت تانيه..

- ما هم كلهم زي بعض. أيه الفايدة اني أسيب مسز ويلكسون واتصادم مع واحدة جديدة؟ أنا عاوز أسكن ف بيت حر..

- أنت عمرك كام سنة؟

- تلاتة وعشرين..

- ابقى قول لي بعد أربع سنين. دلوقت مش ممكن.

قال والله ولا فاك.. بعد أربع سنين أكون أنا يا أقفل شنطي ويا أزق على مصر.. الكلام دا مش بيفكرك بالمستر تشرشل لما يقول أن بعد أربع سنين هايكون انتاج مصانع انجلترا أكبر من انتاج مصانع ألمانيا. الناس دول بيفكروا ازاى؟ هو العمر فيه كام أربع سنين؟ يعنى الراجل داها يهزمني، ابتديت أكذب بثبات.

- أنا مثلا متعود آدى سنين أني أقطع مذاكرتي ف نص الليل وامشى مسافات طويلة اعمل ازاى أنا دلوقت؟

الراجل مابنش عليه لمحة واحدة من الشك. ما أعفرش ايه اللى خطر له ساعتها. إذا كان صدق يبقى حتة عبيط. لكن يبقى عبيط ليه؟ مش فيه ناس بيمشو مسافات طويلة؟ دا احنا ف انجلترا والانجليز هم اللى اخترعوا المشى. ع العموم أنا اتعلمت بعد كدا انك لو تقول قدام واحد انجليزى أن أبوك امبراطور الحبشة أو أن ربنا جالك ف المنام مضطر يصدقك، يفضل يصدقك يصدقك لحد ما يضبطك ايدك حمرا على رأيهم. تعرف ليه؟ لأن الكذب عندهم أكبر حاجة تعيب الراجل، ويوم ما واحد انجليزى يتأكد أنك كداب يبقى أحسن لك تدور على حتة تانية. تعرف لما تكسر القانون وتقول أنا كسرته دا مش حاجة زى ما تكسر كباية وتقول أنا ماكسرتهاش. إذا كذبت ف انجلترا أوعي تنضبط. مستر بيفس قال بمنتهى البساطة.

- مـادام أنت مـتـعـود على كده، أبقى أجـيب لك أذن خـاص للمشى بعد نص الليل. لكن لازم تسكن ف بيت مرخص.

شكرته ومـشـيت، وف السكة ندمت ندم شـديد ع الكذبة اللى كـدبتـهـا. بقى ياواد كل واحـد هنا بيعمل اللى يقدر عليـه عشان يسـعدك، وأنت تقـابل دا بالكدب.. عبـال مـا وصلت البيت كنت صممت أنى اتلهى على عيني وابقى زى بقية النـاس واللى يمشى ع التلات آلاف طالب اللى فى الجامعة يشمى علي. رحت صالحت مسز ويلكسون وقلت لها اللى حصل وكتبت جواب للمؤدب بتاعى أقول له أني بعد تفكير لقيت أنه مافيش داعى أنه يطلع لى استثناء مخصوص علشاني، وأني ها اجتهد أني اخلى عوايدى تمشى مع قوانين الجامعة واني متشكر كتير على الاهتمام بتاعه. من يومها ماكدبتش غير مرة واحدة، لكن كسرت كل القوانين.

المرة دى، أنا فاكرها كويس، كانت ف أول أسبوع بعد إعلان الحـــرب.. الواحد بقى بعد ما أخد ع العيش ف كامبريدج ابتدا يزهق من القيود الكتيرة دى. مثلا لبس الروب والكاب بالليل بعد ما كان الواحد بيعملوا بأمانه أصبح بعد ست شهور يهمل فيه يعنى مثلا الواحد يكون ف البلد بيشترى حاجة أو ف شغله ويخش عليه المغرب وعاوز يدخل سينما، بدل ما كان يخبط مشوار لحد

البيت تلت ساعة جاى عشان يجيب لبس الجامعة، كان يقايس ويستنى فى البلد على طول. الحكاية دى كانت تحصل قول مرتين تلاته ف الاسبوع وصاحبة البيت كانت أحيانا تصهين وأنا داخلا أحيانا تفتح الشباك وترمى لى الروب عشان ألبسه قبل ما أدخل البيت وهى ماتعملش علامة بضمير مستريح، قعدت مدة أعمل الحكاية دى والمفتشين يفوتوا على بالليل لكن ماحدش ياخد باله. تصور أول ما قامت الحرب وطفوا الشوارع انضبط. راجع أنا من سينما لريجال وعنها وابص ألاقى راجل طويل وقف ف وشى.

- ليلتك سعيدة يا سيدى.

أنت تلميذ ف الجامعة ياسيدى؟

- ايوه.. ليه..

- البروكتور يحب يشوفك يا سيدى..

أنا كنت سرحان با أفكر ف الفلم اللى شفته وعلى غفلة فقت. أنا يدوبك كنت شايف الراجل فمش عارف ازاى قفشنى.. سلمت امرى لله ومشيت وراه خطوتين لقيت المتفش زى العادة لابس بدلة سودة رسمى عليها الروب وصدره بيلمع ف الضلمة أبيض من القميص المنشى. رفع الكاب وقال:

- ليلتك سعيدة يا سيدى.

- ليلتك سعيدة ياسيدي. أنا اسمي ل . عوض . كليتي كنجز..

ماعنديش لا روب ولا كاب. تصبح على خير.

ومشيت.. أنا صحيح كنت عمري ما انظبطت لكن باسمع كل يوم والتاني عن ظبطيات وعارف المناقشة ماشية ازاي.

البروكتور سكت عني مدة طويلة وف آخر الشهر راح باعت لي الجواب إياه. مستر ساندباش يحب يشوف مستر عوض الساعة ستة ف الاودة بتاعته كلية ترينتي.. أنا برضه سكنت عارف من اخواني اللي ما يحصل بالضبط.. كنت عارف أن المفتش ها يسألني إذا كان عندي عذر عشان مشيت من غير لبس الجامعة، وكنت عارف أني ها أقول أن ماعنديش عذر يقوم صاحبنا يقول أدفع ستة وعشرين شلن غرامة بقى زي الجدع وورينا عرض كتافك. وكنت عارف أن ف جيبي تلاتة شلن وأن مش ها أقدر أقول له خد شيك على أول الشهر كل دا حصل لكن بصورة تانية.

دخلت على مستر ساندباش وبعد السلامات قال:

– عندك عذر تقوله؟

– ايوه.. أنا كنت ف السينما وحاطط الروب والكاب جنبي قام واحد تلميذ استلفهم وجابهم لي تاني يوم..

مستر ساندباش فكر شوية وقال:

– تعرف، من الناحية القانونية دا مش عذر لانه مفروض انك تكون لابسهم منين ما تروح، لكن مادام دى أول مخالفة ليك مش ها أغرمك. مع السلامة.

ودى آخر مرة كدبت فيها لحد دلوقت لكن مش ندمان عليها لأنى ماكنتش أقدر أعمل غير كدا.

أنا لما قلت للبروتكور أن تلميذ «استلف» الروب بتاعى كان قصدى «سرق» وأنا فاهم وهو فاهم. ف كامبردج لما الجنتلمان يسرق يقولوا استلف ولما واحد من البلد يسرق يقولوا حرامى. دا طبعاً نتيجة لنظام الطبقات المتغلغل ف انجلترا.

لما استوطنت شوية ف كامبريدج عرفت أن السرقة منتشرة بين التلامذة. سرقة الكتب، والروايات، والبسكليتات بس. أنا فاكر تمام فى أول فصل دراسى دخلت قهوة وقلعت الروب والكاب وعلقتهم ع الشماعة. بعد نص ساعة طلعت لقيت واحد لطش الكاب، وكان ساعتها معاية واحد صاحبى قام عملت معاه رهان على اتنين جنيه إنى احتفظ باللبس بتاعى لحد ما آخد الشهادة. من يومها وأنا محرص قوى وماضاعش منى غير قلم باركر. الحقيقة أن السرقة دى ف مدينة الجامعة نصها شيطنة ونصها ضعف أخلاق، لأن ف حالات كتيرة حاجتك ترجعلك تانى. يعنى

مثلا تلميذ يلقى نفسه بالليل ف وسط البلد من غير روب، ولو مشى ف الشارع يتمسك ويتغرم. يعمل أيه؟ يمد ايده لاقرب تلاقى الروب بتاعك عند بواب الكلية بتعاتك أو ماتلاقهوش. تلميذ أتاخر ف النوم وعاوز يروح المحاضرة بسرعة يلاقى بسكلتة مركونة ع الرصيف يركبها ويزق وبعدين يسيبها ف أى حتة وترح حضرتك تستلمها من البوليس. طبعا فيه حاجات كتيرة بتضيع مابترجعش لكن ألطف من دا كله السرقة المقصود بيها المغامرة. دى تلاقيها ماشية ف نص التلامذة ع الأقل. الواحدة يخش يشرب شاى أو قهوة ويغافل الجرسونة ويحط طبق أو شوكة أو أى حاجة ف جيبه وتروح تزوره ف بيته تلاقى عنده عشرين تلاتين طبق أو شوكة معلقهم فوق الدفاية ف طابور، وكل حاجة عليها تاريخ السرقة وظروفها، زى ماتخش مثلا بيت واحد صياد تلاقى فيه راس خرتيت وجلد نمر وجلد ببر وبنادق وحرب وحيوانات مصبرة معلقة ع الحيطان، أو زى ماتخش قلعة واحد من الاشراف تقوم تلاقى درع مكتوب عليه الجد العشرين ف الحروب الصليبية وخوذة مكتوب عليها الجد الخمستاشر ف حرب الرودتين وصورة زيتية مكتوب عليها ايرل كذا حامل اختام الملك الفلانى. أنا كمان بعد سنة لقيت نفسى متخصص ف سرقة طقاطيق السجاير من

البارات ولميت منهم سبعة. وكان فيه وحد صاحبى الله يمسيه بالخير دا كان متخصص ف سرقة اليفط الكرتون اللى مكتوب عليها «للسيدات» قدام المراحيض.

دى كانت أيام لذيذة، وبالأخص للتلامذة اللى سنهم صغير. أنا لانى كنت كبير كنت عاقل شوية عن غيرى. وعشان كنت أجنبى كان قلبى ضعيف. عشان كدا كنت أكسر القوانين من سكات وما أعملش حاجة تستلفت النظر. من تالت شهر قدرت أضحك على صاحبة البيت وآخذ منها مفتاح الباب. طبعا هى استفادت من الحكاية دى لأنها كانت وليه عجوزة فوق الستين وتحب الساعة عشرة تشرب قزازة البيرة ستاوت بتاعتها وتحط راسها ع المخدة، وفى آخر الأسبوع تزور كشف التأخذ وتحط أى مواعيد بشرط تكون قبل نص الليل. ف الاثناء دى أكون أنا با اسرح لحد الساعة اتنين والبلد كلها فاضية، أو أكون سهران ف حفلة عند التلامذة العواجيز اللى ساكنين ف بيوت مش مرخصة. لكن ليه أصحاب كتار شقاى بيعملوا أعمال جرئية أخاف أنا أعملها واحد منهم كان اسمه ريتشارد مورلى من شانت جون مثلا قعد ساكن بره كليته ف ميل لين سنتين، وكان طول الوقت خاطب بنت هولندية ساكنة ف بلجيكا. دا كان كل يوم جمعه يطلع من المحاضرات ع الطريق

العام ويفضل يشاور للاتومبيلات لغاية ما واحد يديله توصيلة لحد مينا على بحر الشمال اسمها نوريتش، وف نوريتش صاحبنا كان مصاحب كابتن بتاع مركب بضاعة كان يدى له كمان توصيلة لحد أوسند ف بلجيكا. يبات الجمعة والسبت والحد، ويوم الاثنين ف الفجر تلاقيه داخل من الباب الورانى وبعد شوية صاحب البيت يخش عليه بالفطور ويسأله:

- دخلت الساعة كام ليلة امبارح يا سيدى؟

- اكتب حداشر، وهات لى علبة سجاير..

مورلى عزل ف الكلية، لكن ماكانش دايما يدخلها من أبوابها كان عنده حبل طويل بتاع تسلق جبال كان بيستعمله كل صيفية ف الالب، أول ماتجى الضلمة يروح شايكه ف خامس دور ف ضهر آخر مربع ف كلية سان جون وينزل. يسرح على كيفه ويرجع من الشباك برضه. بعد شوية طبعا البوابين اخدوا خبر وبلغوا المؤدب بتاعه. مرة رجعت بيتى لقيت نوتة كاتبها مورلى بالفرنساوى ملخصها أنه كان عاوز يشوفنى ضرورى ضرورى.. رحت أشوف العبارة ايه اتاريه كان عارف أن المؤدب بتاعه هايكبس أودته ويدور ع الحبل، راح رماه من الشباك ونزل جرى وجابه عندى، ولما مالقانيش لفه وسابه على سطح الدولاب. لو كان

انضبط بيه كان فيها رفد علي طول. خفت أقول لصاحبة البيت تروح هى تبلغ، ومعرفتش مسز ويلكسون أن فيه حبل على دولابها غير بعد شهرين وهى بتنضف الاودة من فوق.

التلامذة ف كامبريدج مابيتشعبطوش ع الكليات بس عشان يدخلوا متأخرين. دول واخدينها نوع من الرياضة والمغامرة. لاحظ كمان أن أغلب اللى بيتشعبطوا من الأصل متعودين على تسلق الجبال. تلاقيهم مثلا يعملوا رهان على مين يقدر يطلع الكلية الفلانية.. والكليات نفسها مش كلها زى بعض. بعضها سهل وبعضها صعب. إذا كنت رايح كامبريدج وغاوى شعبطة فيه كتاب عن طالع الكليات كاتبه تلميذ قديم وعاطى خرط مفصلة لهندسة التمنتاشر كلية ومداخلها ومخارجها والاركان اللى فيها فايدة والاركان اللى مافهاش. دا ضرورى تقراه. يعنى مثلا إذا كنت من كلية ترينتى وعايزة تطلع كلية سانت جون مافيش فايدة أنك تشبك حبلك ف حته وتطلع وبعدين تبص تلاقى نفسك ف أودة العميد؟ والا ايه؟؟ كمان الكتاب فيه تفاصيل عن هندسة كلية نيونام وكلية جانون بتوع البنات، إذا كان ليك غرض. تلاقى المتسلقين المحترفين يقفوا قدام أبراج كنيسة كلية الملك وف قلوبهم نوع من السحر والخشوع، لأنها صعبة ومغرية وخطرة ويوم ما واحد

يتشعبط لارتفاع قياسي تاني يوم اسمه يبقى على كل لسان، تقولش قمة ايفرست. المهم بس انك منين ما تطلع تسيبة علامة أو تحط حاجة للذكرى، جزمة قديمة مثلا، قلم ورق، أى حاجة والسلام، طبعا التسلق دا خطر قوى وبتحصل فيه حوادث وعشان كده الجامعة خرمته. وأنا خطر قوى وبتحصل فيه حوادث وعشان كدا الجامعة حرمته.. وأنا هناك تلميذ رجله زلفت ومات لكن لازم أقول أن الانجليز يحبوا الشعبطة قوى.

أنا عمرى ما اتشعبطت، لكن كتير دخلت من الشباك، يمكن لو كانت أودة المكتب بتاعتي مش ف الدور الأرض، بقول يمكن، كنت قليت عقلى وطلعت ع الماسورة.

أهى دى التقاليد غير الرسمية ف كامبريدج اللى حكيت لك عنها. وفيه ميت تقليد تانى مش مكتوب تلقطه وأنت عايش هناك تعرف أنك ماتسلمش على حد ألا إذا عرفوك بيه، تعرف إنك ماتسلمش على أصحابك ابدا باليد طول الفصل الدراسى، هم مرتين تسلم فيهم بالأيد. مرة أول ما يبدتي الفصل الدراسى يوم ما ترجع ما الاجازة، ومرة لما ينتهى الفصل الدراسى وأنت نازل الاجازة عيب أنك تسلم ف الايام العادية. عيب كمان أنك تكون جديد فى البلد وتتعرف بواحد قديم تقوم تقول له تعال خد شاى

معاية لازم القديم هو اللى يعزم الجديد. عيب أنك تخستلط بأهل البلد على الأخص التجار، لأن كامبريدج من قرون مقسومة نصين بينهم عداوة تقليدية «التاون» و«الجاون»، يعنى «البلد» و«الروب»، يعنى بالعربى أهل البلد والتلامذة، فيه ميت حاجة كمان.. أهى دى تروس العدة اللى أنا اتحشرت فيها، وعصرت شخصيتى عصر شديد ولونت تفكيرى بعض الشئ.

طول ما أنت ف كامبريديج تقعد تسمع ف نوادر ماتخلصش، موضوع النوادر كلها هو تقاليد الجامعة وعلاقة التلامذة بالجامعة وبالأخص اللى بيعملوه التلامذة ف البروكتور والخدامين بتوعه، وبعد الطلبة مايسيبوا كامبريدج بسنين وينتشروا ف أركان الأرض أن كان ف مصر والا الصين والا مدغشقر، منين ما اتنين ما يتقابلوا مع بعض أنهم ولاد جامعة واحدة تلاقيهم دايما يتذاكروا اللى حصل ف الأيام اللذيذة اللى فاتت ودى مادة ماتنفذش أبداً..

وأنت ف كامبريدج تتعلم أنك لما تتكلم عن اكسفورد تسميها «المكان التانى» وان كنت من اكسفورد برضه تقول على كامبريدج «المكان التانى» ف لوايح كامبريدج أن كل تلميذ له الحق أنه يمشى ع الحشيش اللى ف حوش كلية الملك مرة واحده ف حياته، وبعدين

جه تلميذ شقى ولم ميتين تلميذ وراحوا كلهم ماشيين ع الحشيش بتاع الكلية نوبة واحدة قام العميد جا جرى عليهم وزعق.

- ازاى تعملوا كدا؟ انتوا لازم تتعاقبوا.

قام التلميذ الشقى قال له.

- احنا بنباشر حق تقليدى، بس اتصادف اننا كلنا باشرناه ف وقت واحد. الحشيش تلف والعميد طبعا ماقدرش يعمل حاجة الحكاية دا لطيفة ويتحصل وبيحصل أغرب منها كمان، أنا مرة كنت ماشى مع أستاذى مستر جورج رايلاندز ف الكلية بتاعتنا رايحين جايين بنتكلم ف موضوع وبعدين سيبنا المشى وخرمنا ع الحشيش قام لحقت نفسى ورجعت لورا ووقفت وحبيت أفكره.

قلت:

– إذا كنت عاوز تستمر فى الكلام تسمح تنزل من ع الحشيش وتمشى معايه ع الأرض.

أنت عارف اللايحه بتسمح للاساتذة بس انهم يمشوا ع الحشيش..

قام ضحك وقال لى:

– أنا مانسيتش.. لكن اللايحة كمان بتقول أن أى تلميذ

له الحق أنـــه يمـشى ع الحـشـيش على كـيـفـه مـادام مـعـاه استـــاذه.

عرفت أنه حـافظ اللايحة أكثر مني. حشيش كلية الملك مشهور قـوى وعـشـان كـدا تلاقـى عليـه نوادر كـتـيرة بيـقـولوا مـرة واحـد أمـريكانى انبسط قوى من الحـشيش دا، وبعـدين سـأل واحـد من أساتذة الكلية..

- إذا الواحد حب يعمل ف أمريكا حشيش جميل زى دا يعمل ايه؟

قام الاستاذ رد عليه:

– المسألة بسيطة. يقلب الأرض ويرمى التقاوى وبعدين يستنى عليها ربعميت سنة..

دا طبعـا كان أحسن رد على واحد أمريكانى ومـعناه بالعربى حتى حشيشنا له تاريخ وانتوا شعب لسه صـغير السن مـالكمش مـاضى ولا تقاليد. أنا يا أقول دا كان أحسن رد لأن فيه أمريكان كتار يفتكـروا انهم يقدروا يشتروا لنفسهم تاريخ بالفلوس وينقلوا مـــاضى الشعـوب التـانيـــة بالتـقليـد. كل واحــد عــارف حكاية المليونير الأمريكانى اللـى اشترى قلعة ف اسكوتلانده عمرها خمس،

قرون وفك حجارتها ونقلها على مركب للولايات المتحدة وركبها تانى هناك. طبعا عمل كدا بس عشان يقول أنا ساكن فى قلعة من أيام الملكة اليزابيث أو أنا عملت وعملت تقوم الحكومة المصرية بس تعمل أنها هاتبيع الهرم زى ما نصحها برنارد شو وأنا متأكد انها هاتلاقى خمسين معتوه امريكانى يتقدموا للمزايدة. كل واحد عارف إن بنات المليونيرات الامريكان بيدوروا على أشراف انجليز وفرنساويين مفلسين عشان يتجوزهم والناس تقول عليهم «مدام لا مركيز» و«مدام لا بارون». التقاليد فى كامبريدج مالهاش عدد وعايزه واحد متخصص فيها زى الناس اللى بيتخصصوا فى علم الانساب عشان يحصرها. ملا ليك حق انك تسأل البروكتور عن موضوع الدرس اللى هايتقال يوم الحد فى كنيسة كليتك. وأنا هناك سمعت إن تلميذ شقى حب مرة يوقع البروكتور فى الحكاية دى قام راح يسأله فى آخر لحظة عشان يوريله انه ما بينفذش اللوايح بأمانة.. قام البروكتور بكل بساطة قال له. أنا مستعد أقول لك درس يوم الحد بس روح ياشاطر ألبس البنطلون الرسمى اللى شكله كذا وكذا والياقة الفلانية وتعالى أسألنى. كبسة . النوادر زى دى ما تنتهيش وكل واحد عاش في كامبريدج لازم حصل له كام فصل من النوع دا. أدى كام يوم بس كان مستر جلبرت

سـمـيث المفـتش فى وزارة المعـارف بيـحكى لى أنه لما كـان فى الجامعة البروكتور نوبة ضبطه بالليل من غير روب قام وقفه وسأله:

– اديني اسمك وكليتك .

– أسمى سميث . ف ترينيتى .

البروكتور على طول خطر له ان دا بيضحك عليه وعايز يزوغ لان اسم سميث فى انجلترا دا من الاسامى الشايعة قوى زى ما تقول محمد أو على فى مصر وكلية ترينتى فيها فوق ألف تلميذ، وبديهى ان فيهم عشرين واحد ع الأقل اسمهم سميث. قام قال له بزعل :

– أنت كداب، قوللى اسمك الحقيقى.

راح مستر جلبرت سميث مطلع كارت الزيارة من جيبه وقدمه للبروكتور وقال له :

– أنا أطلب اعتذار .

الأستاذ شاف الكارت وطبعا اضطر يعتذر. مش بس نوادر. ياما فيه نكت ع الأساتذة وكل كلية تعمل شعر تأليس ع الكليات التانيه وبالأخص كليات البنات ولولا أنه شعر قبيح كنت حكيت لك شوية منه.

ومش بس نكت. ياما مقالب التلامذة يعملوها ف بعض.. تحت تعرف النوع؟ قالوا لى ان تلميذ فى كنجز عزم واحدة صاحبته قرب المغرب على كاسين شيرى فى الاودة بتاعته، وكان لازم يبات ليلتها فى لندن لعذر طارىء ويعد البنت ما سابته وهو خرج جم شوية من أصحابه الشقاى اللى كانوا عارفين انه قفل أودته وسافر وراحوا حاطين فردة جزمة حريمى قدام باب أودته. تانى يوم فى الفجر جه الخدام بتاعه يصحيه لقى الجزمة قام افتكر ان الجدع عنده «حاجة». قعد يخبط مدة طويلة ماحدش رد عليه، يزق الباب يلاقيه مسنكر، راح نزل جرى على رئيس البوابين ورئيس البوابين نزل جرى ع المؤدب بتاع الكلية والمؤدب بتاع الكلية نزل جرى ع الاودة بتاعت التلميذ عشان يضبط الحادث ويرفد الولد. أمر بكسر الباب، ولما دخل ومالاقاش حاجة طبعا فهم المغرز.

أنا لما أقعد أحكى لك عن نوادر كامبريدج مش ها أخلص.. اسأل الدكتور أبو العلا عفيفى استاذ الفلسفة ف جامعة اسكندرية يحكى لك ألف نادرة. اسأل الأستاذ أمين روفائيل مدرس الأدب الأنجليزى فى جامعة مصر يحكى لك ازاى أنه كان يجرى فى الحوارى كل البروكتور ما يضبطه من غير روب والخدامين طايرين وراه.

لكن دى مش كل حاجة ف كامبريدج. الذكريات أنواع، ومش كلها خفيفة بالشكل دا. سيبك من الصباحيات الجميلة إلى كنا نخرج فيها أنا وبروفسور ايرفينج بتاع جامعة برنستون ونمشى كام كيلو لحد كلاى بهايذ أو جرانڈ شستر وارجع بحذا الكام ونقف ف السكة عشرين مرة نتأمل جمال الطبيعة أو نتخانق فى وسط المناقشة. سيبك من الأيام الغريبة القليلة اللى كنت أرقص فيها تمان ساعات ورا بعض من تلاته لسبعة عن الشاى ومن تسعة لاتنين بعد نص الليل وأدوخ من لذة الفالس وحدها وأطلب المزيد. سيبك من الاضاحى العزيزة اللى كنا نسافر فيها شلة صلاح خشبة وبكر حمدى وفتحى الصيفى وتشكيلة من الجنس اللطيف لحد بستون نستحمى ونرجع مع العصر. سيبك من أيام الزهق القتال اللى كنت أروح فيها سينما مرتين فى اليوم واقعد أويخ نفسى بقية الليل.. سيبك من الأيام الضايعة اللى كنت أروح فيها عند بكر حمدى والاقى حسين عمر ونفضل نلعب شطرنج بعلب سجاير خمس ساعات ورا بعض. سيبك من الايام الشعرية اللى كنت أطلع فيها مع ريتشارد مورلى نتشرد ف حواشى البلد ونتناقش فى أصول المدنية والسياسة والسرياليزم وأخلاق الشعوب وطبيعة الفن وينزل علينا المطر نقوم نفرح ونخوض فى الوحل

وأرواحنا تتمرمغ فى الطبيعة وينزل علينا الليل ونرتعب من الكلاب البعيدة ونطلع ع الجسر مبلولين لحد العضم ونشاور للاوتومبيلات اللى بتتزحلق بسرعة مخيفة وندوس على أنوار المصابيح المعكوسة ع الطريق الأسود الغرقان ف السيول. سيبك من الليالى الصاخبة بتاعت حفلات الوداع ف آخر كل فصل دراسى لما كنت أنا وكيث وأندلس والان هيوم وجون نيكسون وكاثرين ليكوك ويمكن نورمان هوتويفت وونفرد كيلى نتلم فى بيت واحد منا وفنص الليل تلاقى قزايز الهوك المسحوبة مرصصة ع البوفيه زى العساكر المجروحين وخمرة الرين بتبرق فى عينينا وبتوجع ف عروقنا والنغمات الهمجية بتاعت البوليرو بتسرى زى الكهربا ف ضلوعى وموريى مش قادر يسند نفسه وفاتح ديوان كيتس وكل ما يخلص من قصيدة البلبل يقراها تانى ويسمع ويسمع السيمفونى الخامسة وبعدها «جوزيف جويف». بوهيميا. جزاير جوجان موسيقى الغجر. نهاية القرن. سيبك من دا كله وسيبك من أيام لما كنا نتلم عند أنور فراج والا فتحى الصيفى والا أمر الله بليغ ونلعب بوكر ساعة وكروكيه ساعة وفى تلت الليل نشوف براميل البيرة وهى بتصفى آخر مكنوناتها نقوم نفوق ع الصدمة ونتشجع ونروح بيوتنا وبرضه سيبك من العصارى اللطيفة لما كنت أروح مرة كل

سنة على شط الكام فى ضهر كلية الملك والاقى نص البلد سبقتنى هناك واقعد ساعتين اسمع تلامذة الكلية بيغنوا المادريجال القديمة الماشية وأشوف البجع عايم ع الكام بين الكبارى واللحن سايح ع الامواج. سيبك من محاورات سقراط وفيلو اللى كانت تحصل بينى وبين بكر حمدى دايما فى السياسة والدين ودايما فى مكان واحد واحنا رايحين جايين بيكارلين رود وفيكتوريا رود أوصله لحد بيته فى نص جملة ويوصلنى لحد بيتى والجملة لسه ما انتهتش .. وسيبك حتى من ألطف منظر تقدر تشوفه فى حياتك لما أمر الله بليغ كان يسكر فى «الرانديفو» ويعد نص ساعة يقلب صالة الرقص سرك وياخد البنت الارتيست اللى بتغنى فى دراعه ويعملوا سوينج مع بعض نصه رقص بلدى ونصه خفاقة دم، والا سيد سودان لما يشرف فى بار الكريتيرون وتشعشع معاه يلمنا حواليه ويخطب فينا بالطلياني زى الدوتشى وبالالمانى زى الفوهرر على طريقة كشكش واحنا نهيص «سى، سيى» أو «زيج هايل».. كل الحاجات دى ما تتعوضش، ولا كمان أيام الفلس فى كامبريدج لما كانت أنا وبكر حمدى نفوت الساعة عشرة بالليل على محل السمك والبطاطس اللى فى كنج ستريت ونصرف أحنا الجوز عشرة بنس وأول ما نوصل لميد سمر كومون كل واحد يفتح لفته وهات يا أكل

وعبال ما ندخل ع الشلال نكون بنمسح ايدينا في الروبات. دي أيام ما تتنسيش ولا تتنسى أودة فؤاد حمدى اللى كان معلق فيها ستاشر صورة لجنرال فرانكو ولا أودة كيث واندلس اللى كنت أروح ليالى ليالى عشان اسمع فيها باخ واسترافنسكى ولا قهوة الدوراتى اللى كانت كل صباحية تتملى بالتلامذة المهرجين يغنوا ويشوشروا ولما قامت الحرب بقينا احنا المصريين نتمم على بعض فيها بعد كل غارة. دى حاجات ما تتنسيش لكن سيبك منها محدودة وشخصية ومعناها بسيط كمان سيبك من اجتماعات نادى الفراعنة اللى كان نصها زعيق ونصها مقاطعة واخرتها دايما صافي يالبن ومن اجتماعات النوادى التانيه اللى كانت كل أسبوع تعرض علينا واحد من قادة الفكر في انجلترا منه سمع ومنه فرجة ع الناس اللى اساميهم لوحدها أخبار، وبعد مدة بقيت أشوف مستر تشرشل داخل كلية كلير حتى ما ابصلوش، ويقولوا لى هـ. ج . ويلز هنا أقول وايه يعنى، وأسلم على أودن غلط لكن شعره الهايش وعينيه المولعة أكتر ما يجذبنى صيته وأروح أشوف سير أرثر كويلر كوتش العجوز بس عشان خايف انه يمكن يموت فى أى لحظة وهولدين وس. لويس روبرت. اليوت واستيفن سبندر واديث ستويل وادنجتون وتومسون كينشتاين ولاسكى وميجور

اتلى وفرتز كرايسلتر وهوروفتش كلهم فاتوا على زى بقية مخاليق الله، والناس اللى باقرا كتبهم بلهفة وأنا تلميذ فى مصر. زى جورج رايلاندزوف .. ل سلو كاس وف. ر. ليفيس ودكتور ريتشارد س و س. ك. أوجدن – بصيت لقيتهم بييجوا لحد بيتى بالبسكليت وياخدوا شاى ويستأنسوا زى أصحابى تماما أو ياخدونى فى بيوتهم ويناقشونى فى مدارس الفكر الحاجات دى ذكراها عزيزة عندى لكن يمكن ما تهمكش علشان كدا سيبنا منها برضه ..

وكل ما أفضى من مشاغل العالم دا تفوت فى مخى الصور والذكريات، مش دى بس انما ألف حاجة وحاجة من شكل السحب اللى دايما مفضضة لدكاكين الترزية والبقالين وبتوع الاسطوانات وبتوع الكتب وبتوع الخمرة اللى كان الواحد بس يخش فيها ويكتب اسم كليته وبعد خمس دقايق يطلع محمل بأى حاجة هو عايزها من غير ما يدفع بنس واحد.. ومع ذلك ما فيش حاجة سابت فى نفسى أثر واعتقدت صحيح اتنها فى أثاث البنا بتاع كامبريدج قد الجو العلمى اللى مافهوش دجل والرياضة الاخلاقية اللى ماتسيبش واحد بنى آدم من غير ماتشكل طباعه.

أى واحد عاش فى كامبريدج يقول لك إن الواحد هناك بيتعلم من المحادثة مع الناس اكتر من ما بيتعلم من الكتب وان الحياة

الاجتماعية نشاطها باين لكل عين.. لكن فيه نشاط تانى مش باين لكل عين كامبريدج مش بس دعوات شاى وحفلات شيرى وسباق قوارب دا كله موجود. لكن كمان فيه حاجة تانية موجودة. فيه الجيش الاحتياطى اللى دايما يشتغل فى هدوء من الرجالة السرحانين المدهولين اللى نضارتهم تخينة وشعرهم واقع ومابيحلوقوش مرتين فى اليوم. فيه ديدان الكتب اللى تنبش أوراق المكاتب وتحى الميت وتموت الحى وتمهد السكة للابطال اللى بينوروا السكة للانسانية بأفكارهم الجديدة انت نسمع بس عن ميلتون ونيوتن وداروين وماكسويل ودانجتون لكن دول بيعملوا واجهة البنا. ادخل شوية لجوه تلاقى مقابل كل ملتون فيه ميتين ثيوبلد ومقابل كل ادنجتون فيه ميتين واحد الميكروسكوب برى عنيهم والمعادلات ضيعت عليهم الحياة كامبريدج بلد غريبة صحيح.

عندك تلات سنين وانت حر.. تقدر تغرقهم فى قزازة ويسكى وتنساهم فى لغط الاجتماعات وزبطة الرقص والشباب، وتقدر تضيعهم فى العمل المقدس والكد الطويل وفى الحالتين هاتنجح ماتخافش.. أنت حر .. قدامك طريقين .. نقى اللى أنت عايزه..

نادى الفراعنة

أول ماروحت كامبريدج جديد أخدنى واحد مصرى فى بيت الأستاذ اسماعيل شيرين عشان أقابل الفراعنة. كنت أسمع من مصر وأقرأ فى الجرايد مرة فى كل سنة أن المصريين بتوع كامبريدج عاملين نادى اسمه نادى الفراعنة وطبعا كنت متشوق قوى انى أعرف هو ايه. دخلت لقيت عشرة خمستاشر فرعون، اللى قاعد واللى واقف بياخدوا الشاى وبيتزعقوا فى بعض بصوت عال فى وقت واحد. عرفت انهم يتناقشوا فى السياسة.

ولا حد خد باله أن فيه واحد غريب. صاحبى ماعرفش يسكتهم قام أخدنى من دراعى ودار عليهم واحد واحد يعرفنى بيهم الواحد منهم كان يتبادل معايه المجاملات فى دقيقتين وبعدين يقول لى «عن أذنك» ويرجع يزعق مع التانيين .

دا صلاح خشبة رئيس النادى من فيستوليام هاوس، ودا عوض جديد فى كامبريدج من كنجز كوليدج عاوز يبقى عضو.

صلاح خشبة يدويك قال لى «ازيك» وراح شاددنى من دراعى وصرخ فى الموجودين :

– استنوا شوية. لويس بك عوض زبون جديد هنا ويحب يشترك، أنا أرشحه فيه حد يزكيه؟

(صوت واحد تانى ما أعرفوش – أنا أزكيه.)

خشبة – فيه حد عنده مانع ؟

الأعضاء – لا .

ورجعوا المناقشة تانى . ان المسألة كانت روتين وأخذت نص دقيقة، ودخول عضو جديد عليهم كان زى ما واحد يستحمى ويغنى مثلا .. انبسطت أن المسألة كانت سهلة كدا، لكن استغربت أن الرئيس عمره ما شاف وشى قبل كدا ويرشحنى وان ناس ما عرفهمش يزكونى.. قلت فى عقلى دول جماعة باين عليهم لطاف وهأ ارتاح معاهم.. كان مفروض طبعا أنى أول ما أمضى الشيك بتاع الاشتراك اشترك معاهم فى الزعيق، لكن ما اشتركتش غير فى الشاى .. يومها قابلت إبراهيم صفوت وإسماعيل شيرين من ترينيتى وحسين عمر من مودلين ومصطفى عبدالعزيز وأحمد فتحى وعبدالعزيز عمر كلهم من فتزوليام هاوس ومش فاكر مين تانى. دول ما كانوش كل المصريين اللى فى كامبريدج. بعد كدا اتعرفت شوية شوية بأمر الله بليغ من سان جون وفؤاد حمدى سيف النصر وبكر حمدى سيف النصر من ترينيتى هول وعبدالجواد

حسن من فتزوليام ومصطفى زهدى من جيزاس ومدحت شراره من كلير وعلى صادق من سان جون وأحمد صادق من فيتزوليام، وكنت من قبله أعرف اتنين فاتوا عليك، سيد عبدالمنعم حسانين اللى عطانى البيجاما من فيتزوليام وعبداللطيف بدر الدين اللى قابلته يومها عنده وفسحنى فى البلد من سان جون، وبعد سنة اتعرفت بأنور فراج ودا كان فى لندن وحول على كامبريدج فى كلية كيز.

برتيته مش بطالة أبدا، وبالأخص ان كل واحد كان مختلف عن التانى، مش بس فى الشخصية لكن كمان فى الدراسة.. كان فيهم اللى بيدرسوا اقتصاد واللى بيدرسوا رياضة واللى بيدرسوا زراعة واللى بيدرسوا هندسة واللى بيدرسوا علم حياة واللى بيدرسوا علم نبات واللى بيدرسوا حربية ماكانش فيهم حد بيدرس أدب غيرى. طبعا دول كلهم ماكانوش أعضاء فى نادى الفراعنة «الحمديز» ع الأقل طول الوقت بره النادى والسبب ما اعرفوش.

أنا ظلمت النادى شوية لما وصفت الزيطة بتاعت أول يوم .. الحقيقة ان النادى كان من أحسن النوادى اللى شفتها فى حياتى أولا ماكانش له مكان ولا عنوان. كنا نجتمع كل يوم حد فى بيت واحد من الأعضاء ناخد الشاى ونتبادل الآراء. ثانيا كان من

نشاطه انه يدى أسبوع محاضرة وأسبوع مناظرة وينظم مباريات رياضة وبريدج وشطرنج مع النوادى التانيه ويعزم أساتذة يعمرُوا أحاديث ويعمل حفلات تعارف وحفلات سمر، ورقص وتهريج وحفلة عشا رسمية كل سنة يدعى فيها العمداء بتوع الكليات والاساتذة وسفير ناف بلاط سانت جيمس ومدير مكتب البعثة فى انجلترا وتلامذة يمثلوا النادى المصرى الملكى بتاع لندن والناس اللى ليهم أهمية فى كامبريدج. فى السنين الوحشة نشاط النادى كان بيتحول لحفلة العشاء السنوية، لكن فى العادة نادى الفراعنة كان مظهر مهم لوجود المصريين فى كامبريدج. ونادى الفراعنة بياخد الف وكذا جنيه كل سنة من الحكومة اعانة، ونادى الفراعنة بياخد ١٥ جنيه بس . أنا لو كنت مدير البعثة كنت أعكس المسألة وأنا ضامن أن سمعة مصر فى انجلترا تتحسن أربعة وعشرين قيراط.

نادى الفراعنة له مضبطتين. مضبطة شكلية دى تلاقيها عند السكرتير ومضبطة كاملة دى شايلها أنا فى عقلى، ولما تجى المناسبة برضه ها انشرها ع الناس زى ما بانشر ذكرياتى. كانوا المصريين مقسومين شلل شلل، وكل شلة ليها ميولها وأعمالها، لكن يوم الحد كل الشلل دى تتلم على بعض ع الشاى وتشترك فى عمل اجتماعى واحد..

كان فيه شلة فيكتوريا مثلا يعنى اللى متخرجين من كلية فيكتوريا عندنا، ودول كانوا أكتر ناس يلعبوا رياضة ويعملوا أعمال شقاوة ودى كان فيها شيرين وفوده وبليغ فراج وعلى صادق وأحمد صادق ومصطفى ذهنى. كان فيه كمان شلة العلماء ودى فيها بتوع البعثة زى سيد حسانين وصالح خشبة وفتحى الصيفى وعبدالجواد حسن ومصطفى عبدالعزيز وأنا طبعا دخيل ع العلماء. دول كانوا يتلموا كل كام يوم ويشتروا برميل بيرة أو تشكيلة جن وويسكى ونبيت فرنساوى والمانى ويتناقشوا فى ستين موضوع. كان فيه شلل متخصصة مثلا فى صيد البنات من محلات الرقص وشلل متخصصة فى لعب البوكر وشلل الناس الطيبين اللى فى حالهم زى بكر حمدى وفؤاد حمدى وشراره وهكذا، لكن فى العادة كنت تلاقى كل واحد مشترك فى أكتر من شلة.

فى أيامى نادى الفراعنة فات فى أزمتين. أول أزمة يوم ما واحد اقترح أنه يبقى له مكان ثابت للمحاضرات زى النوادى التانية والباقين واقفوا. الأزمة دى فاتت بسلام لان الاعضاء لقوا فلوسهم ماتكفيش. أنا أفتكر أن دى كانت أزمة كبيرة لان جمال النادى هو فى حالته المتنقلة دى، ويوم مايتنسى التقليد دا هايبقى النادى محل قعاد ويمكن يجيبوا فيه طاولة كمان.

تانى أزمة كانت أهون من دى شوية لكن برضه كانت خبطة، أول ما قامت الحرب جامعة لندن عزلت كل كامبريدج وعزل معاها حسبة عشرين مصرى. دول ماعرفناش نعمل فيهم أيه.. دستور النادى نفسه كان غامض. كل اللى بيقولوا أن أى واحد بيدرس في كامبريدج له حق العضوية.. الجماعة الجداد صحيح بقوا بيدرسوا فى كامبريدج لكن مش فى «جامعة» كامبريدج. المسألة بقت في ايد المفسر مش في أيد الشارع. غير كدا قول ضيوف علينا يمكن يقعدوا كتير يعني لازم لهم نادى، وإذا ابتدينا نثير مشكلة الجامعة» مش بس هانوريهم عدم ترحيب انما كان هايفتكروا ان «كاميريدج» بتتكبر على «لندن». الشعور دا موجود من الأصل، وأى غلطة من ناحيتنا كانت تجرح احساس الجامعة. لكن من ناحية تانية احنا كنا خايفين انهم لم يدخلوا يقعدوا يعدلوا فى دستور النادى وتقاليد النادى على فكرة وينتخبوا مجلس الإدارة منهم لانهم دايما كان عندهم الأغلبية. تبقى الفوضى بتاع النادى المصرى الملكي اللى في لندن جت عندنا، ويبقى الفراعنة الأصليين راحوا فى شربة ميه. أنا شخصيا اقترحت أننا ناخد بتوع لندن أعضاء منتسبين بس مدة الحرب، يعنى نص اشتراك وما يحضروش الجمعية العمومية وما يرشحوش وما يصوتوش.

غير كدا نبقى كلنا سواسية كأسنان المشط. أنا فاكر تماما برضه أن الأستاذ صلاح خشبة وقف معايه للنهاية وبعد مناقشات وشتائم كتيره اقتراحي اترفض وبتوع لندن دخلوا معانا أعضاء عاديين تعرف؟ إنا لما سبت كامبريدج بعدها بكام شهر كان دستور النادى اتعدل فى أغلب أجزائه.

تعرف لويس فانوس بيعمل إيه فى مجلس الشيوخ؟ طول الوقت يتكلم ويعترض فى الفاضية والمليانة. أنا كمان طول الوقت كنت با اتكلم واعترض فى الفاضية والمليانة فى نادى الفراعنة.. كان كل جميعة عمومية تقريبا ليه دوشة واتعرف عني أني مشاكس .. أديك مثل.. بعد الأستاذ صلاح خشبة ماخلصت رياسته، جه انتخاب الرئيس الجديد. يومها بلغني ان شلة فيكتوريا – ودى كانت كبيرة – اتفقت انها تسند الأستاذ أمر الله بليغ زميلهم ودا كان يدويك بقى له سنة فى البلد. زعلت قوى على حكاية العصبيات فى الانتخاب دى وشرحت المسألة لبتوع البعثة وطلبت منهم انهم يسندوا واحد منهم. أنا طبعا ماليش الرياسات ولو شنقوني بعد فصل بارد كان حصل زمان بسببها، قام اختارنا الأستاذ عبدالعزيز عمر ورحنا الاجتماع وانتخبنا، بليغ طلع رئيس وأنا طلعت وكيل. ساعتها أنا عملت دوشة كبيرة واتهمت الرئيس

الجديد انه كان عامل «كابال» من بتوع فيكتوريا وطلبت منه انه يستقيل لانه صغير وجديد ومايعرفش حاجة من تقاليد النادى ورحت مستقيل من الوكالة باعتبار انى ما أقدرش اتعاون معاه. طبعا بعد كدا عرفت انى غلطت لان بليغ مانجحش «بالكابل» بتاع فيكتوريا لان شلة فيكتوريا ماجاتش الا بعد الانتخاب ما انتهى. عرفت أنى غلطت لان بليغ نجح بأصوات بتوع البعثة اللى كانوا بيدوا بعض مقالب من ورا زى العيال. أنا كان موقفى فى منتهى السخافة أنا ماكنتش أعرف عبدالعزيز عمر كويس ومارشحتوش غير لما قالوا لى رشحه ثانيا لانه كان عضو قديم وعارف تقاليد النادى وأمر مط فى مجلس الإدارة. ماكنتش عارف أن بينه وبين التانيين «ضديات» دا كان يوم ما يعلم به غير ربنا. اكتسبت عداوة الرئيس لوجه الله، ودام النفور أسبوع كامل. لكن بعد كدا رجعنا حبايب .

لكن أنا ماكنتش دايما غلطان بالشكل دا.. كنت أحاسب فى الشكليات. كنت أحاسب فى الحاجات المهمة. يجوا ياخدوا صورة للأعضاء أقول لا فلان أقدم من فلان يقوم يقف قدامه، ولا حد واخد باله. عاوزين يعملوا الانتخاب الجديد قبل ما يناقشوا الحساب الختامي، أقول ياخوانا ما يصحش، ولا حد واخد باله من يوميها عرفت أن مركزى الطبيعى دايما فى المعارضة.

أنا لازم أحيي الاستاذ صلاح خشبة لانه كان أكمل مثال للرئيس الدستورى، كان يشوف رأيه بيتقطع حتت قدام عنيه ومع ذلك ما يفتحش بقه وياخد أصوات من سكات وبعد ما يتهزم خلاص يقعد يشد فى شعره ويشرح فكرته للكراسى وفناجين الشاى. وياما ظلم نفسه عشان يدى خصمه فرصة كاملة، وطول ما هو بيدير الجلسة عواطفه وميوله بيطويها فى جيب البنطلون.

أنا لازم أحيي الأستاذ أمر الله بليغ لانه كان اكفأ رئيس وأنشط رئيس والحماس دايما ماسكه من زوره. مهما اختلفت معاه فى المبادىء لازم أعترف إن فى عهده النادى مشى زى الساعة. كان يعمل كل حاجة وبعدين ياخد أصوات. ايه الفايدة؟ لكن عمره ما غلط، ودا معنى الدكتاتورية المستنيرة.

أنا لازم أحيي نادى الفراعنة لانه علمنى الخدمة العامة وروح التعاون. فى عهد خشبة اتعلمت مسئولية «النايب» اللى له صوت وضمير يحسب حسابه. وفى عهد بليغ اتعلمت أبقى «فنى» مالوش صوت ومعلهش مسئولية لكن له رأى يتسمع ويتوزن.

دا عمل طيب دا عمل طيب، والاتنين كانوا دايما ماشيين على حرف حرف غويط . المبادىء رخيصة والعبرة بالرجالة .

الشاطيء المسحور

الشتا كان شديد قوى فى ديسمبر ١٩٣٨ . كل الجرايد كتبت انه كان من أفظع الشهور اللى فاتت على أوروبا فى الخمسين سنة الأخيرة، وكانت كل صبح تديلك إحصاء مقارن عن الحرارة . لندن وصلت كذا تحت الصفر، باريس كذا برلين كذا وموسكو كذا . كله تحت الصفر . أنا بالأخص حسيت بالبرد عشان السنة اللى قبلها ماحسـتش بيه. أى واحد كان عنده عطلة وفلوس كان لازم انه يهرب للجنوب ، الجنوب قوى إذا أمكن. أنا كان عندى عطلة لكن ماكانش عندى فلوس ، الفكرة جت وراحت. كنت مشغول قوى فى حتة بحث ع الأدب الانجليزى بعد الانقلاب الصناعى. وما صدقت وصلت لحتة الواحد يقدر يقف عليها والفكرة جت تانى.

رحت البنك بتاعى أطلب سلفية ، المدير قال مافيش مانع، بس عاوز ورقة من المؤدب بتاعك المؤدب بتاعى قال مافيش مانع وكتب ورقة لمدير بنك باركليز فرع شستروون رود اللي كنت با أعامله، يقول فيها انى شخص مضمون، تانى يوم الصبح مش قادر أنساها لحد دلوقت. كان عشرين ديسمبر. طلعت من البيت حوالى عشرة وكنت لابس بالطو تخين وفوق البالطو بالطو مطر وفوق

بالطو المطر الروب بتاع الجامعة وحوالين رقبتي الكوفية الصوف بتاعة الكلية اللى طولها متر ونص والبرنيطة مكبوسة فى راسى زى الحلة والجوانتى على إيديه بينقط زى مناخير واحد مزكوم. المسافة كلها كانت عشر دقائق . كنت ماشى بمنتهى الاحتراس ع التلج أحسن آخذ لى هدرين، وطريق فيكتوريا مكشوف قدام عينى ومنحدر ومفروش بالقطن الطبى البارد والبنك شايفه فى وشى هناك فى آخر الشارع .

بقيت ماشى زى الانسان الميكانيكى اللى زيته نشف وعدته بتشفط. مناخيرى كانت مش موجودة. ودانى دى الدم وقف فيها ومش بطلت تسمع بس انما ماكنتش حاسس بيها خالص بس كنت شايف مية دافية بتشر على شفايفى وكل ما أحب أمسح مناخيرى فى الجوانتى دراعى مايرضاش يتحرك. اللى يشوفنى من بعيد كان يشوف حزمة هدوم بدراعات مفرودة زى غراب المقاته. وأبص على مدى الشارع النازل ألاقى التلج لسه صافى وسليم كأنه نزل من كوكب على كوكب مش مأهول. مافيش أثر لرجل انسان ولا خط سابته بسكليته ولاطين كشفته للسطح عجلة تقيلة. عرفت أن الناس خايفة تطلع وان عربية الفحم لسه مافاتتش. بعد نص ساعة بالضبط كنت على باب البنك. من سكات

الصراف عطاني خمسة وتلاتين جنيه ولما جيت أمضي الشيك ماعرفتش.. الريشة وقعت تلات مرات. قلعت الجوانتي وحطيته ع الترابيزة شفته بيتنفض زي ضهر القطة اللي سيدها ضربها.

رحت لشركة بل بتاعت السياحة قدام الكلية بتاعتي واستلمت تذاكر. سكة لندن - دوفر - كاليه - باريس كانت غالية شويه عشان كدا دايما كنت أحجز تذاكر في سكة لندن - نيوهافن - دييب باريس. ورحت للأستاذ بتاعي أحكي له ع الشغل وأقول له مع السلامة ورجعت البيت ومليت الشنط زي العادة بالكتب وقفلت ماكينة الكتابة بتاعتي وهزيت ايد مسز ويلكسون وزقيت ع المحطة.

سيبك من اللي حصل في السكة أو في لندن أو في نيوهافن. ماشفتش حاجة مهمة غير شوية البنات والصبيان اللي دايما تلاقيهم كل ديسمبر في محطة فيكتوريا لابسين بنطلونات كحلي بتاعت زحلقة ع التلج وشايلين العوارض الخشب بتاعت الزحلقة ورايحين «القارة» يتزحلقوا على الجبال. المانش كان وحش في كل حتة، في النص الانجليزي وفي النص الفرنساوي ، وأنا البحار الكويس لقيت نفسي بعد ساعة غددي بقت كلها تفرز لعاب مالح.. أغلب المسافرين كانوا طبعا بيفضوا بطونهم ع السراير وع السلالم وع الدك، واللي لحقوا حتى يوصلوا حافة المركب بقوا ميه

مالحة فى القناة المالحة . أنا اخدت لى كام وسكى عشان أعقد نفسى ورحت متمدد وبعد ساعتين راح الصداع والأرق والمرحلة خلصت..

قبل ما أنزل دبيب طبعا قعدت أتفرج على الشاطىء المسحور ع المنارة وع الكنيسة اللى قايمة على ربوة عالية والموج بيضرب فى الربوة افتكرت «الجو» اللى كنت با أعيش فيه وأنا سنى اتناشر سنة أيام ما كنت با أقرأ في رواية القرصان - «سيركوف» عن سان مالو وأمواج المحيط الاطلسى اللى بتضرب طول الليل فى بيوت الصيادين والمهربين، ومدوا السلم للبر رحت شايل ف ايد شنطة الكتب الصغيرة اللى دايما با احط فيها غيارين كل ما أسافر ، فى الايد التانية شلت الرمنجتون بتاعتى .

وأنا نازل على السلم شفت جنبى برونات لابسة حشمة واسبور فى نفس الوقت شايلة شنطة كبيرة قوى. ما عرفتش جنسيتها ايه قلت لها بالانجليزى :

- أقدر أساعدك ؟

- متشكرة .

رحت عاطيها الشنطة الصغيرة وأخدت شنطتها الكبيرة ومشينا ساكتين. وكام مرة تقريبا تهنا من بعض فى الزحمة.. لكن

أول مـا وصلنـا الجمـرك نورت على بقـيـة الشنط لقـيت الشـيـال حـارسـهـا ووقـفنا فـي الصف قـدام البنك الطويل كل واحـد فـرد حاجاته وموظف الجمرك الثقيل لازم يشوف كل الشنط، وينعكش كل الهدوم ولازم كمـان يفـتح الرمنجتون مـا اتكلمناش كتيـر، لكن من لدغتها عرفت أنها فرنساوية. نهايته. وصلنا القطر يدوبك قبل ما يقوم مالقيناش ديوان ياخدنا رحنا واقفين فى المشاية من دييب لحد باريس من دييب لحـد باريس حصلت حـاجـات كتـيـرة. قلبى اتفتح وقلت لـهـا حـاجـات كتيرة عن نفسى وهـى حكت لى حـاجـات كتيرة عن نفسها ولما القطر صفر عند بونتواز بقينا أصحاب عرفت ان اسمها مادلين بيرنيه قعدت سنة فى لندن وانها مش هـاتبات فى باريس غير ليلة واحدة وبعد كده هاتسـافـر شـهـر فى البـرانس الواطيـة عشـان تشـوف أهلهـا وانهـا بعـد أجـازتهـا ترجـع باريس تشتغل. قبل ما يدخل القطر باريس بزمـان كنت با أكلم الحشمة والطيبة نفسهم جوا البلطو الصوف البنى السادة اللى كان بيتحك فى البالطو الصوف المقلم بتاعى .. حسيت أنى فى تجربة هاتنتهى قبل ما تبتـدى .. قلت فى عقلى هو السـرور دايما عمره زى عمر الزهور، وأنا ماليش حق أنتظر غير كدا. القطر دخل باريس وخفت وزيق ووقف فى محطة سان لازار. قلت لها :

– مش تفتكرى حقنا نحتفل بصداقتنا القصيرة دى ؟

– انبسطت من الفكرة، وبدوبك اتخلصنا من العفش واتفرجنا على تلج باريس الخفيف اللى نصه كان ساح ونصه كان معجون بالطين ورحنا نازلين ع البلد نتفسح. مادلين أخدتنى حتة اسمها بلاس دينالى وقالت لى استنى هنا عبال ما أشوف واحدة صاحبتى عشر دقائق بس وها أجيلك فى القهوة دى .. قعدت فى القهوة مش أفكر فى اللى ها أعمله الليلة لكن فى اللى ها اعمله لما تسافر صاحبتنا. كان أغلب اللى فى القهوة عمال لابسين بيريهات، بيشربوا ويلعبوا بلياردو. شفت القزايز مترصصة أشكال وألوان قلت أنا لازم استحمى الليلة بالشمبانيا، اشتريت تلات قزايز شمبانيا كل قزازة كلفتنى ٢٣ فرنك يعنى أيامها حسبة ١٤ قرش وقزازة سوترن كلفتنى ٢٧ فرنك وأخدت لى كاس ابريتيف سان زانو ع البار واتلحمت شوية فى الفلوس الفرنساوى «قريتها» كلها مرتين تلاته قبل ما اسلمها للجرسون واتمشيت اتفرج على البلياردو. كل دا حصل فى عشرين دقيقة وصاحبتنا لسه مارجعتش . ابتديت اتضايق عشر دقايق كمان برضه ماجتش، فكرت أقوم ماجتش قلت فى عقلى أيه شغل المصريين دا . قعدت أسأل الجرسون احنا فين وارى أطلع من الحتة دى وازاى أوصل

محطة سان لازاريف وسط الكلام بصيت لقيت صاحبتنا داخله بتلمع وتنور. عرفت انها لازم استلفت من صاحبتها مشط وقلم أحمر وفرشة هدوم وفوطة وش . الحمد لله اللى جت لكن أنا لسه متضايق .. اعتذرت ماردتش. شرحت أسباب ما عملتش تعليق. وفى الآخر غيرت أنا الموضوع وحكيت لها على البضاعة اللى اشتريتها واحنا ماشيين باحتراس ع الميدان المزحلق.

ماروحناش سينما ولا تياترو ولا مرقص، لكن أنبسطنا خالص..

وف الصبح رحت ودعتها على محطة الجنوب جاردورسيه ولما رجلى طلعت من المحطة بصيت ورايه أودع كل الناس اللطاف فى الدنيا اللى ما أعرفهمش في شخص مادلين بيرنيه، وهزيت راسى وبصيت قدامى ونسيت بسرعة شواهد هذا الماضى وما افتكرتش غير انى سايح جاى أشوف باريس وأقابل منور. ابتسمت واخدت تاكسى ع الحى اللاتينى .

أول حاجة دورت عليها ف الحى اللاتينى كانت ٥٣ بولفار سان جرمان، عنوان الاستاذ عبده فراج . بعدما أخذنا بعض بالحضن وقعدنا نتبادل الذكريات نزلنا نسرح فى البلد فراج كان راجل طول عمره في جد من بيته للمدرسة ومن المدرسة للبيت، عشان

كده مافرجنيش غير ع الحاجات الظاهرة قوى. لما كنا ف الجامعة ف مصر سوا كنا ساكنين مع بعض، وكنا متفقين ان احنا الاتنين نروح بعثة ف وقت واحد - كأن المسألة ف ادينا خلاص - هو ف باريس وأنا ف لندن ونبقى نزور بعض ف الاجازات. أنا بريت بوعدى وزرته ف تلات أجازات لمدد طويلة وهو عمره ماجه .

المرة دى منسور تعب معايه صحيح لدرجة أنى بعد كدا قدرت أقف على رجلى واستغنى عن الارشاد. كل مرة رحت فيها باريس بعد كدا بقيت عارف سكتى وفى الآخر فات على وقت بقيت عارف باريس زى ما أنا عارف مصر. المرة دى كان تانى مرة أروح باريس وسكنت برضه فى الحى اللاتينى. سكنت فى لوكاندة كازيميرى لافينى ف شارع كازيميرى لافينى ورا كلية الطب لطع. انما لما رجعت باريس تالت مرة ورابع مرت بقيت أسكن ف رقم ٨٣ بولفار برتييه فى شارع بعيد عن دوشة البلد.

كان مفروض ف البروجرام بتاعى انى أحضر الكريسماس وعيد رأس السنة ف باريس وأشوف الفرنساويين بيهيصوا ازاى. قالوا فيه رقص ف العمودية بتاع الحى اللاتينى رحت لابس ورايح من غير تردد لقيت صالة كبيرة وف الصالة ناس كتار وفرقة المزيكة فى آخر الصالة لكن كان فيه حاجة غريبة حوالى

مــاشـفـتـهاش قـبل كـدا فى مـراقص انجلتــرا. لقيت الصف الشمال. •

لقـيت الصف الشــمـال كله سـتـات عـواجـيـز بين الأربعين والخمسين، لابسين لبس سهرة لكن ألوان حشمة وتفصيل حشمة. مـافـهـمـتش إيه الحكاية. ف انجلتـرا كنت أحـيـانا تلاقـى ف كل مرقص سبع تمن ستات عواجيز مخلوطين بنسبة معقولة ف جمهور الشباب اللى بيرقصوا مش راضيين يقبلوا الحقيقة الأليمة، ان زمانهم فات وان مكانهم جنب دفايات البيوت. برضه تلاقيهم بيشربوا ويرقصوا غالبا مع رجالة من سنهم أن كنت راجل عندى قلب انسانى تفهم وتعذر بس تتأسف ع الوقار اللى بيضيع فى صالات اللهو. وأن كنت راجل احساسك ميت وخيالك محدود تضحك وتستهزئ كل ما تفوت قدامك واحدة رقبتها مليانة تجاعيد ولحمها التحتانى مرخرخ تحت الفستان ورجليها محنية شوية. أنا لما شفت الستات الكبار دول قاعدين فى صف واحد قعدت أفكر. دول جايين يرقصوا طبعا. طب وليه مرصوصين كدا؟ دا مش من مصلحتهم . لقيت بنت جميلة طويلة باين عليها النعمة لابسة تللى أبيض مفضفض زى العروسة ليلة الزفاف وديل فستانها نايم ع الأرض جنبها كأنه كلبها الأمين. كان شكلها من بعيد زى صورة من ريشة رومنى. طلبتها رقصت معاية.

رقصنا كام مرة حوالين الصالة وبعدين خطر لى أسألها عن الستات العواجيز اللى قاعدين ع الشمال. قالت لى أن دول شابيرونات مش جايين يرقصوا انما جايين يحرسوا البنات اللى ف الرقص. فهمت كمان منها أن كل واحدة من الستات العواجيز دول - واخدة بالها تماما إذا كانت بنتها أو بنت أختها أو بنت عمتها رقصت مع «الفارس» بتاعها مرتين وتلات مرات، عشان مفروض ان البنت ماترقصش مع شخص واحد مدة طويلة. سألتها ليه، قالت لى أن الولد والبنت إذا رقصوا مع بعض مدة طويلة يمكن يبتدوا يستلطفوا بعض ويعملوا علاقات ودا مش كويس. قلت معقول وابتديت أصلح الخطوات بتاعتى ع المزيكة وأرقص كونجا زى خلق الله بعدما بوظت لها جزمتها من كتر الدوس والتكعبيل.

دى كانت ليلة الكريسماس . الساعة واحدة زهقت من الرقص رحت واخد الاشارب والبالطو وعبده فراج وخرجنا من عمودية الحى اللاتينى ودخلنا سينما بول ميش سينما حقيرة بأربعة خمسة فرنكات لكن سهرانة للصبح أنا فاكر تمام ليلتها كان فيه رواية لدانييل دارييه مع هنرى جاراه اسمها «ولد شقى» فى نص الفيلم حصل عطل كبير فى العدة. ياسلام ع الدوشة والتصفير والخناق اللى عملوه الزباين تمام زى الترسو بتاع سينما أوليمبيا

فى مصر لما يقولوا هاتوا فلوسنا، سيما أونطة. قلت فى عقلى الحاجات دى مش ممكن تحصل فى انجلترا. العطل جائز يحصل لكن النظام قبل كل شيء. أنا متأكد أن لولا العدة مشيت تانى لابد كان حصل ضرب وشوشرة. لكن جت سليمة، وشفنا الفيلم لحد كلمة انتهى .

أنا طبعا كنت مبسوط من الهوسة دى، أهو كله هيصه.. ولما خرجنا من السنما كان باقى ع الفجر حاجة بسيطة قلت بلاش نوم. صاحبى سابنى طبعا لانه راجل موزون بيفكر فى عواقب السهر ولانه زهقان من باريس. دخلت الدييون لاتان لقيت النور اللى فيه ينور محل زى جروبى والامريكين الجديد والامريكين القديم كلهم مع بعض أسبوع كامل. الواحد منين مايلاقى نور ضرورى يلاقى ظلال لكن دا من كتر النور تزويقه محى الظلال. حتى ترابيزة البلياردو كنت تقدر تقعد تحتها وتقرا قعدت مع ناس ما اعرفهمش والناس اللى ما اعرفهمش لبسونى طرطور.. قعدت أشرب كوكتيل ورا كوكتيل واخطف طراطير الناس لحد الخيط الأبيض ما بان من الخيط الأسود. والميكروفون بتاع القهوة بيغنى اسطوانة واحدة مافيش غيرها لموريس شيفالييه كل ما تخلص تتعاد أربعة وعشرين ساعة فى اليوم. وفى الفجر قعدت اشرب

قهوة بيضا ورا قهوة بيضا لحد صوت المترو اللى فايت تحت نهر السين ما قال لى ان عيد الميلاد انتهى وحركة المرور فى شارع سان ميشيل قالت لى قوم وخد حمام وأعمل عمل منتج .

بعد كدا بقيت أروح السوربون لوحدى وألور وأدعبس علي خفايا باريس ومعالمها من غير دليل.. شوية شوية استغنيت عن الأستاذ مندور لدرجة أني بقيت أروح الضواحي لوحدى. مرة مثلا كنت في السوربون العصر بأسأل عن مقررات ونظام المحاضرات عشان ما أقارنه بالتعليم الانجليزى وهناك اتعرفت بواحدة ست فرنساوى عمرها حوالي خمسة وأربعين سنة الغريب بيبان عليه وأنا كنت ساعتها دايخ وباسأل.. صاحبتنا رأفت بحالي ومشيت معايه وفرجتنى على كل الانفتياترات والحتت اللى كانت فاتحة وشرحت لى كل حاجة أنا عاوز أعرفها.. بعد كدا لقيت أنه من الذوق أني أقول لها تجي تاخد شاى معايه.. رحنا باتيسيرى قصاد الديبون لاتين وهناك عرفت منها أن اسمها مدام تورليه وأنها بتحضر محاضرات الأدب بانتظام وأنها متجوزة موظف كبير فى وزارة الاشغال وعندها بنت اسمها فرنسواز عمرها خمستاشر سنة وانهم ساكنين ف ضاحية مونروج وانها عايزانى أقابل جوزها واخد شاى معاهم فى بيتهم أخذت العنوان وبعد

يومين رحت بنفسى مونروج وتهت خمس ست مرات فى السكة، ان كان فى المترو والا فى الشوارع وفى الآخر برضه وصلت فى الميعاد بالضبط.. عرفتنى بعيلتها واحد واحد والجماعة كانوا لطاف قوى معايا لكن حسيت طول الوقت كأنى لابس تشريفة أو كأنى وزير مفوض فى حفلة رسمية. مدام توزليه طبعا عملت كل اللى تقدر عليه عشان تخلينى أحس انى فبيتى لكن الحقيقة أنا اتلبخت .. أكتر حاجة لبختنى طبعا كانت فرنسواز.. أول ما دخلت الصالون أمها قالت لى ..

- دى فرنسواز بنتى ..

أنا مديت ايدى شويه عشان أسلم عليها بصيت لقيتها مسكت فستانها اللى مليان كشاكيش من الجنبين وراحت نازلة على الأرض على نص ركبة.. رحت ساحب ايدى بسرعة واتلخمت ماعرفتش اعمل ايه.. ياترى المفروض انى اطلع مونوكل واحطه على عينى واخبط الكعبين فى بعض واحنى راسى وأقول «انشانتيه» زى ما بيعملوا فى الروايات.. ياترى مفروض انى اخد أيدها فى ايدى وارفعها لشفايفى واطبع عليها بوسة مؤدبة وأقول بشكل دراماتيك «مدموازيل خدامك المطيع» زى ما باأشوف جورج ساندرز بيعمل ف السينما قلت كلمتين بالفرنساوى ماحدش

سمعهم معناهم أنا سعيد اللى عرفتك يامدموازيل وصوتى اتحبس دقيقة وحسيت انى كل كرسى فى الصالون بيزعق فى .. همجى باربار .. لكن المسألة انتهت بسلام لان مدام تورليه بسرعة قدمت لى سيجارة وعرضت على أنى أتفضل أقعد.. كان واضح ان عيلة تورليه بورجوازية مافيهاش دم ازرق ولا حاجة والحال كان من بعضه .. لكن شوف ازاى البورجوازية لما تقوم فى بلد تقوم تعمل التقاليد بتاعتها وحتى تسرق حاجات كتيرة من طبقة الاشراف اللى هيه هدمتها فى الثورة الفرنساوية لما الحكاية هديت شوية أنا كنت لسه با أفكر فى الموضوع .. فكرت فى الطبقة المتوسطة بتاعت مصر ازاى ظهرت لما محمد على فتح ديوان الأفندية اللى بعد كدا تتطور وأصبح الحكومة المصرية، وازاى قعدت ميت سنة فى البلد من غير ما تعمل لها تقاليد ولا شكليات ولا حتى صفات عامة تميزها عن بقية الطبقات .. دا سر لبختنى فى الحقيقة. والموقف كله كان عبارة عن واحد بورجوازى عتيق بيلعب على واحد بورجوازى جديد.. بعد ربع ساعة اتنقلنا بزينا للسفرة عشان الشاى، ورع الشاى قعدنا نتناقش فى الأدب. والفروق بين راسين – وشكسبير .. موضوع غريب شوية. طيب أنا معقول اتكلم فى موضوع زى دا ومدام توليه كمان عشان بتروح السوربون فى سنة

خمسة وأربعين.. لكن مسيو تورليه مهندس الكبارى ايش عرفه بالحاجات دى ؟ اسأل أنت واحد مدير أعمال فى الرى والا مأمور جمرك فى مصر يقولك يا ابنى أنا مهندس أو دكتور أو أى حاجة وماليش فى الأدب. روح أسأل أستاذ فى كلية الآداب. الحقيقة الموقف كله كان غريب شوية . ابص للست اللى قدامى وأفكر فى بنات الجامعة فى مصر ازاى بيدخلوا الجامعة لحد ماتجى لهم جوازه وأول مايجى العريس يسيبوا الجامعة فى نص السكة ودى اللى قدامى شعرها ابتدا يشيب وبنتها على وش جواز ولسه مثابرة ع التحصيل فرنسواز مافتحتش بقها طول الوقت ما أعرفش ليه.. قلت يمكن من باب الاحترام للجامعة الكبار اللى قاعدين.. قلت يمكن ماعندهاش حاجة تقولها مسيو تورليه قال انه يفضل راسين طبعا، وأنا قلت أن أفضل شكسبير طبعا ومدام تورليه مسكت العصاية من الوسط وقالت حاجة معناها انها تفضل الاتنين على بعض ان كان دا ممكن.. هى طلعت اعقلنا بطبيعة الحال، وباقيين مافتحوش بقهم مدة ساعتين.. أنا ما استغربتش ان مسيو تورليه أو أى واحد فرنساوى محافظ فى ثقافته يفضل راسين على شكسبير.. أنا كنت عارف أن أهمية راسين فى فرنسا زى أهمية الدستور الانجليزى فى انجلترا.. آدى زيادة عن عشرين

سنة واحد اسمه مسيو فوشوا كان عامل سلسلة محاضرات عن راسين في تياترو الاوديون بباريس وانتقده نقد شديد وحتى قال أن فيكتور هيجو في حاجات كتيرة أحسن منه، قام الجمهور اللى بيسمع اتحمس قوى وانقسم صفين. صف مع راسين وصف مع هيجو وهات ياضرب في بعض.. بعد كدا البوليس حاصر الاوديون ومادخلش الناس الا بتذاكر.. دا يوريلك معني راسين عند الراجل الفرنساوى المحافظ.

بعد ساعتين كنت تانى فى الشارع با أتحسس طريقى لباريس وفي المترو قعدت أفكر فى اللى شفته وسمعته ..

زى أغلب المصريين اللى على نياتهم أنا كنت فاكر أنا فرنسا بلد الاباحة والحرية اللى مالهاش حدود.. بعد ماشفت بنات الأسر فى عمودية الحى اللاتينى رايحين الرقص محروسين بقرايبهم عرفت أن فيه حاجات في فرنسا أنا مش فاهمها سألت الناس اللى بيفهموا قالوا لى ان فرنسا مش باريس.. عرفت أن الفرنساويين شعب محافظ زى أغلب شعوب البحر الأبيض المتوسط أو على الأصح زى أغلب – الشعوب الزراعية وبالأخص فى الريف .. عرفت أن الحرية اللى بيحكوا عنها دى فى باريس ليس الا لأن باريس عاصمة العالم اللى عاوز يتفسح ومدينة معمولة للاستهلاك الخارجى عرفت ان فى الجنوب بتحصل أحيانا

حوادث قتل إذا بنت سلوكها خسر شوية زى ما بيحصل عندنا فى الصعيد.. وكل مرة أعيش فى فرنسا واختلط بالناس المعقولين أنسى قلب المترويوليس وأفهم ازاى العالم واخد فكرة غلط على الفرنساويين.. أنا بس أنكر الحاجات دى عشان الناس المخدوعين اللى بيقولوا ان فرنسا اتهزمت فى الحرب من كتر الفساد الخلقى..

زى أغلب المصريين الى على نياتهم برضه أنا كنت فاكر الانجليز أكتر شعب يحب الشكليات عشان قضاه فى انجلترا لسه بيلبسوا شعر مستعار وتلامذة الجامعات بيلبسوا روبات وحراس برج لندن بيلبسوا نفس البدل اللى اسلافهم كانوا بيلبسوها فى عصر أسرة تيودور عشان الحياة العامة الانجليزية مليانة طقوس ومراسيم ، القضاة مايفتحوش الدورة القضائية الا بموكب .. عمدة لندن يزفوه فى السنة مرة .. عمدة ما أعرفش ايه يوزنوه بالميزان.. لكن بعد ما اختبرت الحياة الفرنساوية عرفت أن الفرنساويين شعب يحب الشكليات خالص.. أنا طبعا ما با أفكرش فى أسرة تورليه اللى مليانة انحياءات وابتسامات ولا فى فرنسواز الصغيرة وهى بتسلم على طريقة القرن التاسع عشر.. أنا بافكر فى عشرين أسرة تانية احتكيت بيهم وشفت فيهم دقة متناهية فى السلوك الاجتماعى.

النهـارده الصـبح با افـتح المذكرة بتـاعـة ١٩٣٨ لقـيت فـيـها حـاجـات لطيـفة قـوى لكن مش مـهـمة وشـخـصـيـة ومـا فـيش داعى أدوشك بيـهـا.. إذا كنت عـاوز تعـرف نوع المغـامرات بتـاعـتى ف باريس هـا اديلك امثلة ..مكتوب ف النتيجة .. التلات ٢٧ ديسمبر.. الليـلة قـابلت مندور وطلعت اباظة بعد العـشـا ورحـنا سـوا كـاباريه شـانغـهـاى وبعـد نص الليل رحـنا مـونبـارناس وقـعـدنا ف قـهـوة الكوبول وشربنا شوية ..

الأربع ٢٨ ديـسـمـبـر النهـارده قـابلت ابراهيم صـفـوت بتـا ع كامبريدج ف بولفار راسباى وعرفته بعبده فراج.. الساعة سبعة ونص عزمنى إبراهيم عبده ومدام عبده وعلى عيسى ومدام عيسى واتعشـينا كـسكسى ف قـهوة اسـمـهـا الكتـيبة ف شـارع اسـمـه المدارس بتاع واحد مغربى اسمه عبد القادر .. القهوة زى الفرزة تمامـا .. واحنا بناكل جم اتنين شـبـان من تونس وشـاب ارمنى وقعدوا يغنوا ع العود ف منتهى السخافة كمان غنوا النيل نجاشى والهوى والشباب وحب الوطن فرض على أنا ملاحظ ان فيه مجهود عشـان الجمـاعـة دول يوجـدوا جـو شـرقى لكن الطريقة غلط جت واحدة رقـاصـة تركيـه مش احسن من أى بنت عند بديعة وقـعدت تهز ف نفسـهـا شـوية.. طبوا علينا شـوية انجليز سـواح طبعـا،

عشان يتفرجوا ع الرقص الاورينتال انا قرفان.. طلعنا من الكتيبة ورحنا قهوة السورس ف شارع سان ميشيل لقينا شلة المصريين وواحد عراقى بيتناقشوا ف الوحدة العربية ..

الخميس ٢٩ ديسمبر دخلت تياترو الأوديون وشفت «حانة مكسيم» رحت الديبون وقعدت جنب بنتين .. قالوا لى أنهم كانوا بيشتغلوا ف مصنع شربات ودلوقتى مش لاقيين شغل .

الجمعة ٣٠ ديسمبر مندور اخدنى جامع باريس.. العمارة لطيفة لكن فيه خمارة جنب الجامع اتغدينا ف مطعم صينى ورحنا ريفولى واللوفر والشانزليزيه ..

السبت ٣١ ديسمبر قابلت داود فودة ،، بتاع كامبريدج واتفسحنا ف كاباريهات مونبارناس .

الحد ١ يناير عزمت عبده فراج ومدموازيل ماس فرير ع الشاى ف قهوة تريوف ف الشانزليزيه .

الاثنين ٢ يناير اخدنى عبده فراج الكوميدى فرانسيز وشفت مفاجأة الحب.. بتاع ماريفو والمريض الموهوم .. بتاع موليير ..

التلات ٣ يناير رحنا حوالى عشرين مصرى محطة ليون نودع الملكة نازلة والأميرة فوزية لقينا حوالى خمسين شاب ايرانى واقفين صف ومتحمسين خالص .. ابراهيم عبده كان لابس

طربوش وحده وكان شكله غريب.. مجعنا الديبون ولعبنا كونكان دكـرورى ومـدام ابراهيم عـبـده ووديع عـبـد الملك وربيع غـيث والمرجوشى قمت خسران ..

الاثنين ٩ يناير مندور اخـدنى يفـسـحنى طول النهـار .. رحنا كنيسة المادلين وكنيسة السـاكركير ودير اليندكتين اللى جنبها اخدنا الشـاى ف بلاس دى ترتر شيك الماهية معايه ومش عارف اصـرفه.. رحت بنك باركليز ف شـارع ٤ سبتمبر وقلت له على اسمى وكليتى قام اخد الشيك وعطانى خمسة جنيه وحول الباقى ع البنك بتاعى ف كامبريدج أنا أرفع برنيطتى لمدير بنك باركليز ف باريس، لو كان دا مصرى كان خلانى أجيب السـاعى بتاعى عشـان يضـمنى على حواله بجنيه . على عيسى ومدام عيسى اتعشوا معاى ..

التـلات ١٠ يناير ف الصـبح مندور قـابلنى ف التـروكـاديرو عشان يفرجنى على متحف الفن الحديث مالقيناهوش . طلعنا برج ايفل واتفسحنا ف غابة بولونيـا.. بعد الظهر عبده فراج اخدنى يفرجنى على مدينة الجامعة .

الاربع ١١ يناير النهارده الصبح عبده فراج اخدنى فرساى بعد الضهر رحت واخد شاى عند مدام تورليه ف مونروج ..

الخميس ١٢ يناير لعبت كونكان ف الديبون وقمت خسران .

الجمعة ١٣ يناير رجعت النهارده انجلترا ولما وصلت كامبريدج مالقيتش صاحبة البيت ف البيت قام نمت ف بولز هوتيل ...

دا التاريخ المكتوب .. لكن التاريخ اللى مش مكتوب اطول من كدا بكتير فيه صفحات جميلة وصفحات مؤلمة وصفحات مخزية .. أنا لما أقول لك مثلا ان مندور اخدنى الساكركير ولا عبده فراج اخدنى فرجنى أهى دى جملة انت تقراها وتعدى.. لكن عندى انا ، ف عقلى انا دى كنز من الصور الدهبية والذكريات اللى بتدى طعم للحياة . كما لما أقول لك انى النهارده رحت الديبون تقول ف عقلك وإيه يعنى مش يعنى رحت قهوة وقعدت فيها ساعتين وقمت.. لكن ف عقلى أنا دى بداية حكاية طويلة محزنة.. بلاش اذكر اسامى وكل واحد عارف نفسه.. أنا كنت اروح الديبون الساعة اتنين الضهر اللاقى الدور الفوقانى فيه جماعة مصريين اغلبهم من اللى بيتعملوا على حسابهم اجفانهم مليانه نعاس قاعدين بيتغدوا وبعد ما بيتغدوا يلعبوا بوكر لحد الساعة سبعة والساعة سبعة يطلبوا عشا وبعد العشا يلعبوا بوكر تانى لحد الساعة اتنين .. لحد ما بيجى رئيس الجرسونات ويقومهم بالعافية وينزلوا من الديبون ع الباتيسرى اللى قدام الديبون لزق ويشتروا اربع خمس دست

جاتو، وبعدين يفردوا رجليهم لحد بلاس جيسييه وهناك يسيبوهم واحد واللا اتنين ويرجعوا ومعهام حتة حشيش وبعدين الشلة كلها تنتقل لبيت واحد منهم ويفضلوا يكركروا ف حتة الحشيش ساعتين وف الآخر واحد منهم يقف على رجليه ويقول للاخوان ..

– عن اذنكو بقى .. انا عندى معاد مع البت بتاعتى الساعة خمسة ف مونبارناس ..

الحكاية دى كانت تتكرر كل ليلة تقريبا انا فهمت.. اول ما اتعرفت بالشلة دى وعزمونى من غير ذكر التفاصيل قلت مافيش مانع، اهى كلها فرجة على باريس .. ولما عرفت اللى فيها قعدت اتفرج ف منتهى الأدب والاستعجاب . ورحت تانى عشان اشوف مفاجأة جديدة ماحصلتش مفاجأة عرفت ان دى كل حاجة عندهم .. طبعا النوع دا مافيش فايدة انك تنصحه شاب عمره خمس وعشرين سنة ومدمن مخدرات ومدمن قمار ومافيش فايدة تناقشه.. ابسط حاجة فيها يقول لك وانت مالك يا بارد .. الشخص اللى صاحبته تدى له مواعيد الساعة خمسة الصبح ف قهوة تبقى صاحبته دى ايه ؟ لازم ست بطالة ويبقى هوه ايه ؟ لازم راجل بطال ...

المسألة دى مهمة عشان الطلبة المصريين اللى بيعملوا الحاجات دى كتار ومش ف فرنسا وحدها.. النادى المصري الملكى ف لندن مثلا فيه أودة اسمها البريدج زى الدور التانى بتاع الديبون تمام.. برضه تلاقى فيها شلة او شلتين قايمين نايمين فيها .. النادى يشطب الساعة عشرة ينزلوا جماعة ويروحوا يتعشوا ف الكورنر هاوس بتاع الماربل ارش، ومن هنا يروحوا يتعشوا ف الكورنر هاوس بتاع الماربل ارش، ومن هناك يروحوا يكملوا السهرة ف بيت واحد فيهم، غالبا لحد الصبح اهم دول يروحوا انجلترا ويقعدوا اربع سنين مايستفيدوش بنكلة من وجودهم ف انجلترا ...

قعدت ف باريس تلات اسابيع وأنا ع الحال دا .. كل يوم ليه رحله وكل ليلة ليه جولة وكل دقيقة تفوت عليه لازم اطلع بحاجة . تعرف لما كنت الاقى نفسى قاعد مع جماعة نص ساعة ف الحى اللاتينى ومابنعملش حاجة، أقول لهم عن اذنكوا ياخوننا واتمشى تلات دقايق لحد محل «شانتكلير» بتاع الاسطوانات ف شارع سان ميشيل واشترى شوية ماركات احطها ف عدة ليها سماعات زى بتوع التليفون واحط السماعات على ودانى واسمع السمفونية الخامسة بتاع بيتهوفن بخمسة ستة فرنك .. أو أوصل لحد جنينة

لوكسمبور واقف افترج ع التماثيل واحد واحد. أو ألف حوالين البانتيون اشوفه مركب ازاى واعد عواميده واملأ رئتى من جو الخالدين .. ومن كتر الانهاك أخدت انفلونزا شديدة ومع ذلك بقيت داير اكح واعطس ف الشوارع وابلع البرشام ع الواقف كأنى باكل جيلاتى عند توت عنخ أمون .

أهى باريس زى ما باوصفها دلوقت مش باينه زى الشاطىء المسحور انما زى الدوامة اللى تخلى الواحد يلف حوالين نفسه لحد ما يقع من الدوخة، اهو أنا ف تلات اسابيع شفت كل حاجة مهمة ف باريس، شفتها خطف ، زى السايح اللى اتفتحت قدامه مرة واحدة كنوز المصريين ونفايس الهنود قام عنيه زاغت وشاف كل حاجة وماشافش حاجة حتى العواميد الرومانية اللى ف الحى اللاتينى شفتها وقعدت ع القهاوى السحرية اللى ف افينى فاجرام ، برضه المرة دى باريس فاتت على زى مائدة اريل ، لكن لازم اعترف انى اكلت منها على قد ماقدرت .

بعد كده رجعت باريس تانى وقعدت فيها بالشهور بقيت زى الجواهرجى اللى يمسك حتة الماز ويحقق فيها كويس وان لاقاها فالصو يرميها على جنب. رحت فرساى ورحت ماليزون . مارحتش فرساى عشان اتفرج على صالة المرايا او البانيو بتاع لويس

الرابع عشر. مارحتش ماليزون عشان اتفرج على سرير نابليون والريجاليا بتاعت الامبراطورة جوزفين .. انما رحت عشان اشوف الفرق بين فرنسا الملكية وفرنسا الجمهورية .. بين فرنسا عهد الاشراف وفرنسا بتاعت حكم الطبقة المتوسطة رحت اشوف الثورة الفرنسية عملت ايه ف الفن الفرنساوى واعرف فرنسا كسدت ايه وخسرت ايه من الدوشة اللى عملتها سنة ١٧٨٩ وصدعت اركان الحضارة . الناس المحافظين زى ت . أ . هيوم دايما يتصوروا الروح الفرنساوية الأصلية مصبوبة ف شعر راسين وف العمارة الكلاسيك وف النظام الملكى، ويعتبروا ان ادب فيكتور هيجو وطالع والحالة السياسية ف فرنسا من روبسبير لحد دلوقت حالة حمى وهذيان كل املهم ان فرنسا تشفى منها ، أنا لما كنت ساكن ف ٨٣ بولفار برتييه ف شامبريه كان ساكن ف نفس البنسيون معاى واحد فرنساوى ملكى اسمه مسيو موران الجدع دا كان شاب مثقف قوى طول ماكنا مع بعض كان مستنى شغلة ف الكونغو البلجيكية وكان يكره النظام الجمهورى قوى. الصنف دا ف فرنسا نادر والحزب الملكى ف فرنسا ضعيف . كل ما كان الموضوع يتفتح كان اخينا دا يتحسر على حضارة الاشراف اللى

سابت لنا فرساى وجناين التريانون واللوفر وفونتنبلوا شنانسو والكاتدرائيات اللى مالهاش مثيل.. وكان دايما يختم كلامه بالحجة المعروفة ..

– إيه يعنى اللى استفدناه من الجمهورية .. من يوم ماعرفناها والفن بينحط كل يوم درجة.. مش هيه الحرية السياسية والاقتصادية اللى بيقولوا عليها ؟ وفين هيه الحرية دى ؟ دا كلام فارغ.. ايام لويس الرابع عشر فرنسا كان حكامها ميتين شريف من ملاك الأراضى ودلوقت فرنسا حاكمها ميتين بنكير من أصحاب المصانع والمولين والمحامين والمهوشاتية .. هيه فين الحرية دى والمساواة دى والاخاء دا ؟

أنا طبعا ماعنديش نيه اناقش كلام جارى القديم مسيو موران ، انا شخصيا افتكر انه غلطان حتى بعد مارحت اتفرجت ع الماليزون افتكر انه غلطان، انا أفتكر ان فرنسا كسبت اكتر مما خسرت لكن أنا موافق معاه ف حاجة واحدة بس . ان فرنسا خسرت كتير لما هدت عرش ملك الشمس واخلاقه . ماليزون بعد فرساى زى بيتنا بعد سراية عابدين. رحت فرساى لقيت الباب ملكى والقصر ملكى وكل عامود وكل بهو وكل رخامة وكل كورنيش بينطق ويقول: هنا مجد فرنسا. وأنا ماشى فى الاجنحة اللبرنتيه

الفخمة كنت اسمع كل حيطة تهمس.. انا صحيح عمرى اربعتلاف سنة والاصباغ اللى على مش هاتتحدى الزمان لكن شوف السقف المدهب اهو دا زى ضفاير مدام دى بومبادور ، شوف الكراسى المندشة دى مش بتفكرك بالدوقات الجميلات اللى صدرهم عالى ورجليهم ادب وتكلف وسمر ودعارة بيتسموا وينزلوا على نص ركبة ويرقصوا مع رجال الدولة المروحة ف ايد والايد التانية بتدس ف الخفاء وتحرك خيوط السياسة.. شوف البلاط المرمر دا مش بيفكرك ببلاط الملك اللى كانوا يقعدوا طول الصباحية يلبسوا ويتحففوا وطول العصرية يتناويوا ويتنشقوا ويتبارزوا وطول الليل يشربوا ويغازلوا الستات من ربات الخدور لحد الفلاحات بتوع الغابة أتأمل الفرسكو اللى ع السقف دا، ياما أتأملته مدام دى بارى من قبلك . اخش هنا الاقى المريخ اله الحرب صالون وأشوف الأساطير الرومانية مرسومة ع الحيطان . اخش ها ألاقى الزهراء الهة الحب ايها صالون اقوم اقول أهو دا اللى شاف ملك الشمس من المانتوفلى بتاعة بعد الدولة ماتنام والحاشية تستأذن بيعرض كل العواطف المبتذلة زيي وزى الجناينى اللى بيسقى الورد وزى الكناس اللى بيلم الزيالة .

رحت ماليزون لقيته عامل زى فيلا ريفيه بس كبيرة من الفيلات اللى بيسكنوها الانجليز فـ المستعمرات بيضا وواطية وشبابيكها خضرا وسقفها مدبب.. بيت متواضع يقول لك أن عصر الفخامة والارستقراطية انتهى.. وجوه البيت اثاث نوم تلاقى زيه فـ بيت موظف درجة تانية فـ الحكومة المصرية وصور زيت وغيره للامبراطور والامبراطورة ولهورتنس وجوزها وبقية العيلة مالهاش اهمية فنية وكراسى بسيطة وبساطتها مافهاش جمال تلاقيها برضه فـ عالم النجارة بيسموها «طراز الملكة آن» تلاقى شوية سيوف واسلحة فيه زيها فـ مدخل وزارة الدفاع عندنا. انا ماباقولش ان الماليزون وحش. ماليزون بيت له شخصية زى فرساى وفونتنبلو تمام.. لكن دى شخصية انسان عملى دايما مشغول ومش فاضى لافراح الحياة ...

قلت فـ عقلى الناس اللى ماتوا فـ حروب ملوك البوربون كلهم مع بعض مايجوش قد الناس اللى ماتوا فـ حروب نابليون . تبقى فرنسا استفادت إيه من الانتقال ؟ مدام حرب فـ حرب واستبداد فـ استبداد وفقر فـ فقر يبقى احسن الشعب يقدم احسن شبابه واغلب موارد وكل حريته لعاهل يبنى بيها قصور وكاتدرئيات من انه يديها لعاهل يبنى بيها مدافع. سمعت طالب فـ كلية الحقوق فـ

باريس من اللى بتلمع على صدر مارى انطوانيت دى دموع فرنسا الأسيرة . قلت له تعرف المدافع دى كلها اللى بتزمزم على تلوج روسيا دى دماء فرنسا الجريحة . طبعا الحرب اذا نجحت برضه بتجيب فلوس وتزود كبرياء الشعب المنتصر ودا عند بعض الناس كفاية.. لكن عندى انا مش كفاية، لأن الانتصار الحربى مهما كان ساحق مش ممكن يستمر على طول . كلها حسبة عشرين تلاتين سنة المهزوم ياخد بتاره ..

بعد الكلام دا كله برضه اقول لمسيو موران إن الثورة الفرنسوية كان لازم تحصل والبوربون لازم ينزلوا . اقول له ان العالم مش ضرورى ينزف دم عشان يبنى هرم او شاتو أو كاتدرائية .. الحاجات دى لطيفة لو كان تمنها معقول .. الغلطة مش ف الهدم انما ف البنا.. بيت خربان اهدمه وابني غيره. وإذا ماعرفتش تبنى بيت احسن منه دا ماينفيش ان البيت الاولانى كان لازم يتهد دا معناه بس ان البيت الجديد نفسه لازم يتهد واننا لازم نحاول نبنى بيت تالت احسن من دا ودا .

مادام حكيت لك عن مسيو موران لازم احكى لك عن بقية الجيران بتوعى ف شامبريه لأن كل واحد فيهم كان له شخصية تستحق الوصف وبالأخص إنهم كانوا من جنسيات كتيرة . كان

فيه واحد بلجيكى وواحدة نمساوية وواحدة يهودية وأسرة من شيلي وأسرة من بارجواى . أولا البنسيون بتاعى كان صاحبه راجل اسمه فاندنبوش . فاندنبوش دا كان عارف شغلته تمام وطول الوقت بيبتسم ف ادب ويسألك آذا كنت عاوز حاجة .. بس كان فيه عيب واحد، انه بياخد ع الحمام تمانية فرنك يعنى حسبة اربعة صاغ وتمانية مليم.. بصيت لقيت ان الاستحمام بقت له ميزانية لوحدة ١٤٠ صاغ ف الشهر . اضطريت استحمى كل يوم والتانى .

الراجل كان فرنساوى طبعا لكن اسمه يدل على انه من اصل هولندى المانى .. مسيوى فاندنبوش ، كان تخين ومليان حياة ومتجوز اما مدام فاندنبوش فكانت نحيلة وطبعها عادى ومتجوزة مرتين . مدام فاندنبوش قالت لى أن جوزها الاولانى كان تركى وانه كان زى ماوصفته «جراى» يعنى يحب ينتقل بين الستات وعشان كده طلقته . الست دى دايما كانت لطيفة معايه وعمرها ماجرحت شعورى الا مرة واحدة من غير ماتقصد، كان يوم ١٤ يوليو ونزلت اتعشى زى العادة فى صالة الاكل قبل ما اطلع اتفرج علي هيصة عيد الحرية ف باريس ، لقيت كل الناس اللى ساكنين ف البنسيون بيتعشوا ف وقت واحد علي غير عادتهم، ساعتها

كنت عازم واحدة صاحبتي ع العشا ولقينا الاكل الطف من كل يوم كمان كان فيه جو بتاع مرح اكتر من كل يوم فاندنبوش ومراته كانو ا لابسين شيك عشان عيد الحرية وجابوا لنا ديوك رومى عشان عيد الحرية، بعد الأكل ماخلص مدام فاندنبوش ملت كاسها شمبانيا ووقفت وقالت لنا :

- نخب تحيا فرنسا ...

ووقفنا ورفعنا كاساتنا وشربنا نخب فرنسا الحرة وقعدنا بعد دقيقة الست وقفت تانى وقالت :

- تحيا بلجيكا .

وقفنا وشربنا ، طبعا انا فهمت ان دى تحية للساكن البلجيكى واضطريت شوية مستنى دورى شربنا كمان نخب شيلى وبارجواى، وف الآخر مدام فاندنبوش قالت :

- تحيا تركيا .

الموجودين وقفوا وشربوا نخب تريكا وقعدوا ، أنا بصيت لصاحبتي وماقمتش وماشربتش وبان على الاشمئزاز .. وماصدقت الهيصة خفت شوية رحت خارج وقلت لها ياللا علي مونمارتر نتفرج ع الدنيا ف المترو، قعدت معكن وف الشوارع مشيت معكن، اكلنا اسباجتى ع الواقف وشربنا نبيت ع الماشى

النبيت لعب ف دماغي الوجوم بتاعتي فين وفين عند نص الليل النبيت لعب ف دماغي والمزيكة اللي ماليه الجو نسيبها ف بلاس بيجال نلاقيها ف بلاس بلانش ونسيبها ف روشوشوار نلاقيها ف شارع فونتين ، ع الترتوار ناس بيتنططوا من الحرية ومن الحرية ف وسط الشارع الناس بيرقصوا زى جماعة اغريق سكرانين ف عيد من أعياد باخواس .. وف قهوة ديبون راجل بكونسربيتا يفوت على كل ترابيزة شوية وف الحوارى الضلمة راجل ببنطلون مرقع بمزيكة يد يطلع عليك على غفلة ويوقفك ويسمعك فالس ويمشى من غيرما يطلب حسنة، بس اكراما لعيد الحرية، حتى سواقين التاكسيات لقيناهم هاديين مابيتخانقوش ، دخلنا محلات النيشان ونشنا وماكسبناش حاجه، دخلنا السفيرة عزيزة وطلعنا مبسوطين السرور لما كتر قوى نسيت اللى حصل ف البنسيون واندمجت ف روح الجماعة ، الساعة تلاته وأنا لسه بارقص ف ميدان بيجال ، ف نفس الميدان ، مش ف كباريه ف الميدان ، لتسقط الرزانة صاحبتي لما شافتني هايص فتحت الموضوع .

- أنت كنت زعلان ليه ف أول الليل ؟

أصل مدام فاندنبوش مرة غبية دى كانت متجوزة واحدة تركى وطلقته ، ويظهر انه كان مفهمها ان مصر مستعمرة تركية أو يظهر

انها فاهمة أن مصر مديرية ف تركيا، عشان كدا شربت نخب تركيا بدل ما تشرب نخب مصر ، أنا عارف انها كانت عايزة تجاملني مش تجرح احساسى ، على العموم سيبك، المسألة بسيطة ...

المسألة كانت بسيطة طبعا الساعة تلاته الصبح ف عيد الحرية، كان فيه حاجات اهم منها، كان أهم منها ساعتها ان الكاسين اللى اخدتهم مايطيروش من دماغي ، كان أهم منها أني اجمع السعادة كلها اللى طايرة ف جو مونمارتر ، وأخبيها ف صدرى لحد الصبح، كان أهم منها أني أعمل حلم ذهبي عشان لما أنام احلم بيه ولما اصحى ف الضحى ابتسم للسرير اللى ف الاودة حتى لما رجعت البيت ف وش الصبح سواق التاكسى كان باين عليه مشعلل من الخمرة لدرجة لما بادى له الفلوس قال لى ماتخلى، زى اولاد البلد ما بيعملوا فرنك وقلت له تحيا الحرية .

الناس ف ١٤ يوليو مابيفكروش غير الحرية وبينسوا الاخاء والمساواة حاجة تحزن ، لكن ماعهلش بلاش ازعل نفسى بالافكار دى ، ليلتها نمت على يمينى ملاك وعلى شمالى ملاك لكن تاني يوم الصبح اول حاجة عملتها كانت أني دورت علي مدام فاندنبوش واتأكدت انها فايقة وشرحت لها الموقف بتاع الليلة اللى قبلها وقلت

لها أن أنا زعلان خالص، اللى اتصورته كان مظبوط ، برضه الست كانت فاهمة ان تركيا ومصر دول حاجة واحدة، واعتذرت وكل حاجة بقت صافية لبن ...

غير مسيو ومدام فاندنبوش كان فيه من سكان البيت الثابتين والخدامة البرتين، دى كانت بنت حلوة قوى قوى دايما اشوفها بمريلة بدنتلا على فستان اسود وعمرى ماكلمتها وكل اللى اعرفه عنها انها قبل ما أمشى أنا بشوية هيه مشيت عشان تتجوز واحد قريبها فلاح، بعد البرتين بيجى الطباخ ، مرة واحدة بس شفته - شفت ظهره - ولسه فاكره لحد دلوقت ، مرة كنت قاعد لوحدى ف الصالون الساعة تلاته بعد الظهر ف ركن الاودة اللى ما يبانش وفاتح الراديو وباسمع حتتين لروسينى وحتتين لفيبر ، أنا فاكر تمام ، كانوا افتتاحية حلاق اشبيليه والطير السارق والدعوة للفالس والمزة التاج ، صاحبنا دخل الصالون ياخد الكوتشينه ويظهر انه افتكر نفسه لوحده راح وقف واتكأ ع الشباك وقعد يبص ع الناس اللى فايتين ف الشارع ويصفر ، قعد يصفر نص ساعة مع الراديو وماغلطهش ولا غلطة ، عرفت انه حافظ الادوار دم صم من زمان اللى زى دا يمكن كمان يعرف يلعبهم ع الكمنجة زى مابيصفرهم، ولما الالحان اختفت الطباخ كمان اختفى من

الصالون ، واختفى من حياتي وما أعرفش ايه اللي حصل له بعد كدا، قلت امتى ييجي اليوم لما الناس عندنا يبتدوا يدوروا ع العواطف الصحيحة اللي بتفتت قلب الانسان مصحوبة ف سيمفونية والا اوبرا ويشوفوا الافكار العميقة ف العاصفة والجبل والبحيرة والغابة والطير الغرد والصباح والليل المخيف وبقية مظاهر الطبيعة بتتنفس ف نغم جبار .

نيجي للسكان بقي، كان ساكن تحتي شاب بلجيكي لطيف اسمه مسيو جوريس ، فوق التلاتين بكام سنة ، دا كنت كل يوم اقابله ف الصالون ونتكلم ف الفارغ وف المليان ، ما قدرش اقول اني استفدت من صحبته كتير لان اطلاعه كان محدود انما كنت احب انتنس بيه كبني آدم .

الشاب دا كان اصله مهندس لكن كان بيشتغل ف مكتب سمسرة كبير، وعمري ماشفته معكنن ف يوم من الأيام ، عمره كمان ماسرح قدامي ، واحد زيي تمانين في الميه من اصحابه بيشتغلوا ف صناعة الفكر يرتاح لما يتعرف بواحد بيشتغل ف صناعة الحياة، مسيو جوريس كان ذكاؤه عملي ومالوش تقل ع النظريات ، لكن كان لازم اقول أنه قرأ أغلب راسين وأغلب كورناري وأغلب هيجو وأغلب شكسبير وسمع أغلب القطع

الموسيقية المعروفة والباقى تلطيش من هنا، ومن هنا كان يقدر يتكلم عنهم ف مناقشة بسهولة ، لكن طبعا كلام واحد هاوى مافهوش فايدة كتيرة، كان برضه يروح الشاتليه عشان يسمع حتة لبيتهوفن وحته لفاجنر وينبسط مش عشان يدرس الأثر اللى تركه بيتهوفن ف أعمال فاجنر مع ذلك ما أقدرش اسميه مثقف لان محصوله ف عالم الفكر كان وليد المصادفة مش وليد الرغبة ف المعرفة بدليل انه ما كانش له آراء ف السياسة خالص مثلا يعني يستغنى عن التفكير كل ما تجى له فرصة انه يستغنى مرة أو مرتين استعملت اتومبيله ومرة أو مرتين خرجنا نتفسح سوا، غير كدا مافهوش حاجة تتوصف، الا انه نموذج اوربى للشاب العملى المتوسط ف كل حاجة ، فيه زيه شبان كتار ف مصر، لكن دول بتحسبهم عندنا خلاصة المجتمع مش اوساط ..

أنا كنت كتير استعمل الصالون بالاخص بعد الغدا وكنت دايما الاقى واحدة ست زبونة مستديمة، قاعدة جنب الراديو بتسمع بالشويش وبتقرأ ف كتاب ، دى كانت مدام كوهين ، مدام كوهين كانت ساكنة ف الاودة اللى جنبى على طول افتكر ، كانت يهودية وتخينة وعمرها حوالى ستين سنة لكن تاكل اتنين زيي يوم انزل ألاقيها بتقرأ كتاب المانى لتوماس مان ويوم الاقيها بتقرأ

«ذهب مع الريح» بالانجليزى ومرة أو مرتين شفتها بتقرأ شعر طلياني ، اما لغة الحديث بتاعتها فكانت الفرنساوى ، يعني اربع لغات. لكن اهم من دا كله انها كانت تتكلم مصرى معايه احيانا، مدام كوهين دى مهمة شوية لانها مصرية من ناحية ولانها يهودية من ناحية تانية .

كل ما أحتك بواحد يهودى - الحق يقال برضه - فيه حاجة مش فاهمها بتخلينى اعامله بحذر شديد ، أول ما اتعرفت بمدام كوهين ما اندفعتش قوى معاها ، ماكنتش عارف أنها مصرية وشخصيتها ماكانتش جذابة ابدا، لكن افكارها واطلاعها بالتدريج خلونى احترمها وأحب الكلام معاها، عرفت منها أن جوزها كان بيتاجر ف قطن وبصل ف مصر وانه عمل قرشين كويسين ومات وانها عايشة ف باريس من زمان بباسبور مصرى .

لما دخلنا ف التفاصيل دى كانت تقعد تحكى لى عن مصر ايام شبابها من الخديو توفيق لغاية ثورة سنة ١٩١٩ لحد هنا كويس ، لكن مدام كوهين كانت بتقول حاجات كتيرة تخلى دمى يغلى ولولا انها ست كنت يمكن ضربتها بكرسى .. كنا نبقى قاعدين شلة ف الصالون خمس ستة ، من خمس ست جنسيات مختلفة ، وهى تقعد تدردش عن مصر واللى شافته ف مصر كانت تتفرش ع

الفـوتي تحكى ازاى ان العـرب يعنى المصـريين ناس ف منتـهى الوسـاخة وعوايدهم وسخـة وعوايهم وسخـة وأفكارهـم وسـخـة ، كانت كل ما يتجيب سيرة المصريين تسميهم العرب أو المسلمين قالت عليهم خاينين وكسلانين ومهملين وكل حاجة بطالة ، وكل هيه ما تتكلم انا الدم بتجمع ف وشى وأحاول أغير الموضوع مرة كنا قـاعدين زى العادة ف الصـالون ومدام كوهين ابتدت تكلمنا عن ابنها اللى بيشتغل صيدلي ف استراليا .

– ولما ابنى حب يهاجر استراليا قالوا له لازم يدفع تأمين ويملا استمارة دخول قام دفعنا له التـأمين وهو كتب ف الاستمارة انه مصـرى مش ملون ، اصلهم ف استراليا مـابيدخلوش ، الاجناس الملونة .

أنا حسيت انى اتسـاهلت مـعاها زيادة عن اللزوم . وقفت على حيلى وقلت لها بمنتهى الاحتقار .

– مدام كوهين ، أنت مش قاعدة ف فرنسا بياسبور مصرى؟

– ايوه .

– وبتسمى نفسك مصرية ؟..

– ايوه رسميا ..

– وفـعليـا يهودية ، من اليـهود اللى مـالهمش وطن، ودايرة

تشنعي على مصر بالشكل، دا دي جزاة البلد اللى قبلتك وعيشتك ويتدى لك حمايتها لحد الساعة دى ، مدام كوهين ، إذا كانت مصر مش عاجباك ماتدورى لك على جنسية تانية.. مدام كوهين، أنا لو كان عندى سلطة أنا كنت سحبت الباسبور بتاعك وبتا ع ابنك وطردت بقية عيلتكم من مصر .

مدام كوهين سمعت كل كلمة ف منتهى الهود لكن تحت الهدوء دا أنا متأكد انها كانت منفعلة تمام، وقالت ف منتهى الهدوء ، مش بلهجة واحد عايز يعتذر او يصحح الموقف انما بلهجة واحد عايز يشد رجل واحد تانى ..

– انت زعلان ليه يا مسيو عوض، أنا باأقول الحقيقة.. مصر فيها عرب وأقباط وأنا باتكلم ع العرب مش ع الأقباط.. الأقباط دول زى الأوروبيين، إنت مالكش حق تزعل يا مسيو عوض.

وخرجت من الصالون وأنا باتنفض ، مدام كوهين كانت عارفة إنى قبطى وكان واضح انها بتنصب لى فخ، كان واضح انها عايزة تستغل الطائفية عشان تغطى مركزها قدام الناس اللى قاعدين، لكن أنا ماعطيتهاش فرصة، بعد كدا بقيت انزل الصالون ماقولهاش بونجور ، لاحظ أن مدام كوهين محبوبة قوى ف البنسيون ، بس لأنها يهودية، كان شلة الشبان اللى هناك ، مسيو

جوريس ومسيو موارن وجدع قنط تالت كان بقرب البارون امبان وصاحبته كانوا كل ليلة يلعبوا بريدج ويتكلموا ف السياسة ويستلموا ليون بلوم، ويقولوا اليهودى عمل وعمل وخرب فرنسا ويسموا وزارته حكم اليهود كل دا بصوت عالى عشان يسمعوا مدام كوهين واللى منهم عاطيها ضهره كان يطلع لسانه مخصوص، ف الأول أنا كنت باتغاظ لما أسمع الكلام دا وأقول مسكينة الست دى، لكن بعد الفصول اللى حصلت كنت با أفرح ف سرى ، أنا لى دلوقت لو قدرت اتسبب ف سحب الباسبور بتاعها ابقى مبسوط .

أوعى تقول دى وليه عجوزة سيبها لوجه الله وليه عجوزة يعنى تلم لسانها، أمال سمعة مصر بتخسر بره من إيه ؟ حتى دلوقت بعد تلات سنين كل ما أقرأ فى الجرايد عن اللى بيعملوه النازى ف اليهود بتوع فرنسا ما ازعلش بس عشان مدام كوهين ، اقول لازم عتروا فيها وحطوها فى حارة اليهود.

أنا عارف طبعا أن العواطف دى فطرية ولازم الانسان يحرر نفسه منها ، أنا عارف إن اليهود زى أى ملة تانية فيهم الكويس وفيهم البطال ومش لازم الواحد يلخبط دول ف دول واذا قمت شتمت كل اليهود عشان مدام كوهين تبقى مدام كوهين ليها حق

تشتم كل المصريين عشان الافراد البطالين اللى قابلتهم لما كانت عايشة ف اسكندرية ، لكن بصراحة أنا أقول أن اليهود والأجانب وغيرهم اللى مش «عايزين » يتعاونوا مع الشعب المصرى لازم يشوفوا لهم طريقة قبل مايضطرونا أننا نشوف لهم احنا طريقة، ساعتها مش نحاربهم على أنهم يهود أو اجانب، انما على انهم مستقلين او على انهم اعداء الشعب الطبيعيين .

فيه فرق بين النقد والتشجيع .. انا مازعلتش عشان مدام كوهين اتكلمت على عيوب مصر، أنا زعلت انها كانت بتنشر الفسيل الوسخ بتاعنا قدام الناس. أهى دى من الاختبارات اللطيفة ف حياة كل مصرى بيتعلم ف أوروبا . بيقى عارف ان بلده مليانة اغلاط ولما واحد اوروبى يذكر العيوب دى الواحد دمه يتغير ويمكن يقلبها خناقة ..

غير مدام كوهين كان فيه كولونيل ومراته وعياله من شيلى وكولونيل ومراته وعياله افتكر من باروجواى وكانوا طول النهار يدردشوا بالاسبانى ولا حد فاهم حاجة ، لما كانوا يتكلموا فرنساوى كانت حاجة تضحك صحيح. تضحك . اكتر من الانجليز لما يتكلموا فرنساوى، انا سكنت شهور ف بنسيون شاميريه دا لكن عمرى ما اتصاحبت مع الظباط بتوع امريكا اللاتينية دول .

ومن جهة اللغة كانت مانع ومن جبهة كان كل واحد ف حاله اهو يدويك اشوفهم على الاكل على ترابيزتهم أو من حين لحين نهز رؤسنا لبعض ف الصالون يعنى سعيدة سعيدة.. لكن طبعا سألت عنهم باعتبارهم جيران ومسيو فاندنبوش حكى لى عنهم حاجات كتير . عرفت أن حكوماتهم باعتاهم ف بعثات عسكرية عشان يدرسوا بعض تفاصيل الجيش الفرنساوى ويشتروا اسلحة لبلادهم . الحقيقة الاتنين كان باين عليهم الغباوة المتناهية، لكن يمكن الحكم بتاعي دا نتيجة لانى عمرى ماشفت حد غيرهم من امريكا، والغريب بطبيعة الحال ما يقدرش يقرا الوجوه انا فاكر تمام انى لما كنت صغير كان بيتهيألى ان كل الانجليز شكلهم واحد، وأصحابى الانجليز بيقولوا لى انهم لما جم مصر جديد ماكانوش يقدروا يفتكروا وش حد مصرى تانى مرة يقابلوه، الحقيقة ايامها كنت مستغرب كتير وأقول فى سرى . بقى يعنى حكومة شيلي وحكومة باراجواى مالقوش غير الالواح دول يبعتوهم بعثة ؟ دا لازم فيهم حاجة له أنا مش فاهمها . على أى حال ماكنتش مرتاح قوى ليهم ، لكن ها أعمل ايه . وكتير كان يخطر لي أن الجماعة دول لازم جواسيس لحساب حد .. ما أعرفش ليه الشعور دا كان يجى لى دايما . يمكن قعادهم المستمر ف باريس

هو اللي عطاني الفكرة دي . ويمكن غموض أحوالهم وعدم اختلاطهم بالباقين . ما عرفش . ولو أني كنت مرتاح ف العيشة، ف الواقع كنت متضايق بسبب اني وقعت ف وسط تشكيلة اجانب ما كانتش فيه ف البنسيون واحد فرنساوى حر، اللي بليجكي واللي يهودي واللي مصرى واللي نمساوى واللي شيلي واللي من باراجواى . طبعا أنا استفدت اختبار من الناحية دي ، لكن كنت دايما حاسس ان كل واحد ف البنسيون بيعمل حاجة من ورايا . حاجة أنا مش عارفها، بما فيهم صاحب البنسيون . وفات على وقت اتصورت نفسي ف وسط مؤامرة دولية اطرافها واسعة ، وقعدت ارسم لكل واحد دوره في المؤامرة . مدام كوهين عمرها ما بتسيب البيت ودايما قاعدة ف آخر الصالون جنب الشباك فاتحه كتاب وعلى مناخيرها التخينة نضارة ذهب ليه؟ طيب وعايشة ازاى؟ بتقول جوزها ساب لها فلوس. يمكن دي وسيطة بين مكتب مخابرات وبين الجواسيس . هيه كانت تحب انجلترا قوى لازم بتشغتل لحساب مكتب المخابرات الانجليزية . طيب وبتدى الفلوس لمين / مش لمسيو فاندنبوش ، لان مسيو فاندنبوش ان كان بيتجسس لازم بيتجسس لحساب المانيا. أهو باين على شكله كدا والكولونيلات بتوع امريكا اللاتينية دول باين عليهم ضباط

عيرة.. عمرى ماشفت واحد منهم بيخبط كعب ف كعب ويحنى راسه .. داحنا كان عندنا ف كامبريدج تلميذ برتغالى اسمه فرناند وكان كل مايسلم علي حد يخبط رجليه ف بعض ويوطى راسه ويشيلها بسرعة انا عارف دول لازم مدنيين وملبسينهم عساكر زى ما تقول عدة الشغل. طيب دول بيتجيسسوا لحساب مين/ واحد منهم كان مليان وجرم وشكله عكر .. انا لو كنت زيه مليان وجرم وشلكى عكر كنت اتجسس للجنرال فرانكو ، مش لحساب الألمان لأن الألمان مايرضوش . التانى كان قصير ومش رفيع قوى وملامحه ممسوح منها كل تعبير الا ابتسامة مؤدبة ثابتة مالهاش معنى .. الشكل ده باين عليه يتجسس لأى دولة .... وتلاقيه بيتجسس لتلات اربع دول ف وقت واحد . على أى حال أنا لازم غلطان ف تقديرى لأن من شروط الجاسوسية انه مايبانش عليه . قلت مين يعرف .

طبعا انا كنت فاهم إنى دى غالبا مجرد خيالات يصح انى انسجها بتفصيل اكتر وأعمل لها عقدة اذا فكرت يوم من الأيام انى اكتب سيناريو بوليسى لمارجريت لوكوود كمان عمرى مانسيت انهم جيرانى وكنت معاهم فى منتهى الادب لحد ماسبت فرنسا اخر مرة ف اغسطس ١٩٣٩ . لكن دلوقت بعد ماقريت كلام

الصـاوى عن سـقـوط فـرنسـا المريع افـتكرت ، مش بس حـزمـة الأجانب اللى كانوا سـاكنين معـايه ف شابمريه ، لكن الروس اللى بدقـون اللى كنت شـوفـهم السـاعة تلاته الصبح بيشربوا سـوائل غـريبـة ف الديبـون لاتان، وافـتكرت البنات البـولنديات اللى كـانوا مـاليين قـهـاوى باريس وافتكرت الطـلاينة المسـتـوطنين ، وسـواقين التـاكسـيـهـات اللى كـان اصلهم ارشـيـدوقـات روسـيـا القـيـصـرية وافـتكرت المغـاربة الوسـخين اللى كـانوا يفـوتوا على قـهـاوى الحى اللاتينى بجلاليب نتنه ومراكيب ويبيـعوا سـجاجيد وفـول سـودانى افتكرت انى عشت ف فرنسا شهور كتيرة وكل ما تعرف بحد يطلع اجنبى .. حتى صاحب اللوكاندة الامـريكانى او رجل مقطوعة اللى ف شـارع كازيمير دلافين ف الحى اللاتينى اللـى سكنت عنده تانى مـرة نزلت باريس افـتكرته . وكل الناس دول اتهـيـأ لى انهم لعبـوا دور كبـيـر ف انهـيار فـرنسـا الجـميلة اتهـيـأ لى إن كل دول كـانوا بيـصـوروا اسـتـحكامـات بالنهـار ويشـتـغلوا ف حـاجـة الليل ، المتريـوليس الرشـيـقـة دلوقت باينه لى على حـقـيـقـتـهـا . جنينية حيوانات . الفين جاسـوس وجاسوس مايهدموش بيت بنوه الابطال دى فرنسا مصيبتها تقيلة ومن الحكام .

ماباقيش ف البنسيون غير بنت نمساوية اسمها مدموازيل انا شرايير . البنت دى كان عمرها فوق التلاتين ومش متجوزة، مرة حكيت لى حكايتها ولقيتها مؤثرة خالص . قالت لى أنا لما كانت ف فيينا أى عشر سنين وقعت ف حب طالب فرنساوى بيدرس طب هاك ، وكانوا متفقين انهم بتجوزوا بعض ، بعد الطالب ما يخلص تعليمه ، لكن الطالب جا ف آخر سنة واتجنن واضطروا ينقلوه ف اسبتاليه مجاذيب ف باريس . أنا المسكينة انتظرت طول الوقت ، وكانت كل ما تبعت جواب للمستسشفى تسأل عن حالته الدكاترة يقولوا لها ان فيه أمل أنه يحصى .

سبع سنين ع احال دا وبعد أنا ماجت باريس بنفسها وفهمت كل حاجة . فهمت أن صاحبها ما فيش فايدة فيه .. فهمت انها ضيعت شبابها الناضر فدية للحب الناضر وها تضيع شبابها الدبلان فى البحث عن كهل دبلان يتجوزها ، وتعيش ف أمان .قعدت ف باريس واشتغلت ، ولما عرفتها إتخطبت واتجوزت ف تلات شهور . كان خطيبها راجل محامى فرنساوى عمره فوق الخمسين جسمه ضخم وعينه مضعضعه وشعره واقع لكن عنده اوتومبيل جميل قوى ويظهر ان عنده فلوس كتيرة . الراجل دا كان بيجى عندنا ف البنسيون تقريبا كل مغربية ياخد انا ويفسحها

ويرجعها قرب نص الليل . يدخل مكشر ويطلع مكشر وعمره مايحى حد . كان مظهره شرس لكن افتكر النوع دا من الناس قلبه طيب ابيض . أنا قالت لى انه بيغير عليها من الهوا وكل مايشوفها بتكلم حد يفتح لها محضر . وبعد ما اتجوزت سكنت ف الضواحى واعتزلت العالم ف حدود المعقول .. يوم من الايام جبت البنسيون تسلم وكان على وشها حاجة زى الهدوء الكامل ، الهدوء اللى يخوف الهدوء اللى ف عينين الرهبان اللى خلاص فاتوا ف زوابع الشهوات وانتصروا ع الجسد ووصلوا لمرحلة اليأس الأكيد اللى احنا بنسميها مرحلة الصفاء، مسكينة أنا شزايير، أنا الجميلة الناضجة الشقرا اللى عاملة زى غاده ف صور رويترز دخلت علينا زى قديسة سكسونية مرسومة على قزاز ملون .. أنا ماكانتش شقية، لكن قبل ما تتجوز كنت دايما اشوف ف عنيها شعاع مكسور مفهمنى انها كانت تحب تكون شقية لولا الماضى اللى ضاع منها ، الشعاع دا راح ومطرح الشقاوة حل الرضا .. أنا شرايير اللى تحب الحياة انتهت وجا مكانها انا شرايير اللى عملت صلح مع الحياة .

أهى دى كلها صور فاتت على، بعضها مآسى وبعضه عبر وبعضها تمر ع الانسان زى سحاب الصيف عابر لكن ما يتنسيش

ومن وقت لوقت برضه الواحد يشوف السعادة . يمكن يقابلها وهو داخل ف سينما او خارج من مكتبة او قاعد ف الاتوبيس او بيجوا ف شارع ويسلم عليها من بعيد لبعيد . دى حال المسافر. أنا دلوقت عملت زى اوديسيوس . يعنى اللى شاف عادات ناس كتار ومدائنهم ، زى مابيوصف هوميروس ف أول .. الاوديسا .. وهو راس ف قصيدته عن فن الشعر، أنا كمان شفت عادات ناس كبار وشفت بلادهم وقريت نفوسهم وطويتها زى ما أطول كتاب، ولما اوصف ف الاشخاص اللى قابلتهم ف أركان الارض الواسعة وماقدرتش انساهم لحد دلوقت مش هانتهى . لكن اقدر اقول لك أنى من اسعد الناس ف رحلاتى، وأن الطف ناس قابلتهم ف حياتى قابلتهم وأنا با انتقل من حتة لحتة . دخلوا حياتى وخرجوا منها ف مدى كام ساعة زى اطياف النوم لكن سابو على أثر باقى.

مثلا ف سفره من سفراتى فرنسا ف يونيو ١٩٣٩ لقيت نفسى ف قطر نيوهافن قاعد ف ديوان واحد مع شاب اسمر واتنين بنات بيض . بعد نص ساعة كنا اصحاب الجدع طلع هندى ، واسمه رافى وكان يدويك خلص دراسته ف اكسفورد وراجع بلاده، والبنتين واحدة منهم – الكبيرة طلعت يهودية انجليزية

واسمها نينا فرنس واكن باقي عليها سنة ف اكسفورد يرضه والتانية طلعت يهودية المانية طليانيه بتدرس موسيقى ف لندن واسمها ميا يانتبام ، رافى كان ولد قصير زى اغلب الهنود لكن شكله وسيم خالص وبان عليه ف منتهى الشقاوة .

نينا كانت حوالى اتنين وعشرين سنة مثال النضوج المغرى وكمال الجسم والرشاقة ، طويلة وبشرتها وردية وشعرها اصفر وعنيها دائما بتضحك ، وكان ليها ضب انجليزى خفيف مابتحاولش تخبيه، كان باين عليها رايحة باريس تتفسح بحق وحقيق مش تتمشى ف شانزليزيه اوتقعد ف كافيه دى لابيه زى اغلب الانجليز مابيعملوا . اما ميا فكانت قصيرة ورفيعة ولونها شاحب وعنيها سودا واسعة اهدابها طويلة وجمالها مش من العالم دا . اتكلمنا ف الف موضوع لكن نروح ونرجع لاكسفورد وكامبريدج ونقعد نغيظ بعض بالنكت على بعض . نينا ورافى بينكتوا على كامبريدج وأنا وماي اللى جت ف صفى ننكت على اكسفورد طبعا . وف المانش ركبنا جنب بعض وف قطر باريس قعدنا جنب بعض وانا طول الوقت بيحلق ف ميا وهى مسنودة لورا قدامي وتتكلم ببطء وهدوء واتفرج علي عنيها السودا الواسعة اللى عاملة زى عيون الكهنة بتاعت معبد دلف اللى الاغريق كانوا

يقصودها عشان تقرا لهم المستقبل . أنا قلت لها الكلام دا بنفسى . وميا كمان قعدت ف القطر تبص لى وتقرا المستقبل بتاعى وتسيب المستقبل وتتكلم على الحياة وتسيب الحياة وتتكلم عن اللى بعد الحياة وبعدين ترجع لى تانى وتشجعنى ف حاجات وتحذرنى من حاجات وعنيها السودا الحالمة نفذ فيها شعاع الشمس الغربية قام بانت لى عسلية زى قشر الكستنا المعمولة من بنور ، والريح تضرب ف راسها الصغيرة يقوم شعرها يطير لورا من غير ترتيب، فضلنا بالشكل دا لحد ماوصلنا محطة سان لازار .

ف سان لازار عطيتهم ميعاد لكن مش أكيد ف الكوليزيوم وفعلا مارحتش ليلتها لانى كنت مشغول.. بعد كدا ماتقابلناش غير ف الافكار. ميا سافرت كابرى عشان تمضى بقية الصيف مع أهلها وبعدين قعدت علي طول وبعتت لى جوابات تقول لى ازورهم ف كابرى ، طبعا مارحتش لأنى كنت محجوز ف باريس لكن كتبت لها كتير.. رافى رجع الهند وماكتبش حرف واحد ..

زمانه دولقت بشتغل محامى ف مدارس والا بوبماى . فيه بيت شعر سانسكريتى جميل اتعلمته ف انجلترا بيقول ان احنا البشر زى خشب طافى ف محيط يصطدم ببعضه مرة ويفترق بعد كدا إلى الابد . أنا خايف ان دا يكون صحيح يا رافى منين ماتكون .

الحرب قامت وأنا رجعت كامبريدج ونينا فرنش المخلوقة اكسفورد وكتبت لى كسلت ارد عليها . لكن ميا باننباوم الملخوقة الغريبة اللى صدمتنى ع الماشى وسابتنى الهث زى نجمة ما تصطدم نجمة وتزحزحها من مدارها . ميا ما خرجتش من محيط حياتى غير لما ايطاليا دخلت الحرب . لحد باريس ماوقعت بشهر وهى تكتب لى جوابات غريبة وترسم لى عليها رسومات بالحبر الشيني. كانت تبعت تقول انها قاعدة ع الشاطئ ف كابرى بتتأمل ف الامواج الزرقاء وهى بتتكسر على بعضها بينما روحها طافية زى الشراع ع البحر تحت شمس الجنوب بتبعد بتبعد تجاه الافق ، وخايفة تتوه ف البحر الكبير المجهول . وف أعلى الجواب ترسم لى حاجة زى فرسين بيشبوا لفوق وصدورهم ف بعض وتحتهم خطوط مرسومة باهمال ماتفهمش معناها اعشاب والا حاجة تانية .. شلى .. افكار شلى بس مكتوبة بنثر انجليزي عادي.

قولي بقي ترد على دى تقول إيه ؟ أنا مش فاكر ولا كلمة من الجوابات اللى بعتها لميا لكن غالبا زى ما با أعمل ف الحالات اللى زى دى كتبت لها عن الفن والحياة وعلاقة الفن بالحياة. . لكن انا فاكر اغلب جوابات ميا لحد دلوقت.. فضلت شايلهم ف محفظة مع

حاجات تانية أهم منها وعبرت بيهم المحيطات وطرت بيهم آلاف الاميال وفوتهم ف عشرين جمرك وف الآخر ضاعت المحفظة منى ف الجيزة .

أدى اختيار من الاختبارات الناقصة الجميلة اللى بتقابلنى ع الماشي وتخلص قبل ما اشبع منها . يمكن تقول . وإيه يعنى ما كلنا بنقابل ناس زى رافى وميا باننباوم ف قطرات السكك الحديد وبننساهم تاني يوم . يمكن . لكن أنا ما انساش. أنا ما نساش، اختبار كان له معنى ف نفسي، وحتى لو نسيت الظروف المعنى باقى مقيم . انا ماانساش لحظة سعادة فاتت على لان لحظات السعادة ف حياتى قليلة وأنا عارف زى . أنا ما با اشتكيش أنا مانيش راجل تعيس زى ما تتصور من كلامي . كل ما فى الأمر انى راجل مشغول ياما فاتت على مواكب السعادة ومواكب الاحزان وأنا مش واخد بالى، ويوم ماباقابل السعادة وش لوش واعرفها واحضنها دا يوم ف حياتي خالد ومذكور فما بالك بالسعادة لما اقابلها وأعرفها لكن الاقيها مسافرة كابرى أو رايحة تحضن واحد غيرى ؟ أنا صحيح راجل مشغول لكن لسه فاضل ف قلبى شعور .

بلاش مياتاننباوم اللى عيونها زى عيون عرافة او نبيه ان كانوا الأنبياء فيهم ستات ، كان واحد صاحبى ف كامبريدج اسمه نورمان هوتويث بايما يقول لى : تعال امضى الاجازة فبيتنا ف لندن انا لازم اعرفك بامي وأختي وأنا دايما أقول له معلهش بلاش الاجازة دى، خليها للاجازة الجاية.. فضلنا ع الحال دا لغاية ماجيت يوم وقررت اني ارجع مصر . وف كام يوم بصيت لقيت نفسى التذاكر ف جيبي وها اسافر بعد بكره .. كل حاجة حصلت من غير ترتيب لدرجة اني كان يومها عندى معاد شاى معها ف كامبريدج وأنا كنت ف لندن بوضب شنط وحاجات وباسبورتات .. بعت له تلغراف اعتذار بالتفصيل راح هو تويث جاجرى من كامبريدج وخدنى بيته ف ضواحي لندن واتعشينا سوا ومشينا فى الجنينة الكبيرة بتاعتهم اللى زى الغابة ايوه مشينا ف الجنينة بتاعتهم مشيت انا واخته روث ساعتين وزيادة .. حوالين داير .. حوالين البركة وبالليل رجعت البلد وسهرت مع هوتويث وخليته ينام عندى .. وف القطر قلت له ..

– نورمان ، أنا طلبت من أختك روث انها ترقص معايه بكره ف اودونينو وهي وافقت ..

نورمان ضحك وقال لى :

- بس أبقى حرص عليها ، دى روث بنت سانجة خالص .

تانى يوم المغرب كنت أنا قدام البراسيرى اونيفرسيل مستنى وهى اتأخرت شويه دى كانت اخر ليلة لى ف لندن في انجلترا .. وأنا واقف أتأمل في الناس والأبنية وتمثال ايروس والاعلانات بتاع اللبان ومنعطف ريجنت ستريت نسيت زحمة النهار والباسبورتات والتأشيرات والبنوك وشفت لندن ف بدلة جديدة، وقلبى اتعصر من الم الفراق .. وقلبى اتعصر من الم الجمال اللى مالاحظتوش غير ف آخر ساعة . ونا مذهول كدا شفت روث جايه بتمد وقطعت ميدان بكاديللى من الوسط عشان توصل بسرعة .. أنا مش عايز اقولك روث دى كان معناها ايه عندى.. روث دى بتمثل عندى كل الحاجات الجميلة اللى بتيجى بعد فوات الأوان . عرفت ساعتها انى انا اللى جيت متأخر مش هى اللى جت متأخرة ، هى جت متأخرة عشر دقايق ولا قيتنى مستنى ف الميدان لكن أنا جيت متأخرتلات سنين ولقيت المركب مستنية في المينا .. انت يمكن مخك بيروح لحاجات تانية لكن دا غلط. روث كانت مخطوبة وأنا كمان كنت مربوط من رقبتى . لكن اذا قالوا لى دور لك على اخت بين اركانجل وجزيرة النار مش ها الاقى اخت احسن من روث . والعطف بتاع ام نوريمان ، ازاى انساه ؟ .

روث اخدت دراعي ودخلنا اودونينو .. جوه ماعملناش غير حاجتين . شربنا نبيت بورغونى ورقصنا .. صحيح اكلنا بوفتيك واكلمنا عن فرنسا وعن الماضى وعن المستقبل وعن الحرب لكن مافيش حاجة استنت فى راسى غير حاجتين النبيت الأحمر وروث في دراعى بيتلف طول الوقت حوالى وحوالين نفسها وحوالين الصالة .. تلف .. النبيت مستنى ف راسى لحد اللحظة دى وهو اللى بيخلينى اكتب الكلام دا .. وروث شايفها دلوقت قدام عينى بتضحك من غير حساب وتلف من غير حساب والنبيت لمع خدود ويقيت اضحك والف بيها كأننا بنرقص ف باليه احنا اللي مألفين خطواته واحنا اللى واضعين الحانه.. هى طبعا كانت مبسوطة ومش فاهمة حاجة..

وأنا كنت مبسوط لكن مانسيتش دقيقة واحدة ان ف نص الليل بالضبط تمثال الفرح اللى بين ايدى ها يتبخر لحد مايتلاشى ف الهواء .. لكن أنا مش مغفل افسد اخر ليلة بحسرة التفكير واوجاع لسه هاتحصل لما يمشى الحلم.. ان كنت عاوز تعرف حالتى النفسية بالضبط ليلتها ها أقول لك حاجة واحدة .. اتصور فالس زى «اصوات الربيع» متوزع على اوركسترا من تسعين نفر ، وف ضهر الفرقة عازف واحد ، واحد بس ماسك كمنجة وبيلعب

صولو مقدمة الفصل التالت من «الترافياتا» تقدر ؟ صعب ، دى كانت حالتى ساعتها .. وانين الكمنجة وحشرجة المومس البائسة اللى بتموت وثورة فردى كلهم غرقانين ف الزيطة الايقاعية اللى مليانة ألوان وعطور وخمرة وضحك الشباب ..

وفى نصف الليل وصلتها ف تاكسى لحد محطة ووترلو وودعت اختى الى كانت تاهت منى ف الغابة واحنا عيال وشافتها الغزالة قاعدة تبكى قام حنت عليها واخدتها ورضعتها وربتها وعاشت مع الغزلان ...

وتانى يوم الصبح اخدت شنطتى ف تاكسى لحد محطة فكتوريا ، وشاورت بمنديلى للجناين والتماثيل والعمارات والناس اللى فى الشارع افتكرونى مجنون ...

عشان كدا أنا باأقول لك ان أنا حظى كويس فى الاسفار ودا نفسه مصدر عزاء لأن الصور اللى زى دى ماليه دماغى ومالهاش نهاية، وكل ما اتعب شوية من طريق الحياة كفاية اقعد فى كرسى غويط واغمض عنيه واستعرض الناس اللطاف اللى قابلتهم فى مفترق الطرق وابتسمت لهم وائتنست بيهم وبعدين مشيت فى حالى .. تغمرنى السعادة، قلت لك دول كتار وبعضهم غيروا اتجاههم ومشيوا معايا شوية فى طريق الحياة وبعضهم ذكراهم

مش من نصيب الحبر والورق لكن نايمين مستريحين في تجاويف عقلى أنا وحدى عشان احميهم من عيون الناس.. لكن دا نفسه مصدر عذاب. لما أبص ألاقى ان اغلب الناس اللى اتولدوا عشان يكونوا أصحابى بينى وبينهم بحور أو قطر سكة حديد أو فرق فى الميلاد أو غلطة في العقيدة أو مقابلة ما تمتش أو قبر مجدب ماعلهش حتى صحبة زهور.. ادفن وشى فى ايدى ويملأ قلبى الحزن.

كان من احتياطات الحرب اننا ماعرفناش اننا هانركب المركب من تلبورى غير فى آخر لحظة لما بتوع كوكس وزعوا علينا تذاكر القطر حتى قبلها بيوم كان بعضنا بيقول هاتقوم من ليفربول .. عدد التلامذة المصريين اللى كانوا على رصيف محطة فيكتوريا كانوا يطلعوا ميتين لكن مش كلهم سافروا اللى ركبوا القطر كانوا حوالى خمسين واحد.. القطر كان مزحوم خالص والرحلة زى المنتظر كانت متعبة وسخيفة لكن قصيرة.. ماحدش شاف حاجة فى السكة حتى ماحدش فكر انه يطل من الشباك الا يمكن واحنا سايبين لندن واحنا داخلين تلبورى، ولما لمحت الصبح بيكبر وبينتشر على المصانع اللى فى أول السكة، ولما نزلت ف المينا قعدت مشغول بالجمرك ساعتين على الأقل مش تفتيش، لكن

مستنى دورى.. الموظفين بتوع الجمرك أخدوا من كل واحد قناع الغازات السامة بتاعه بطاقة الأكل وكارت تحقيق الشخصية.. وقرب الضهر كنا كلنا على ضهر المركب أو طالعين على سلالمها وبنتفرج على حجمها وبنقرأ اسمها الكريم المادورا! على خيرة الله..

اتحركنا عشان نخرج من مصب التيمس ، مابديش أوصف لك فى البنايات وهيه وتتلف في الهوا الكثيف وتختفى.. ولو انى شفتها وفاكرها، وكل واحد على الرحلات الاستكشافية بتاعته عشان يعرف الحمام فين والصالون فين والأكل فين، ومشينا فى المصب ناحية بحر الشمال ساعات طويلة واتعشينا ونمنا وصحينا تانى يوم لقينا نفسنا لسه فى مصب التيمس، ما أعرفش إذا كنا وقفنا شوية أو رجعنا شوية أو هو المصب اللى طويل كدا.. أنا وقعت قرعتى انى اعيش فى كابينة واحدة مع الأستاذ على الجريتلى المدرس فى كلية التجارة والاستاذ مصطفى عبدالعزيز المدرس فى كلية العلوم وحمدت ربنا على كدا.. الاولانى كان صديق شخصى ليه والتانى كان من شلة كامبريدج. اصل الرحلة كانت طويلة وزملاء الكابينة ان ماكانوش منسجمين يتعبوا قوى..

الساعة خمسة الصبح دخل علينا خدام الكابينة الهندى وصحانا بزعيقه.

– شاى.. شاى..

وراح حاطط تلات فناجين وفتح شباك الكابينة المدور واحنا عرقانين من غير استئذان رحنا كلنا مفزوعين احنا التلاتة قومنا فى السرير وقالنا بالعربى فى وقت واحد.

– ايه يا اخينا دا..

هندى.. مايفهمش عربى.. كلمناه بالانجليزى مافيش فايدة.. رد هوه بالانجليزى مافهمناش ولا كلمة.

– انت اسمك أيه؟

دى فهمها..

– كوتشى صاحب.

بالتمرين عرفنا انه صاحب دى هندى معناها حاجة زى يا سيدى.. كوتشى دا خدمنا خمسة واربعين يوم بلياليهم.. مش غريب بقى انى باعتبره من أهم الناس اللى اعترضوا حياتى. على الريق المقفل يخش بالشاى ويفتح شباك الكابينة من غير استئذان واحنا لسه بنشر عرق.. قلنا له بلاش شاى، قال أوامر الكابتن.

قلنا له يسيبنا نايمين، قال أوامر الكابتن، قلنا له مايفتحش الشباك قال أوامر الكابتن، كل حاجة يعملها يلزقها فى الكابتن.. اطلب منه شاى فى الكابينة بعد الضهر مايجيش ويقول أوامر الكابتن.. لكن بالتدريج أخدنا على بعض وحتى كلنا نهزر مع بعض من بعيد لبعيد. بالتدريج علمناه انه ينسى الكابتن وينسى الشاى وينسى يصحينا فى الفجر وينسى يفتح شباك الكابينة لحد الصبح العريض.. أول يوم نمنا فى المركب كوتشى مش بس فتح شباك الكابينة لكن وقف قدامه وفضل يقول:

- لوك صاحب فايف سيب سنك.

ماحدش فاهم .. اللى يقول له «يخرب عقلك» واللى يقوله «بلاش دوشة».

- لوك صاحب فايف سيب سنك.

خمس مرات قالها. قلنا لازم دى حاجة ليها معنى مهم.. بصينا من الشباك لقيناها صحيح حاجة مهمة.. لقينا مصب التيمس مرشوق مراكب غرقانة .. اللى باين منها مدخنة.. حركة ذعر فى الكابينة.. وريني وريني وبعدما اتفرجنا ابتدينا نفكر فى كلام كوتشى ونحل فى الفازه.. مرة واحدة ان من السلامة اننا نتعلم لغوة كوتشى عرفنا الجملة اللى استفتحنا بيها معناها.. بص

يا سيدى خمس مراكب غرقانين.. قلنا يمكن يا واد تحصل حاجة صحيح بيجى ينقل لنا تعليمات مانفهموش أو نطلب منه طوق نجاة مايفهمناش . ابتدينا نفصص فى لغته.

عرفنا ان كل «ش» بينطقها «س» وانه ماعندوش فرق بين الجمع والمفرد وأن الافعال المساعدة مالهاش وجود فى قاموسه وان طرق النفى وأدوات النفى عنده تتلخص فى كلمة «نو» وانه ماسمعش عن أدوات التنكير والتعريف.. كل يوم بقى الاستاذ الجريتلى يكتشف قاعدة جديدة فى كلام كوتشى، وبعد تلات أسابيع على المادورا لقينا نفسنا كلنا بنتكلم زى كوتشى تمام.

تانى يوم الصبح برضه قمنا مفزوعين وكوتشى وقف فى وسط الكابينة ونعق زى البومة.

– سيب سنك صاحب لوك.

الله لا يصبحك يا بعيد.. مركب غرقانة ايه وزفت ايه.. بصينا من الشباك لقينا صف مراكب غرقانين بحذا المركب بتاعتنا، يمكن بتوع امبارح يمكن غيرهم ما اعرفش، احنا لسه فى مصب التيمس والمصب واسع ومالوش شطآن وماحدش فاهم المادورا ماشية ازاى .. أنا كنت حاسس ما اعرفش ليه اننا دخلنا بحر الشمال.. على كل حال طول النهار واحنا نتفرج على مراكب

غطسانة.. نبقي فين لسه في المصب احنا يدوب اتسممنا الشاي اللي كوتشي جابه وعلى غفلة سمعنا حاجات بتقول بم بم بم .. بصينا لبعض يعني «جاك الموت ياتارك الصلاه».. وازيز وكان مكتومة.. والمعركة انتهت بسلام.. انتهت حتى قبل ما نلحق نلبس الرويات.. بعد كدا عرفنا أن المادورا مش ماشية لوحدها انما في قافلة كبيرة، حسبة خمسين ستين مركب وحامياهم مدمرة واحدة ومدمرة جيب وان طيارات المانية كانت عاوزة تصطاد حاجة من القافلة لكن ردوها وان القافلة كانت عاوزة قال تحود على المانش وتخرم المحيط الاطلسي لكن غيرت مجراها لما شافت الشغل حامي تحت وقالت أحسن تلف فوق اسكتلندا .. ماحدش طبعا يعرف الحقيقة كلها ايه غير ضباط المراكب .. لكن جزء من الحقيقة بالتأكيد اننا حودنا مبحر.

بعد كدا ماشفناش لا طيارات ولا غواصات ولا مراكب غرقانة.. مافيش غير بحر الشمال بأمواجه اللي ساعة تبان بلون القصدير وساعة بلون الرصاص والمراكب التانية قدامنا وورانا وحوالين القافلة طول النهار شايفين المدمرتين رايحين جايين في اتجاهات عكسية لما واحدة تمشي من راس القافلة التانية تكون سابت ديلها، زي الدبابات اللي بيمشوا قدام النقط العسكرية،

طبعا الاشاعات كانت كتيرة بين سكان المادورا، المادورا كانت صحيح صغيرة حمولتها حداشر الف طن يعني قد «النيل» واصغر من «الكوثر» لكن فيه ناس كتير كانوا بيقولوا انها مركب خردة وكانوا هايشركوها لولا ظروف الحرب.. مافيش شك انها كانت قديمة لكن الله أعلم سنها كام سنة.

واحنا لسه في بحر الشمال حصلت دوشة تاني لكن ما اعرفش اصلها ايه.. شوفنا المادورا بترمي مواد متفجرة في المية.. ناس قالوا غواصة.. ناس قالوا تمرين.. ناس قالوا روتين.. وظباط المركب ماحدش منهم فتح بقه . مرة تاني ضربوا لنا صفارة الخطر ولبسوا جاكتات النجاة على غفلة، برضه ناس قالوا غواصة وناس قالوا تمرين وناس قالوا روتين.. واحنا عايشين زي الحمير على المركب ماحدش فاهم حاجة.. على كل حال كان فيه تعليمات مطبوعة معلقة في كل حتة بتقول ان المسافرين يوم كذا ويوم كذا هايسمعوا صفارة صفتها كذا الساعة كذا لازم يلبسوا جاكتات النجاة ويقفوا في الحال على الدك الفلاني وعلى الدك الفلاني – كل واحد طبعا على حسب نمرة كابينته.. والاختبارات الدورية الثابتة دي قعدنا نعملها لحد ما وصلنا مدينة الكاب، كمان

علقوا لنا اعلانات طالبين الغواصات.. لازم اقول انه كان فيه مصريين كتار اتطوعوا في الشغلانة دي.

المانورا مشيت مدة طويلة في بحر الشمال قبل ما تقف على مينا، اكتر من أسبوع وطول الاسبوع دا البار كان مقفول ومافيش لا مشروبات ولا سجاير تتباع، أتارى فيه قانون يحرم على البواخر انها تبيع الحاجات دى طول ما هى في المياه الانجليزية.. دا كان حتة مقلب.. ماحدش كان عارف الحكاية وكلنا سجايرنا خلصت من تانى يوم وبقينا نستلف من بعض.. تالت يوم كان كل اللى على المركب بيلموا الاعقاب.. رابع يوم السجارة يعنى بشلن.. خامس يوم السجارة وصلت هاف كراون.. يعنى اتناشر صاغ ونصف.. بعد كدا انقطعت.

ف الآخر انفرجت ازمة السجاير وازمة الشرب وكل ازمة تقريبا الا ازمة الزهق.. ابتدا الزهق والبوكر ابتدأ.. البوكر ابتدا تقريبا في جزائر الاوركنى وما انتهاش غير في الكاب، لأن الزهق ما انتهاش غير هناك، في الظروف العادية المركب كانت تقدر توصل جنوب افريقيا في تلات أسابيع، لكن احنا وصلنا في خمسة وأربعين يوم.. الكابتن لف بالمركب فوق اسكتلندا وغيرنا الساعات.. مشى أيام مغرب وغيرنا الساعات ومشى مقبل ايام

وغيرنا الساعات وبعدين مشى مغرب ايام وغيرنا الساعات بالشكل دا كل يوم فى اتجاه.. كل دا طبعا عشان يتحاشى مناطق الخطر.. وحياتنا اصبحت خارطة جغرافية مافهاش غير ميه وخطوط طول وعرض..

حتى الخطوط دى ماحدش قال لنا عليها إنما استنتجناها من تأخير الساعة وتقديمها، واحنا فوق اسكتلندا قبل ما تخش المحيط الأطلسى شفنا الليالى البيضا اللى بيحكوا عنها وفتنا على جزاير الهبريديز.. فى اليومين دول أنا بطلت اقعد فى الصالون وسكنت على الدك الوسطانى عشان اتمتع بكل دقيقة.. فى نص الليل شفت الشمس معلقة فى الأفق الغربى مالهاش لون والسما منورة والبحر عليه ضوء فى قوة الفجر العريض.. الشمس فضلت معلقة كدا ساعات ماتتحركش وكان باين ان الفجر المستمر اللى احنا فيه نوره مش جاى منها لكن من لمبة سحرية مكانها ورا الطبيعة.. فجر دايم سكون دايم حتى صوت الموج وهو بيخور تحت المادورا كان جاى فى ودنى مش زى الصوت لكن زى الوش اللى بيملأ طبلة الودن لما بنضرب جنبها مدفع ميدان، دا لما أحصر انتباهى فى البحر والسما والشمس والأفق الوش يروح وأحس انى لسه

قبل الخليقة فى الزمان والمكان أيام ما كان الزمان والمكان فكرة واحدة المية نفسها كانت زرقا وصافية ومالهاش نهاية.

احنا ماشفناش جزيرة الهبريديز ، لكن عرفنا انها موجودة لما شفنا الطيور البيضا بترفرف في كل حتة وحتى لما سبنا منطقة الهبريديز وسبنا الطيور ماسبناش منطقة السكون، انا ما أعرفش إذا كان هدوء الهبريديز كان كامل صحيح وملحوظ وألا أنا وحدى اللى حسبته.. يمكن كان فيه اصوات فى الهوا أو فى المية أو جاية من عالم الاحياء وأنا اللى كتمتها بخيالى لانى قريت في شعر وردزورث عن السلام المطلق هناك.. أنا ماسمعتش حاجة ودا كفاية .. يمكن خوار الحبب الابيض وهو بيتكسر على صدر المادورا كان الصوت الوحيد اللى بيمنع فكرة الأزل.. لولا داكنا يقينا زى ناس فى الاساطير ركبوا مركب وابحروا فى السما لحد ما طلعوا من منطقة الكرة الارضية ودخلوا فى عالم الصفات المنفية والصفاء اللى مش مسموح للنفس الانسانية انها تفهمه.

لكن طبعا كل حاجة ليها نهاية مادام المكان بيتحرك في الزمان حتى اللانهاية بتاعت الهبريديز كان ليها نهاية.. كلها يوم ولقينا نفسنا بنضرب فى الاطلسى والاصوات اللى سبناها فى بحر الشمال رجعت كلها.. أصوات الطبيعة والاحياء.. الموج رجع موج

والريح اتنفست تانى والبار اتفتح والبيرة انكبت على البدل ولغة البوكر ملت جو الصالون والظابط التالت قعد يلعب «الدباسيوناتا» على البيانو والجماعة بره كانوا بيلعبوا الطوق ويدربكوا على الدك.. وانا اللى كان عندى فكرة مخيفة عن أمواج المحيط ابتديت استخف بيه. كنت أقرأ فى الروايات وأشوف فى السينما مناظر تشيب للمحيط كل دى اختفت لما شفت الاطلسى بنفسى امواجه معقوله ومش أعلى كتير من الأمواج البحر الابيض المتوسط.. يمكن احنا كان حظنا كويس ان ماكنش فيه زوابع يمكن بعد كدا اتعلمت انى أسأل الريح وما أسألش الامواج، الريح تعرف كل حاجة والاوقيانوس زيى وزيك يبقى زى الريشة قدام نفس الاعصار.

المادورا كانت تابعة لشركة بواخر انجليزية هندية نص بضاعة ونص ركاب وظباطها كانوا انجليز وبحارتها كانوا هنود والطبيخ فيها كان انجليزى هندى . تركيبة عجيبة.. وبالنسبة لى أنا أكل المادورا كان بيجيب لى دوار أكثر من دوار البحر.. لكن كل حاجة تيجى بالتمرين وفى آخر لحظة الرحلة الواحد ذوقه مات ويبقى يأكل زى التور.

المصـــريين اللى ع المركب كـانوا أمـر الله بليغ وأنور فـراج ومـدام فـرا ج ومـصطفى زهدى وعلى صــادق واحــمـد صــادق ومـصطفى عبـدالعـزيز وأنا من كـامـبـريدج ومنيـر صـبـرى وعبدالمحسن بكير من اكسفورد وعلى الجريتلى وسيد سودان وأرؤز يعنى عزت والبطراوى والشـرقـاوى البكرى ومدام بكرى وجنينة وسيسوزان من لندن وادوار زقلمه من بريستول وعبدالحليم محمود ومرعب ويوسف مجلى من ليفربول وشهدى من اكستر وحسنى عزيز حسن من ودنج وناس كتير تانيين مش فاكرهم دول طبعا كانوا مقسـومين شلل شلل ومافيش رابط كبـير بينهم.. الدكاترة كانوا دايما يمشوا مع بعض وبتوع كامبريدج كانوا دايما يمشـوا مع بعض والبـاقين مش عـارف كانوا مـقسـمين على أى أسـاس طبـعا التـقسيم دا مـاكانش محكم قوى لأن الشلل كانت غالبا متداخلة فى بعض وكان الدكتور البطراوى يسبب الدكاترة ويجى يقعد معانا وسيد سودان كان عمود من اعمدة شلتنا وعمره ما يمشى مع بتوع لندن.. ومنير صبرى كمان كان معانا وعمرى ماشفته بيسلم على زميله بتـا ع اكسفورد كل دول انضموا لينا بحكم الصداقة الشخصية والبوكر. غير المصريين كان فيه شحنة انجليز كلهم رايحين المستعمرات فيهم الملكى وفيهم العسكرى ..

كان فيهم كان شاب صغيرين باين عليهم متخرجين من الجامعة ورايحين يتمرمطوا فى أطراف الامبراطورية.. دول كانوا محايدين طول الوقت مافيش احتكاك لا بالوحش ولا بالمليح زى ما بيقولوا ف المنيا.. لكن كان فيه شلة انجليز تانية فى منتهى الفلاسة واغلبهم رجال كبار.. واحد منهم كان شكله عكر وكنا بنقول عليه قاضى فى تنجانيقا وبعدين سميناه «دومينيو» مرة كان اتخانق مع واحد فينا على الدمينيو وكان على وشك انه ينضرب وبعدين ارزز طلع عليه غنيوه مالهاش معنى ولحنها سونج وكل مالراجل يخش الصالون كان يغنيها بعلو حسه.. لحد الراجل ما قطع رجله من الصالون..

الحقيقة كان فيه اشمئناط عمومى بين المصريين الانجليز من أول الرحلة فيه حاجات كتيرة بتحصل من غير سبب واضح.. التنافر دا كان من الحاجات دى يمكن السبب هو أن الانجليز من الأول حبوا يشتغلوا علينا.. يعنى يخلونا نحس انهم من جنس تانى اعلى شوية .. الحاجات دى مش ضرورى . تقولها إنما تقدر تعملها.. تقدر تعملها مع أى واحد.. بيجى واحد يسألك عن الساعة مثلا تقوم له عليها بتأفف.. يفهم وتانى مرة مايسألكش . مش بس كدا..

يكرهك كمان، أو ع الأقل يشيلها لك، وان كان عنده ثقة فى نفسه يردها لك ويبقى مبسوط، ويمكن سببها ان المصريين كانوا دايما بيعملوا زيطة.. ان ما كانوش بيغنوا تلاقيهم بيتخانقوا.. وان ما اتخانقوش تلاقيهم بيزعقوا - أنا ما افتح بتلاتة شلن - أشوفك - باس - اشوفك - هات تلاتة - نمزمز بقى - هات واحدة - شرفى - وكمان عشرة شلن - باس - كله جنيه - نشوف ساكتين - تلاتة آس - آه يا بلاف نكسب.. بطل الماسكيه دا..

والانجليز قاعدين ساهتانين على تربيزة تانية كل واحد فى بقه بيبه والبوكر بتاعهم بالاشارات .. طبيعى انهم يتغاظوا من الشوشرة، وأى حاجة جاية تحصل بعد كدا، جو النرفزة ده على العموم استمر تلات اربع الرحلة.. لكن فى الآخر كل حاجة مشيت كويس وحتى قلبت بمجاملات.. مرة جماعة من الشبان الانجليز عملوا حفلة تمثيل ومونولوجات ونمر للركاب، ولما نزلنا الصالون لقينا علمين كبار واحد انجليزى وواحد مصرى مفروشين على الحيطة قبال بعض دى كانت «بوجيست» زى مابيقولوا.. على الاقل أنا كنت بافتكر كدا.. المركب ماكنش فيها ركاب غير انجليز ومصريين وواحد بس اسود من كينيا.. ما اعرفش جابوا العلم

منين إنما يظهر ان كل مركب عندها مجموعة كاملة من اعلام الدول عشان المناسبات المختلفة. ويرضه في مناسبه تانية العلاقات اتحسنت شوية زيادة عن اللزوم.. الكابتن ما اعرفش ليه جا يوم من الايام واحنا قرب سانت هيلانة وقال الليلة دى البار مفتوح على طول.. يعنى حفلة تمام المصريين كانوا محتلين البار الاصلى اللى فى الصالون ابوكراسى جلد والانجليز كانوا محتلين البار الغربى أبوكراسى قش.. سكرنا وهم سكروا ، وبعد نص الليل ابتدت اللخبطة والانتقال.. كنا نطلع دوريات دوريات من الصالون الجلد عشان نغزو الصالون القش ونهيص فيه.. والانجليز كانوا بيعملوا نفس الحكاية، لكن بعد شوية كل السكرانين واللى ناويين يسكروا اتحولوا على البار القش لأن الكابتن وبقية الظباط كانوا بيسكروا هناك ..

كنت تشوف جماعة بيغنوا وجماعة بيرقصوا ، قصدى يتنططوا وكنت تشوف واحد مصرى ماسك كاسين وسكى ف وقت واحد، واحد باليمين وواحد بالشمال اتنين انجليز موطيين بيشربوا فيهم، وكنت تشوف واحد مصرى راكب على ضهر واحد انجليزى بيقول له «حا» سيد سودان وقع ف شلة انجليز سكرهم بيطلع بغنا قام، عمل لهم رئيس أوركسترا قعد يعلمهم «خد البزة

واسكت» ازوز كنت شايفة بيشيل الراجل الطويل اللى كنا بنسميه حكمدار كينيا من رجليه ويروح ناكته فى الأرض ويشيله تانى ويروح واقع به على الكرسى.. الراجل اتبطح ف الحكاية دى تلات مرات فى شفته وف قورته وكان يقوم من الهدر يضحك ويبوظ ف عزت سفت بليغ كمان حا وقعد يشد شنب الحكمدار ويشكه من ورا ويقول له بالعربى «ياتوتو عليك» ومنير صبرى كان مستفرد بواحد انجليزى وبيدى له درس مصارعة غير كده حصل فصلين من الطف ما يمكن واحد من الركاب ايرلندى باين عليه مايطلعش عشرين سنة من سكره نسى انه موظف فى الحكومة البريطانية وقعد طول الوقت يقف على رجليه ويمد دراعه ويقول «هايل هتلر» ويعقد على الكرسى تانى ويقف ويفرد ذراعه ويقول «هايل هتلر» ، ويقعد تانى.. عمل الحكاية دى حوالى عشر مرات.. بصينا لقينا راجل انجليزى كنا بنسميه الديك الروسى مشى لحد عنده وراح ضاربه قلم على قفاه ومسك فى خناقه. خلصناهم من بعض وخدناهم لبعيد عن بعض .. دى كانت أول مرة ف حياتى اشوف واحد انجليزى «بيتخانق» طبعا بعد كدا شفت كتير لما وصلت مصر قعدت تلات سنين ف انجلترا ماشفتش اتنين ماسكين فى بعض أو حتى بيشتموا بعض.. انا انبسطت قوى من المنظر دا..

بعد كدا على طول شفت منظر الطف وانكت منه.. الساعة دقت اتنين والكابتن لاحظ ان كان واحد اخد كفايته شرب.. هو نفسه كان مستوى وبيتطوح قام أمر بقفل البار وقال للموجودين بذوق:

- خلاص مافيش شرب بعد كدا.. السهرة كانت لطيفة قوى.. بقى كل واحد ينزل على كابينته.. جود نايت وراح مدور راسه بسرعة واتسند على درفة الباب وقعد يستفرغ بصوت عالى كلنا ضحكنا طبعا.. والظباط سندوه لحد حاجز الدك عشان يفرغ بقية بطنه في البحر وبعد كدا طلعوا وحطوه فى السرير.. الشرب وقف صحيح لكن السهرة استمرت بعد كدا كتير.. لحد تلاتة ونص قول.. واتصور بار فيه خمسين راجل مدرغمين ومافهوش ستات.. اتصور الحرية بقى اللى شافوها سكان المادورا.. أنا طول الوقت كنت عامل حسابى انى اشرب ما اسكرش عشان اقدر اتفرج على اللى بيحصل وافتكره تانى يوم، لكن جت على دماغى فى الآخر.

منير صبرى ف درس المصارعة بتاعه انكفأ على الجدع الانجليزى والجدع الانجليزى وقع على عزت اترمى على وأنا اترميت على الحيطة، دماغى طقت زى الجوزة الهند وكنت ها أسورق لولا المجهود العصبى الشديد اللى عملته عشان مايغماش

عليه.. بلاش اقول لك على المجهود العضلي الفظيع اللى عملته عشان اقوم وانا فوقي تلات رجالة اقل واحد فيهم يوزن خمسة وتمانين كيلو.. لكن فعلا دخت وجالى اغماء مؤقت حوالى نص دقيقة.. ولما قمت الدم كان بيشر على قفاى وعلى ضهرى من وسط راسي.. صبرى جا يعتذر لكن برضه قدرت ابتسم وافهمه ان المسألة بسيطة.. المسألة ماكانتش بسيطة - الجرح تلاتة سنتى وغويط - لكن الحمد لله اللى جت على كدا.. لو كانت الخبطة نزلت لتحت شوية على المخيخ يمكن كنت رحت فيها أو حصل لى فقدان ذاكرة ارتجاع مخى وكنت زمانى فى مستشفى المجانيب بدل ما أنا قاعد مرتاح باقرأ كتب وأكتب مذكرات اخدنى دكتور مصرى اسمه عبدالسميع للكابينة بتاعته وعمل لى اللازم كتر خيره، الاصول كنت اروح انام، لكن تعمل ايه فى المقاومة. رجعت الصالون تانى رأسي كلها قطن وشاش ووقفت اتفرج لقيت عزت لخبط قوى.. نزل تحت وقلع ورجع الصالون تانى بالفانلة واللباس وفى ايده حربة طولها متر كان اشتراها من بلاد الزنوج، وقعد ينشن بيها على التابلو المدورة قال بيلعب «دارتس» بصيت لقيت الجماعة الانجليز اللى كانوا بيلعبوا اللعبة دى ابتدوا ينسحبوا

واحد واحد وينزلوا يناموا، الصالون لما صفصفت على أربعة خمسة عرفت ان السهرة انتهت نزلت أنام.

لكن الليالى اللطيفة دى ماجاتش غير ف الآخر، أما فى الأربع اسابيع الاولانية كان الروتين اليومى لينا اننا نصحى حوالى عشرة ونكون فى الصالون حوالى حداشر ونفضل نشرب بيره"وندردش أو نلعب بوكر لحد الغدا وبعد الغدا نرتاح شوية أو نقرأ شوية لحد معاد الشاى وبعد ماناخد الشاى نطلع نلعب بوكر لحد العشا وبعد العشا نبتدى نشرب من جديد ونلعب بوكر لحد نص الليل.. العملية دى كانت بتتكرر كل يوم مع تغييرات بسيطة خالص.. من حين لحين كنا نجرى حوالين المركب أو نلعب الكورة أو الطوق أو نخش فى مناقشة.. وأنا من حين لحين كنت أقابل على الجريتلى فى الكابينة بتاعتنا وأخليه يقرالى حتت من «فاوست» بالألمانى ويترجم لى بالانجليزى أو أقرأ عليه الشعر الوحش اللى أنا باكتبه وهو يسمع فى منتهى الصبر والأدب أو أقرأ عليه منظر من عطيل أو أخليه يقرأ عليه حتت من دى موسيه ف الخمسة وأربعين يوم بتوع المادورا دول كل النشاط العقلى اللى قمت بيه انى قريت رواية «حسن» بتاعت جيمس الروى فلكر وكتبت سونيته واحدة بالعربى البلدى، صحيح أنا حاولت اتعلم

طلياني زيادة على قدر ما اقدر لكن بعد كدا ركنت الكتاب.. البحر كان لسه فيه أمواج، واحنا كنا لسه في وسط البحر، والأرض بالنسبة لنا كانت بؤرة أحلام.. مين يقدر يشتغل من غير استقرار نفس الحركة الراتبة لفوق ولتحت بتاعت المركب كانت رمز لعدم الاستقرار.. وجا علينا وقت كان أى نوع من أنواع الحركة معناه عدم استقرار.. أنا عارف.. هيه غالباً الحركة المستمرة اللى خلتنا نعيش زى الحيوانات على ضهر المادورا.. الحركة عدوة السكون.

فيه جاجات تانية كنا بنعملها أو أنا كنت بأعملها كانت بترجع لى صفاتى الانسانية المهدورة.. كان معانا حسنى حسن ابن الامير عزيز حسن ودا كان شاب بتاع ستاشر سبعتاشر سنة، مش من دورى أبداً، لكن كنت كل ما ألاقيه بيتمرن على درس البيانو بتاعه كنت أقعد جنبه أسمع.. حسن ماكنش ف لعبة مهارة كتيرة وماكنش يعرف البهلوانيات بتاعت بعض الناس اللى صوابعهم سريعة.. لكن من ناحية الاحساس كان الطريقة اللى بيلعب بيها تدل على ان له مستقبل.. هو نفسه مرة قال لى ان كل امله أنه يبقى زى – بادرفسكى أو شنابل ويطوف العالم ببيانو فورت.. حسن عمره ما لعب حاجة غير شوبان.. دا كان يناسبه هو قوى وكان كفاية على أنا قوى.. ولما ألاقى واحد يسمعنى كل

صباحية والتانية ما زورنا ولا نوكتورن ولا دراسة أبقى مبسوط خالص.. ولما ألاقي واحد زي الضابط التالت بتاع المركب يسمعني كل ليلة والتانية سوناتا لبيتهوفن ولا رابسودى لليست أبقى مش عايز حاجة تاني.. حسن كان يكره «المهارة» بتاعت الظابط التالت وكان دايما يتهمه انه خالي من الشعور.

صحيح لكن حسن كان بينسى ان مهارة غريمة كانت احيانا تعلق الأنفاس.

دى أهم حاجة حصلت على المركب.. ومن سجل المحيط الاطلسى مش باقي ف ذاكرتى غير ليلة ابتدت ف منتهى اللطف وانتهت بغم.. كانت الشلة بتاعتنا بتحتفل بعيد ميلاد انور فراج بعد العشا طلعنا الصالون كلنا وماالعبناش بوكر انما قعدنا قعدة جميلة تحت البار على طول وهات ياشرب وهات ياغنا .. فراج اشترا علبة سجاير وحطها قدامنا وكان بيمضى كل الفواتير بتاعت المشتريات كمان.. وعزت قام بدور العالمة وقعد يغنى طول الوقت.. سوينج طبعا .. والباقيين سميعه ومذهبجية.. بليغ وسودان وصبرى وزهدى وصادق اخوان وانا ومدام فراج قاعدة ومبسوطة اللى أحنا مبسوطين.. عزت كان صوته حلو ويغني باصول.. ابتدا بسوينج صحيح، وفي الآخر لخبط كان يبتدى أى دور ويروح على

غفلة قالبة سونج وفالس يقلبه سونج تانجو يقلبه سونج.. كانت حاجة تفطس من الضحك إذ كنت تقدر تتصورها من الزيطة اللى كنا عاملينها.. الناس فى الصالون طفشوا .. وصبرى يطلب دارمبوى ويحرقه ويشربه ويطلب دارمبوى ويحرقه ويشربه لحد ما استوى خالص وابتدا يقلب بعنف.. بقى يضرب الترابيزة بأيده البيرة تقع على بنطلونى.. بقى يقف ويمسك المروحة اللى فى السقف وهيه دايره بمنتهى السرعة.. بقى يحدف ف كراسى ويضغط على الكبايات فى ايده يكسرها.عزت كمان عبال ما صوته اتنبح من الغنا كانت شرايينه اتملت بالدم وعمل عمايل زى صبرى تمام.. احنا كنا ملهيين فى الهيصة بتاعتنا وماحسيناش لما الكابتن بتاع المادورا جامع الظباط وقعدوا جنبنا وابتدوا يشربوا.. يظهر الكابتن استحملنا كتير لكن لما شاف الحكاية فيها تكسير كبايات وتوقيف مراوح وجرى ونط والناس نايمين قال فى عقله دا مش شرب دى عربدة راح زعق فى صبرى،

- انت روح نام..

دى كانت اول مرة نشوف الكابتن.. صبرى شخط فيه:

- انت مين اللى تقول لى اروح أنام.. انت روح نام..

- أنا الكابتن بيتى، كابتن المركب.. باقولك روح نام..

صبرى كان عنيد.. ما اعرفش كان فاهم الكلام اللى بيقولوا والا لأ..

- لا انت مش الكابتن.. انت مش ممكن تكون الكابتن..

المسألة دخلت في دور سئيل.. الكابتن بيتى بص للبارمان وقال له.

- ما تدى لوش حاجة تانى.

- أنا أخد بالغصب.

احنا أول ماشفنا الحكاية كدا قعدنا نهدى في صبرى وحبينا ناخده ينام.. لكن هو ابتدا يستعمل الفاظ قبيحة من النوع اللى بيستعملوه العساكر الانجليز فى مصر.. مش بيشتم الكابتن لكن قال كلام كتير مالوش معنى أغلبه موجه لاصحابه اللى بيشدوا فيه عشان ينزل.

الكابتن: قلت لك روح نام.

صبرى: أنا ابوى رئيس وزارة مصر.. أنا بكره حا ابعت له تلغراف وابقى اتفرج.

الكابتن: إذا ما سمعتش الكلام انزلك ف فرى تاون.

دى كل المناقشة اللى حصلت .. بليغ وسودان وعزت زقوا صبرى بره الصالون . لكن صبرى هرب منهم.. مانزلش ينام إنما

طلع فوق على الدك الفوقانى خالص . طلعنا رراه ندور عليه بين المداخن وف الزوايا مافيش فايده.. هوه كان ف حالة عصبية قوى وخفنا انه يعمل ف نفسه حاجة.. ولما الظباط عرفوا الحكاية اشتركوا معانا فى البحث أخد نص ساعة تقريبا لأن الدنيا كانت ضلمة . كحل وكل الأنوار الخارجية مطفية عشان حالة الحرب.. وف الآخر لقوه نايم فى قارب من قوارب النجاة اللى بتبقى مدلدلة ف جنب المركب .. سابوه للصبح.. جت سليمة ان صبرى ماكنش من النوع اللى بيمشى وهوه نايم .. كمان جت سليمة ان الكابتن قفل الموضوع وما سابوش فى فرى تاون .. تانى يوم الصبح كل حاجة رجعت زى ما كانت.. صبرى كان لسه زعلان رحت أنا جبت له ديوان شعر انجليزى فيه قصيدة لوولت هويتمان عن واحد كابتن مركبه غرقت وقلت له يديها لعزت بلحنها سونج.. القصيدة اخدت لها يومين لغاية ما صبرى راق، لكن يظهر ان زعل الكابتن ماراحش بلاش من يوم الفصل دا نفسنا انكسرت شوية والمادورا رجع عليها السلام..

دا تاريخ المادورا .. باقى تاريخى انا مع البحر والطبيعة.. من يوم مافتنا الهبريديز وانا هربان من الأمواج الملة اللى كلها زى بعضها فى نفسى وف البيرة وف لعب الورق.. لما شفت ان احنا

نزلنا مغرب لحد جزائر الازور فى وسط المحيط بقيت أصلى لربنا ان غواصة تطلع لنا وتطاردنا لحد ما نوصل امريكا عشان ننزل نتفرج على بلاد الله.. لكن مافيش حاجة من النوع دا حصلت، والمانورا بعد كدا مشيت جنوبا. كنا احيانا ننسى خطوط الطول والعرض. لكن ماكناش ننسى ابداً خطوط البارومتر.. دخلنا ف كل المناطق الحرارية تقريبا.. طلعت من تلبورى سليزر فى كحلى وبعد ما نزلنا فى غرب ايرلندا كانت الهدوم بتخفف لغاية ما وصلنا خط الاستواء كل واحد كان داير ببدلة بحر أو بنطلون شورت . وعند مدار الجدى ابتدينا نلبس هدوم تحتانية وعبال ما وصلنا الكاب لقينا الشتا طالع واستقبلنا الربيع.. وزى ماشفنا النهار الطويل شفنا الليل الطويل.. ولكن أهم من كل دا كان لون السما وقت الغروب كنت تشوف الشفق الافريقى بيتدى من الضهر لحد الليل وبين الضهر والليل خمس دقايق مافيش غيرهم وقرب الليل كنت أشوف الشفق فيه كل الألوان الرئيسية وكل الألوان اللى مش ممكنة وان كنت تقدر تتخيل ألوان جديدة كمان متخافش تتصور انها كانت موجودة فى السما قعدنا تلات اربع ايام فطسانين من الحر ونتفرج على تابلوهات مش هاترجع تانى الأيد الخفية اللى

بيعرضها بتخبيها تانى عشان ماحدش يفهمها تمام.. أسأل سيد سودان يحكى لك على سهام الشمس النازلة واشكال الغمام.. ماكنش فيه سحاب ابداً.

كان فيه غيم.. السحاب ابيض بيعوم قدام نفس الريح لكن الغيوم ثابتة وداكنة وحمرا وصفرا وكل حاجة.. دى الخواطر بتاعتى أنا ع الاقل وانت حر.. فيه تغيير فى سما افريقيا الاستوائية لو تعرف تقراه تلاقيه زى التعبير الى على شفايف الزنوج اللى ساكنين تحت الأرض كله قوة وشهوانية وجمال وضاح مش منظم.. ولو عندك خيال شوية تقدر كمان تشوف الغيم النبيتى والتمتعانى والاسمر قاعدين عليه أطفال الزنوج، سود وعريانين وبيفتحوا فى الغيم بصوابعهم الصغيرة الفحمية.. اى واحد يعيش تحت السما دى لازم يأكل لحوم البشر دى حاجة ف المناخ.. فيه حاجة صريحة ف افريقيا الاستوائية مابافهمهاش من موسيقى رافيل ولا من صور جوجان لكن بافهمها من اى رومبا وأى كونجا.. اركب المادورا تفهمها.

المادورا ما وقفتش غير مرة واحدة فى الرحلة الطويلة دى.. من تلبورى لغاية فرى تاون عاصمة سيراليون شوط واحد.. يعنى

شـهر تقريبا.. كان لازم نرسى ف نرى تاون افتكر عشان نجدد أكل ووقود وميه.. ولما اشرفنا على البلد لقيناها عبارة عن شويه بيوت مش واضحة على تل اخضر وف سفحه فرى تاون ماكانش ليها مينا عشان كدا المركب بتاعتنا مادخلتش ع الساحل انما وقفت بعيد ف البحر الغويط على بعد كيلو ونص تقريبا.. كان فيه مراكب تانية كتيرة حوالينا ومن بعيد قوى شفنا مركب مرفوع عليها العلم المصرى.. اتفرجنا عليها بالتلسكوب وافتكر قرينا عليها اسم «ردامس» وانت فى مصر ماتقدرش تتصور الفرح اللى فرحناه لما شفنا المركب دى كانت صغيرة، لكن زى بعضه كفاية الواحد يحس ان بلده ليها بواخر بتشق المحيطات وتقتحم موانى العالم حتى من كتر الزيطة والهرج بتاعتنا والتلسكوب بيفوت من يد ليد الركاب الانجليز اللى مركونين على الدك اتحرك فضولهم وعرفوا الحكاية حجزونا فى المركب ساعتين وبعد كدا سمحوا لنا ننزل فى المينا ونرجع الساعة خمسة بالظبط، أول المادورا ما كانت قربت على فرى تاون وربطت بصينا لقينا الزنوج جايين من قوارب صغيرة قوى مدببة وضيقة ومطبولة ، من النوع اللى بيسموه بالانجليزى كانو.. كل كانو يساع راجل واحد.. الزنوج

اتلموا تحت المركب وكان شكلهم يضحك.. كانوا عريانين خالص وسود غطيس بيعملوا بهلوانيات.. واحد منهم كان جسمه عريان ملط ولابس ياقة سهرة منشية وبرنيطة عالية زى بتوع اللوردات الانجليز وطول الوقت يغني هللويا مش هللويا بتاعت موتزارت.. هللويا أمكريكانى من اللى المبشرين بيعملوهم للنزوج.. دول طبعا كانوا شحاتين.. كنت ترمى للواحد بنس والا اتنين ينط من الكانو ويغطس يجيبهم.. الركاب طبعا كانوا عشان يخيلوهم يرموا لهم فكة كتيرة قوى فى كل الاتجاه والزنوج زى العفاريت ما يطلعوش السطح غير بعد مايلموها كلها.. قعدنا نضحك نص ساعة ويعدين جت القوارب تاخدنا للساحل..

نزلنا فرحانين وركبنا نلف فى البلد وزى العادة ف كل مينا التراجمة اتلموا علينا.. غوطنا ف البلد فراج ومدام فراج وانا دخلنا الدكاكين واشترينا برانيط ومباسم عاج وحرب صغيرة وسمعنا ناس بيتكلموا عربى.. أتارى البلد فيها جالية سورية مش قليلة وكلهم فاتحين دكاكين كانت وسخه وكلها تراب والبيوت مكسرة وواطية وبعضها مبنى بالبوص والجريد ومغطى وأحسن بيت فيها بيت الحاكم العام الانجليزى كان زى بيت عمدة ف

الريف المصرى لقينا البلد كلها فى ربع ساعة على الاقدام وفى الآخر لقينا انفسنا بنخش فى الغابة اللى طالعة على الجبل. قلنا لحد هنا كفاية وقعدنا على الارض بين شجر الموز والمنجة والنسانيس بتتنطط حوالينا.. أنا طبعا ماكنتش قاعد على بعضى وطول الوقت باتصور ان تعابين كبيرة جاية علينا زى الهيدرا والكوبرا والانواع اللى كنت باشوف صورها وانا صغير مرسومة فى قاموس وبستر وانشف فى جلدى.. وما صدقت معاد الغدا جا قلت نرجع.. رجعنا المركب وكل الناس.. والمانورا سابت المينا وبعد شوية الضلمة جت ولقينا نفسنا بين المية والنجوم.. النجوم كانت أوضح من زى نجوم شفتها فى حياتى واكثر والمية كانت زى العادة بتلطش فى نفسها لكن تبص فيها تلاقى تحتها حاجات بتنور وتنطفى ، زى ما تكون لمبة كهربائية مولعة جواه، دورق مليان ميه سودا، قالوا اسمك، ما اعرفش .. وفى النهار شفنا حوت غطسان وبينفخ من خرم راسه نافورة ميه افتكرناها من بعيد بيريسكوب غواصة، وفى النهار شفنا لغم طافى والبحارة ضربوه عشر مرات بالرصاص عشان يتفجر ماحدش عرف يصطاده.. سابوه وفى النهار فتنا جنب سانت هيلانة وماشفنهاش

لكن الطيور قلت والريح ناحت.. وروح قوية غضبانة حامت على رش المياه.. الانجليز رقصوا طول الليل وانا سحبت شوب البيرة بتاعي وانزويت على جنب استعبر باللى كان وأتأمل فى اللى هايكون.

بعد كدا ماشفناش غير الميه والافلاك.. خلصوا الواحد واربعين يوم.. وياالليل شفنا جبل منور من راسه وعلى الجبل شوارع وميادين وفى الشوارع حياة.. كاب تاون.

رأس الزوابع

وصلنا كـاب تاون ليلة ٢١ اغـسطس ١٩٤٠.. قـالوا لنا المركب هاتبات فى المينا وهاتقوم فى الضحى.. نزلت انا وحسن لابسين بلاطى المطر لأن السما كانت بتندع .. عدينا الجمرك ومشينا ورا الأنوار لأن منظر الانوار كـان يفـرح القلب بعـد سنة سـودا فى انجلتـرا وخـمس أسابيع ع المحيط الدامس.. حتى السيـجارة مـاكناش نقدر ندخنها على الدك بالليل بأمـر الكابتن.. حسـيت بالسعادة لان أخيرا حطيت رجلى على جزء من العالم مـافهوش حرب ومابيفكرش فى حرب . لكن أغلب سعادتى كانت جغرافية سببها انى كنت حاسس انى ماشى فى آخر نقطة على الخارطة اللى فى الأطلس من تحت، وانى اقدر اقول انى عشب ف آخـر افريقيا من الشمـال وف وسط افريقيا الاسود وف آخر افريقيا من الجنوب كـأنى صـحيح مشيت الأطوال العجيبة دى كلها على رجلى.. لأ مش كفاية انى اتفرج على كيب تاون.. لازم «أنام» فى كيب تاون عشان اسجل الذكريات وابنيها على اساس.. طبعا أنا ماقلتش الخواطر دى لحسن واحنا دايرين من سينما لسينما ومن شارع لميدان قلت له:

- اسمع يا حبيبى.. بقى انا أدى خمس اسابيع بأنام على مرجيحة..أنا الليلة دى لازم أنام على سرير ثابت وأحس بأنى على تيرافيرما.

الفكرة عجبته.. احنا حجزنا اودتين فى لوكاندة اسمها «جراند اوتيل» ونزلنا تانى نتفسح فى البلد لقينا فيلم لتلسون ادى وجانيت ماكدونالد في سينما اسمها البلازا دخلنا انا طلعت مبسوط وهو طلع قرفان. لكن تانى يوم الصبح اتفقنا اننا نمنا مرتاحين..

ومن كتر النشاط نزلنا سوا نشترى له جزمة قبل ما نرجع المركب.

المركب شالت الركاب وابتدت تخرج من الميناء، لكن القارب اللى كان هايمشى قدامها عشان يوريها الميه الصالحة للملاحة خبطها فى ضلوعها قام جنبها اتطبق.. المادورا وقفت بعد ماالفت وقفت مدة طويلة.. قالوا ان شركة التأمين رفضت تضمنها إذا خرجت من المينا وف الآخر جانا الخبر اليقين ان المادورا هاتنام اسبوع فى مدينة الكاب نزلنا على البلد جرى ولقيناها شلل شلل زى الدوريات.. قبل مانخش جنوب افريقيا كنا سمعنا عن مشكلة الألوان فيها لكن أنا شخصيا ماكنتش فاهم معناها بالظبط كنت افتكر انهم بس بيدققوا فى الاجناس اللى بتدخل عندهم.. لكن

لما قالوا إن البيض لهم قانون والسود ليهم قانون قلت مش معقول.. الحقيقة ان كل المصريين لما سمعوا بالحكاية دى استنكروها وخافوا على نفسهم وبقم كل مايروحوا حته يبقوا مستعدين للخناق.. طلعت أنا والاستاذ الجريتلى نحقق الحكاية دى فى النهار.. شفنا كل اللوكاندات والسينمات مكتوب عليها «للأوروبيين بس» شفنا الأتوبيسات مكتوب على نصها «للأوروبيين» والنص التانى «لغير الأوروبيين» شفنا مراحيض عامة للبيض ومراحيض للسود « شفنا بارات نصها للبيض ونصها للسود، ولما وصلنا دربان أن شفت كنيسة – بيت الله – ليها بابين.. واحد للبيض وواحد للسود.. البنك القطر.. المواقف.. والمنتزهات .. كل حاجة مقسومة نصين: ابيض وأسود.. ابتدينا نخاف.. المشكلة بقت بالنسبة لنا: يا ترى احنا يا مصريين بيض ولا سود قلت للجريتلي يللا نجرب.. دخلنا بار واستعبطنا.. أنا : اتنين وسكى صودا من فضلك.

البارمان – آسف.

أنا: ماعندكش ويسكى طب هات اتنين بيرة.

البارمان – آسف.

هزيت كتافى وخرجنا . البارمان ماقالش غير الكلمة دى.

كل حاجة كانت واضحة لكن أنا كنت باعمل عبيط.. إذن المصريين فى جنوب افريقيا حاسبينهم سود.. انا دمى فار من غير مسوغ.. قبل مانخش البار كنت فاهم انه يمكن فيها كسفة، ولما حصلت الكسفة ثرت كان المسألة كانت جديدة على وقعدت اشتم أولاد الكلب السفلة، بكره نعمل امبراطورية ونوريهم، بعد كدا الواحد بقى ماشى مدووش.. مرة سألت واحد فى السكة عن الساعة مارضيش يرد على اتهيأ لى انه يصح فى أى لحظة انه بيجى واحد ويوقفنى ويقولى، انت ماشى من الشارع دا ليه، أنت اسود «أو» انت بتشرب سيجارة ليه، انت مش أبيض.. صحيح لحد دلوقت ماشفناش شوارع مكتوب عليها ألوان ولا اعلانات تمنع التدخين على غير الاوروبيين لكن بعد الحاجات اللى فاتت على اتهيألى ان أى حاجة جايز تحصل فى جنوب افريقيا.. لحد دلوقت طبعا ماكانش واضح عندنا إذا كان المصريين فى قانون البلاد دى من الشعوب الملونة ولا من الشعوب اللى مش ملونة.

البارمان لما قال لى «آسف» يمكن كان فاكرنى هندى.. طيب الجرائد هوتيل قبلتنى ليه الليلة اللى قبلها.. وسينما بلازا، لا البارمان مش قياس.. على العموم احنا قررنا اننا نمشى فى الحكاية للآخر.. واللى يحصل ركبنا الاوتوبيس عشر مرات مع

الأوروبيين ماحدش قال حاجة.. وبالليل دخلنا مع بليغ وسودان وفراج سينما تاني واتفرجنا على مستر روبرت تايلور وفيفيان لي في «جسر ووترلو» ماحدش قال حاجة.. ورحنا أحسن رستورانت في البلد ماحدش فتح بقه.

أنا ما اعرفش اصحابنا الباقيين حصل لهم ايه بالظبط في المسألة دي، لكن اعرف ان بليغ وفراج وسودان وصبري وعزت وزهدي اول ليلة دخلوا قهوة كبيرة اسمها «دل مونيكو» وقعدوا يشربوا من سكات وبعدين جم اتنين عساكر سكرانين وقعدوا يترازلوا عليهم «العساكر ابتدوا».

– انتوا قاعدين هنا ليه؟

ماحدش رد عليه.

– انتو مش ف الجيش ليه؟

ماحدش رد عليهم.

– انتو من انهي داهية.

لما الجماعة شافوا ان مصر بقت داهية عرفوا ان التلبيخ هايشتغل.. كل واحد كان عارف ليلتها ان المركب هاتقوم تاني يوم الصبح بدري، وماحدش قايم عنده نية انه يبات في الكركون ويخليها تفوته.. عشان كدا المصريين احتملوا كتير.. بليغ كان

ناصح.. راح قايم من سكات وقابل مدير المحل وشرح له المسألة وطلب منه انه يرمي العساكر بره.. وفعلا مدير المحل نزل معاه وخلاهم سابوا المكان.. بعد دقيقة العساكر رجعوا تاني ورا بليغ من جديد.. واحد منهم مسك بليغ من قفاه التاني زغده في راسه وقال له:

– أنا سألتك انت من انهى داهية . ما ترد.

بليغ وقف على رجليه وقال له:

– حاضر هارد.

وراح شايل كرسي وطاخ على دماغ الجدع.. دمه ساح لكن قام وحب يهجم. كمان ترابيزة على دماغه نزل فلات.. سودان كما وقف على حيلة ومسك التاني من ياقته ويوكس في صدغه الشمال وجزمة في بطنه نزل فلات.. البوليس جا وشالوهم على نقالة.. مدير المحل شهد ان العساكر هم العايبين والليلة انتهت بسلام.. الناس اللي كانوا بيتفرجوا على الخناقة اتلموا على المصريين وقعدوا يسلموا عليهم وكل واحد طلب لهم بيرة على حسابه دا طبعا دليل على جنوب افريقيا بلد لسه بكر.. وأهله يحبوا أعمال الفتونة وشغل «الكاوبويز» تاني يوم الصبح، الخبر

كان على كل لسان لما وصلنا دربان بعدها بعشرة ايام لقينا الناس لسه بتتكلم فى الموضوع.

أدى أول حاجة عملوها المصريين ف جنوب افريقيا. دافعوا عن كرامة بلادهم، وفهموا كل الناس ان مصر فيها رجالة.. وعلى حس خناقة دل مونيكو كان فيه اكتر من ميت مصرى عاشوا شهر ونص في جنوب افريقيا روسهم مرفوعة . تعرف الجزاء كان ايه بدل الحكومة المصرية ما تطلب نيشان الجدارة لبليغ وسودان بعد ما رجعوا رفضت انها تاخدهم فى الجيش نهايته خلينا فى عالم الذكريات لان عالم الذكريات مش مر زى عالم الواقع.

تانى ليلة بليغ وشلته داروا يشمشموا على نادى ليلى لغاية ماعتروا ف واحد.. وف النادى شافوهم غامقين شوية تعبوهم شوية ماتفهمش خافوا منهم والا ايه ماقدروش يقولوا لهم ممنوع الدخول لغير الاوروبيين قاموا قالوا لهم ان النادى مابيديش مشروبات دخلوا وقعدوا وهم ناويين على نية سودا.. كلمة واحدة خارجة عن حد الأدب وهم يشطبوا المحل على الطريقة المصرية صبرى نزل جرى على المادورا عشان يجيب شرب لقى البار قافل.. راح واحد بحار بكام شلن وخلاه يسرق له قزازة جن من أودة الكابتن.. رجع بيها النادى الليلى والجماعة قعدوا يمزوا عليها

لحد ما خلصت.. الناس اللى كانوا بيرقصوا بطلوا رقص وكل واحد قعد كاشش من وجود الجماعة دول .. المرح راح من الصالة.. لكن مصر اقتحمت «بالعافية» وكر من أوكار الاوروبيين. ودا كفاية أنا عندى حاجة زى كدا فيها دعاية لمصر أكتر من لما نفتح قنصلية وسفارة ونبعت بدل بقصب وقواصين.. فيه ناس تخاف ماتختيش .. دول خوفهم تعيش مرفوع الجبين.

أول يوم الصبح رحنا الجريتلي وأنا طرف البلد من تحت حته اسمها سي يونيت كاب تاون زى ما قلت لك مبنية على جبل اسمه تابل ماونتن ف خليج اسمه تابل باى، وفعلا الجبل لما تشوفه من بعيد وانت داخل المينا تلاقى شكله زى ترابيزة حجر.. منظر البحر من ناحية المينا ممل لانه مستأنس شوية ومليان مراكب وفى ضهره ونشات مالها عدد وترسانة وخط سكة حديد وعربيات مليانة فحم وشيالين وعمال وموظفين الجمرك.. كل الحاجات دى تضيع هيبة البحر.. إنما إذا كنت عاوز تتفرج على عناصر الطبيعة ف حالتها الأولى تلاقيها فى حتة تانية من الساحل زى سى بونيت. نزلنا من الاتوبيس وكان لازم نمشى مسافة بانحدار.. لقينا دكان دخلناه نشترى سجاير. لقينا بنت حلوة عمرها حوالى تمتناشر سنة وشها صبوح واقفة تأكل قشطة وتضحك طول الوقت

عرفنا من لغتها ان البنت ماكنتش انجليزية انما افريكان يعنى من اصل هولندى، ولما شافتنا وقفت تتفرج علينا زى ما كنا بنتفرج عليها هيه وقفت تتأمل فينا لانه كان باين علينا اغراب.. لازم افتكرتنا اسبان أو برتغاليين.. احنا وقفنا نتفرج عليها لانها أول خلقة نضيفة شفناها بعد اربعين يوم من القحط الشديد.. صحيح المركب كان فيها تلات أربع بنات انجليز باين عليهم كانوا رايحين يشتغلوا ممرضات في السودان وباقى نواحى الامبراطورية ، لكن دول كان شكلهم غلط على الاطلاق ويمكن فى ظروف تانية الواحد مايرضاش يتعرف بيهم، هم كمان فى الظروف الاستثنائية دى استغلوا قانون العرض والطلب اشنع استغلال وابتعدوا عن كل الناس وفاتت أربعين يوم على اربعين شاب من غير ما يتبادلوا تحية الصباح مع واحدة من الجنس التانى. القسوة اللى ف الموقف واضحة علشان كدا البنت اللى شفناها واقفة تأكل قشطة وتضحك جنب الشاطىء هبت علينا زى نفحة زكية من عالم الأرض وفيها اتجسدت كل معانى الحياة.

مافيش بينه وبين الأرض تجارة.

سبناها ونزلنا الشاطىء لقينا صبرى كمان نازل يتفسح واحنا نفسنا كان باين علينا أننا ملاحين من عالم بعيد محصور...

قعدنا ع الصخر ضهرنا لكوينز هوتيل وبقية الفيلات وعنينا مرخية على مفرق البحور، شفنا المحيط الاطلسى بيضرب فى المحيط الهندى والاتنين بيضربوا في الصخور والجو كان صافى، والأفق ممدود أبعد من المعتاد والمية بتلمع تحت الشمس والهوى بيمسح سخونه من خدودنا، ولو كان نظرى بعيد شوية كنت شفت المحيط المتجدد الجنوبى طالع منهم زى بحيرة قزاز بتتمخطر عليها البنجوين وسيندرلا بتعمل باتيناج البحر كان هايج وماكنش فيه أمواج. كان صدر الميه كلها يتملى غضب ويرتفع وبعدين ينطوى حوالين نفسه أو على صخور الساحل لحد ما قوته تتبخر فى الهواء ويهبط لأصله.. ولو كنت قاعد لوحدى يمكن كنت عملت بتين لشعر أفتكر بيهم أقصى الجنوب والشعور جالى وأنا قاعد على الحجر كان الأرض مسطحه وكأنى قاعد على حرف الأرض ومدادل رجلى فى الفضا، لكن أنا ماكنتش لوحدى وكان عندى حاجة أحسن من بيتين شعر افتكر بيها المكان.. البنت الهولندية جت علينا وقعدت بعدنا بصخرتين وكانت لسه بتاكل قشطة.. أهو انا بعد عشر سنين ها أنسى مدينة الكاب وشوارعها وميادينها وباراتها واختباراتها مش ها أفتكر من كل اللى شفته غير لسان الأرض عند سى بونيت والبنت

الهولندية ماشية ع الساحل بتاكل قشطة فستانها طاير فى الهواء وعينيها بتجول من غير اكتراث فى مجمع البحور، كمان ها ابقى افتح الاطلس عند خريطة العالم وفى ايدى دبوس واشوف آخر نقطة فى افريقيا من تحت، وبين اللون الاصفر بتاع اليابس واللون الازرق بتاع المياه اغرز الدبوس زى ما واحد رحال لما يوصل قمة افرست ويغرز علم بلده، واقول هنا قعدت على القارة ودلدلت رجلى فى المحيط.

دى هيه السعادة الجغرافية اللى قلت لك عليها، الاسبوع فات هوا وشفنا كل بيت فى كاب تاون وكل شجرة، بلد جميلة نضيفة صغيرة جديدة صحيح مافهاش آثار زى مصر لكن دمها خفيف وصحيح اصغر من اسكندرية بمراحل لكن عاملة زى الموانى السحرية اللى فى امريكا الجنوبية اللى قريت عنها وماشفتهاش، اسبوع كامل فى مدينة الكاب مالقيناش واحد من الأهالى نكلمه حتى كمسارى الاتوبيس كان ياخد فلوسه من سكات.. اللى يحكم بالمظاهر يفتكر ان البلد دى جد فى جد.. لكن انا قادر اتصور الافراح المستخبية والليالى اللطيفة اللى ماشفتهاش، اللى مايشفهاش السايح لكن يشوفها واحد استوطن فى بلد وانسجم مع أهلها، أنا متأكد انى ابقى سعيد لو عشت سنتين فى مدينة

الكاب، أنا ماكانش عندى فلوس كتير عشان كدا كانت القاعدة انى اطلع الصبح والضهر ارجع اتغدى فى المركب وبعد الضهر انزل البلد تانى ورع العشا أرجع أكل وانزل تانى فى آخر الليل وارجع المركب انام.

العملية دى كانت بتوفر لى جنيه بالراحة كل يوم.

ولكن دى كلها اختبارات شخصية واهميتها محدودة.. أهم منها الحاجات اللى اتعلمناها عن جنوب افريقيا مش بس فى اسبوع الكاب لكن كمان فى الشهر اللى قضناه فى دربان فى مشاهدات الحياة، اتعلمنا ان سكان اتحاد جنوب افريقيا خليط مش مزيج، لأن الشعوب اللى فيها مش راضية تندمج فى بعضها لا فى اللغة ولا فى الدين ولا فى الدم عن طريق التزاوج ولا حتى فى العادات، الانشقاق دا طبعا وصل للقمة ايام حرب البوير، لكن حتى دلوقت أنا ما اقدرش اسمى سكان جنوب افريقيا «شعب» عشان مافيهمش وحده.. ومالهمش غرض مشترك.. دا يمنعش انهم ناس متمدنين قوى فى حاجات كتيرة، وحتى مالوش دعوى بالحكاية دى.. المدنية شيء والنضوج السياسى شيء تانى.

شعوب جنوب افريقيا ليها عدد ومعروفة، أولا فيها بيض وسود البيض نوعين ناس اصلهم انجليز وبيتكلموا انجليزى وناس

اصلهم هولنديين وفرنساويين كان أصلهم هيجونوت طفشوا من اضطهاد الكاثوليك زمان ودول بيسموا نفسهم افريكان وبيتكلموا لغة مولودة من اللغة الهولندية اسمها برضه افريكان، السود برضه نوعين، فيهم الزولو ودول السكان اصلين واصلهم صنف من الزنوج وبيتكلموا لغة اسمها البانتو، وفيهم هنود هندوس على مسلمين .. ودول ساعة يتكلموا انجليزى وساعة هندى واصلهم كانوا الانجليز جابوهم من الهند وسيلان ايام ما كانوا بينشروا زراعة السكر فى جنوب افريقيا، دى هيه الاجناس الرئيسية، لكن طبعا فيه ناس مولودين نص دمهم اوروبى ونصه مش أوروبى، وبين السود نفسهم فيه ناس هندى على زولو.

تلاقى بين العناصر الاربعة دى فيه شقاق مستمر، لكن مش دايما ظاهر تلاقى الانجليز والافريكان منضمين لبعض ومسميين نفسهم أوروبيين عشان يحكموا السود ويستغلوهم، الحكومة فى ايدهم وطول الوقت يطلعوا تشريعات ضد السود، الحالة فى جنوب افريقيا بطالة خالص لان الحكومة المركزية «معترفة» بان فيه ألوان، كل واحد يعرف ان الولايات المتحدة كان فيها ويمكن لسه فيها مشكلة ألوان، لكن حكومة واشنطون من ايام ابراهايم لنكولن عمرها ما اعترفت بان زنوج امريكا مش مواطنين ليهم

نفس الحقوق وعليهم نفس الالتزامات بتاعت البيض بالتأكيد فيه لكن فيه كراهيات واضطهادات كتيرة شغالة ويمكن الحكومة نفسها مشتركة فيها لكن مش بشكل رسمى، فى جنوب افريقيا مش كده بقى، الحكومة هى اللى فاصلة السود عن البيض فى كل المرافق العامة وهى اللى مانعة السود من الجماعات وهى اللى عاملة اجرة الاسود اقل من اجرة الأبيض وهى اللى مطلعة قوانين للأوروبيين وقوانين لغير الاوروبيين، فى غير كده تلاقى الانجليز والافريكان يكرهوا بعض وطول الوقت يتنازعوا على السلطة بدرجة ان البلد ليها لغتين رسميتين الانجليزى والافريكان وعاصمتين كيب تاون وبريتوريا وحزبين فيلد مارشال سمطس اللى عايز جنوب افريقيا تستنى حتة من الامبراطورية البريطانية وحزب هرتزوج ودكتور مالان اللى عايزين بلدهم تنفصل منها والطابور الخامس اللى عايز اتحاد جنوب افريقيا يبطل حرب ويعلن انفصاله من الامبراطورية بيشتغل بمنتهى النشاط، حتى واحنا هناك شمعنا عن مؤامرة عاملينها الافريكان لقلب نظام الحكم لكن مافيش حاجة حصلت، والسود كمان حالهم ألعن من البيض، طبعا فى اى حاجة ضد البيض تلاقيهم مع بعض لكن فى غير كدا تلاقيهم منقسمين، الهنود لأنهم مش غامقين قوى زى

الزولو عـاملين انهم اعلى منهم فى الجنس.. والقـوانين نفسـهـا بتشجعهم لان الحكومة بتفرق بنى سواد وسواد وفى مقياس الانسانية سكان جنوب افريقيا ترتيبهم من اعلى الى اسفل.. الانجليز والافريكان والهنود والزولو وحالة تحزن صحيح.

لما استقرينا شوية فى البلد اتعرفنا بناس من كل جنس، الزولو كـانوا بيـشـتكوا لنا من الهنود والهنود كـانوا بيـشـتكوا لنا من الأوروبيين نسأل الانجليز يقولوا لنا دول الافريكان هم المسئولين، نسأل الافريكان يقولوا لنا دول الانجليز هم المسئولين.

الاسبوع فات والمانورا صلحوها بالاسمنت وخرجت من المينا ودخلت فى البحر العريض.

حياة الصالون اللى مليان دخان سجاير وكبايات بيرة على الترابيزات رجعت تانى لكن ماكانش فيه لعب ، قعدنا أول يوم الاستاذ الجريتلى وأنا نبحث فى مشكلة الالوان لكن فى ظروف مش عادية أبداء أنور فراج والست بتاعته سابونا فى الكيب لأن الست كانت حامل ودكتور المركب قال: دى تكمل الرحلة بالقطر.. دى ماتحتملش الامواج اللى هاتفوت فيها.. الامواج اللى كنا هانفوت فيها كانت الأمواج اللى فات فيها بارثولوميو دياز.. ورأس الرجاء الصالح كان زمان اسمه رأس الزوابع وكل المراكب

اللى لفت حواليه لفت فى دواماته واستقرت فى بطن المحيط.. لحد ماجه بارثولوميو دياز وقيد الريح واخضع اللج وفات بسلام وغير اسم المكان، الريح ماضيعتش وقت وابتدت تصفر والموج اللى عملته ماكانش زى قمم الجبال لكن زى الجبال نفسها وبين الجبل والجبل اخدود، والأخدود زى الهاوية، والمركب تتحدر فى الهاوية ونشوف بوزها بزاوية ١٢٠ درجة نغمض عنينا هانخبط فى القاع، والجبل المتجدد يحط كتفه تحت المركب ويطلع بيها من قدام نغمض عنينا ونقول المركب شالت ميه من ورا، وطول الوقت خشب الكباين بيزيق زى سقف بيت خربان، وان ماغمضناش عنينا نشوف الكراسى والطقاطيق والبيانو نفسه بيدحرجو على ارضية الصالة، أنا بحار كويس عمرى مادخت من الميه ولا استفرغت ولا حتى فقدت شهية، لكن المرة دى خفت صحيح.. الميه كانت تطلع لتالت دك وتتحطم عند جزمتى وتبل بنطلونى، اخاف ولا ما اخافش؟ مجرد النظر إلى البحر كان يخلى الواحد يفكر فى تفاصيل الغرق ولقيت اسلم حاجة أن الواحد يحتمى فى الصالون ويشتغل بكتاب يصرف تفكيره ويعمل حسابه ان عنيه ماتقعش على الأفق اللى بيطلع ويختفى بره الشبابيك، نص الركاب استفرغوا والمرح بتاع دل مونيكو طار من

الشفايف الصفرا والاجسام المرضانة اللى كانت مرمية على الكنب أو مسنودة على الحيطان.

أربعة ايام بالشكل ده فى مركب كهنة ضلوعها ملصمة بالاسمنت وحمولتها بتاعت بحر مش محيط.

وأنا ما اعرفش اعوم، اللى زيي طبعا كان يطنب زى الرطل يغطس مايطلعش، لكن دى فكرة مش منتجة، يعوم مين يا عم ، ولا جونى وايسمولر ولا اسحق حلمى يثبتوا خمس دقايق على بعض، من الأول كنا عارفين انهم هايبقوا بالشكل ده، ومن عنف المحنة أنا شخصيا ابتديت أشك إذا كان رجانا الصالح فى دربان كان له محل ولا لأ لكن افقطع وقت فات على صحيح كان لما يجى وقت النوم، فى النهار الموت يجى والواحد يشوفه فى صدر الموجة المالحة ويغالبه ويشربه ويطفحه ويضربه بايديه ورجليه، فى النهار الواحد يقدر يشوف له طوق والا جاكته فلين والا قارب نجاة والا حتى لوح خشب يتشعبط فيه زى روبنصون كروزو.

لكن بالليل كل ما احط راسى على المخدة اتصور انى نعست وصحيت مرعوب لقيت المحيط بيتدفق من باب الكابينة زى الشلال، ساعتها يبقى قضى الأمر. قطيس، أو أتصور انى رحت فى نومه وتانى يوم الصبح ماصحيتش.. يعنى مت من غير ماخد

بالى.. فطيس.. أو اتصور نفسى قال فى قاع المحيط راقد مسجى مافيش حياة والسمك حوالى بيقزقز فى صوابعى ويعض فى جزمتى ، لأ بلاش نوم، أقعد فى السرير أقرأ من غير فهم وانتبه للسقف اللى بيزيق واسمع رغاء الثبج وهدير العناصر وأبص فى وش على .....

الجريتلى ألاقى عليه صفاء نورانى مافهوش تعبير زى واحد ارتفع عن الدنيا وبيبص وراه وبيتأمل عمله ف حياته ومش شايف فيها حاجة تزعل ولا حاجة تفرح ولا حاجة تكسف ، حتى مش شايف فيها حاجة تستحق الاهتمام ، أهو ده لو انتهى دلوقت يبقى طلع كيت من الحياة ، وطلع كيت مع الحياة ، وأبص للسرير اللى تحته ألاقى مصطفى عبدالعزيز وشه بينز عرق ف المخدة وقورطه مكفهرة وخدوده بتتنفض وطول الوقت بيمضغ حاجة زى واحد ضميره تقيل وعقله الباطن مشجون أحقاد وآلام ، وتلاقيه كان بيفكر ساعتها ف رسالة الدكتوراه اللى كان سابها ف ايدين الممتحنين وركب المركب قبل ما يعرف النتيجة ، الساعة اتنين ، ألبس الروب وأطلع ع الصالون ما ألاقيش جنس مخلوق عرفت أن أنا الوحيد اللى أعصابه خسرانة ع المركب ، والساعة أربعة تكون أجفانى بتتاوب وشفايفى دبلانه وعقلى منهوك ، أنزل كابينتى

وأقول لحد كده كفاية ، دى بقت حرب ع الحياة مش حرب ع الموت، اللى يموت ف ستين داهية ، وأصحى مع الغدا..

أربعة أيام بالشكل ده ، ونسينا العبيد بتوع كاب تاون واليفط اللى بتقول « للاوروبيين بس » نسيناها ، ماكانش عندنا غير فكرة واحدة ، زى مابتشوف الريح أحيانا تتجمع على بعضها ف شكل مخروط من الدخان وناس تقول عفريت وناس تقول أعصار كمان المحيط كله لف حوالين نفسه ف دوامة واحدة ، أربعة أيام بالشكل ده ، وف الصبح شفنا الطيور . طيور دريان ، وبالليل حلمت حلم جميل .

اوندين ١٩٤٠

حلمت أن المادورا غرقت وانى ماشى ف المحيط .. لكن الأهوال اللى شفتها على وش الميه اختفت ومافيش حوالى غير سكون زى سكون المرتفعات، وصفاء زى صفاء السماء عند القطبين وموج مافيش رياح . فيه بس اوقيانوس مالوش حدود من الزرقة الرايقة اللى بتتمرجح من غير صوت زى ألوان «والت ديزنى» والا السائل السحرى اللى ف بنورة لص بغداد . فاتت على سمكة حمرا ف حجم الرمانة بترمى هالة حمراء منين ماتروح ولعبت قدامى شوية وقبلت الميه بين ايدى وهزت النور اللى ف ديلها فهمت انى لازم أمشى وراها . لو كنت ع الأرض كنت افتكرتها النجم الهادى اللى مشى قدامه الرعاه لحد بيت لحم ووقف عند بيت النبى المولود قلت دى رسول من عند ملك محجوب وأنا على وشك رؤيا .

فضلت ماشى والسمكة تنور طريقى . وع البعد شفت غبش سد البحر ، البحار يشوفه صخرة من فوق واللى يعرفوا أسرار الخيال يشوفوه قلعة ليها سبع أبراج وقبة كبيرة . شوية شوية لقيت نفسى على أعتاب كهف عظيم بابه ضئيل والسمكة حنت راسها وهزت ديلها النورانى وقبلت الميه بين ايدى وانطفت على

طول .. دخلت الكهف لقيت دهليز وف آخر الدهليز صالة كبيرة مسقوفة بالزمرد واللولى والياقوت المعشقين بذهب مصبوب . شفت الحيطان مرجان ، والأرض واسعة ومكشوفة ، بلاطة مرمر ، وبلاطة فاروز ، وف آخر الصالة شفت ملك قاعد على عرشه تاجه فصوص الماظ وف ايده الصولجان . لابس كسوة لونها حشيش مفضض وحواليه بنات البحر والفرسان . خفت شوية لكن مشيت بثبات لحد ما بقى بيني وبينهم حاجة بسيطة وركعت تلات مرات وصرخت بصوت عالى :

ـ يامولاى ، أنا شفت نور عجيب ومشيت وراه . ياترى أنا وصلت والا لسه كتير ؟

الراجل اللى ع العرش رد :

ـ أهلا وسهلا هنا ماحدش يعرف الشك ولا الغلط ولا الضلال.

فهمت التلميح وعرفت أن دا هو المكان . قلت :

ـ فين أنا يا مولاى ؟

ـ أنا ملك البحر ودا قصرى ودول بناتى وأصهارى وأنت ضيفى إذا حبيت ..

ركعت تانى وقلت :

ـ أنا ف خدمة مولاى ..

ملك البحر ضحك وقعد يلعب فى دقنه البيضا بتأنى ورد :

ـ ماتوعدش يا ابنى بحاجة بعدين تندم عليها . قبلك برضه واحد زيك وعد وأقسم لكن نسى الأيمان . اسأل بنتى دى عن بقية الحكاية ..

بصيت البنت اللى شاور عليها أتهيألى إنى شفتها قبل كدا .. قعدت أحقق ف شعرها الأزرق الطويل وعنيها الجميلة المرخية وبعدين أفتكرت كل حاجة ..

أنا : إنتى أندين ، مش كدا ؟

أوندين : أيوه ، إزاى عرفتنى ؟

أنا : شفتك مرة بتتشمسى على رمل الشاطىء جمالك سحرنى ومن يومها بقيت أمشى ورا ظلك من ساعة ما قابلتى هانز لحد ماغطستى فى البحيرة تانى . لكن دا كلام قديم قوى ، إزاى أنا فاكره ؟ إنتى لسه جميلة قوى يا أوندين .

ملك البحر : أنت يظهر تعرف حاجات كبيرة ..

أنا : أنا شفت حاجات كتيرة يامولاى ..

حتى القبة دى متهيألى إنى شفتها قبل كدا .

ملك البحر : فين ؟

أنا : يمكن ف المنام .

ملك البحر : لأ ..

أنا : يمكن ف وجود سابق .

ملك البحر : لأ ..

أنا : آه أفتكرت . ف زانادو : دى لازم قبة السعادة اللى بناها كوبلاخان ف زانادو .

ملك البحر : لأ يا إبنى . دى أختها الكبيرة ، كوبلاخان نزل ضيف عندى أدى ألف سنة ، ولما رجع الأرض بنى واحدة زيها ، أنا حذرته ..

أنا : من ايه ؟

ملك البحر : قلت له مايبنيش قبة السعادة على الأرض . ماصدقنيش . ضيع نص عمره يلم ف جواهر العالم وضيع النص التانى يبنى القبة بالجواهر . أنا فاكر تمام . دا كان آخر يوم ف حياته . حط آخر جوهرة لنفسه وقعد ع العرش وأستريح . القبة وقعت عليه مات .

أنا : أنت اللى قتلته . أنت قتلت هانز .

ملك البحر : أنا ما قتلتهوش . أنا حذرتهم .. اللى قتلهم القانون .

أنا : أى قانون ؟

ملك البحر : القانون .. اللى يكسره يموت ..

أنا : أنا عاوز أعيش . دا كلام قريته ف التوراه . أنا عاوز أطلع من هنا ياmولاى ..

ملك البحر : (يضحك) أنت خايف ؟ مافيش خمس دقايق كنت بتقول انك ف خدمتي . أنت حظك كويس .دايما أكسر الوعد قبل ما تفعله . أوعي تكسره بعد ما تعمله القانون واحد وما بيتغيرش . دايما أفتكر هانز وكوبلاخان وكل الناس اللى ماتوا .

أنا : كل اللى كسروا القانون ماتوا ؟

ملك البحر : كل اللى ماتوا كسروا القانون .

أنا : كل الناس بتموت .

ملك البحر : كل الناس بتكسر القانون .

أنا : لكن مولاى لسه عايش .

ملك البحر : يوم ما أكسر القانون أموت .. ومع ذلك أنا با أموت موت بطيء . حتى الملوك بيكسروا القانون .. والآلهة كمان . بروميثيوس مثلا ، كسر القانون . تلاقيه لحد دلوقت مربوط ف صخرة وسط المحيط . أطلس كمان تلاقيه لحد دلوقت محبوس ف الجبل اللى جنب قرطاجنة . كل الآلهة اللى حبوا يتشبهوا بالبشر وكل البشر اللى حبوا يتشبهوا بالآلهة ماتوا .

أنا : دا يبقى قانون أعمى .

ملك البحر : ماتكفرش .

أنا : ايه الفايدة ؟ فيه حد ماكسرش القانون ؟

ملك البحر : فيه .

أنا : القديسين ؟

ملك البحر : لأ . ناس عاديين زيك والمجانين والناس اللى مالهوش أرواح واللى بيسموهم ع الأرض الخطاه .

أنا : دول خالين ؟

ملك البحر : لأ .. دول برضه ماتوا .

أنا : إزاى ؟

ملك البحر : دول ماكسروش القانون لكن ماتوا . ماتوا لأنهم ماكسروش القانون .

أنا : مولاى .

ملك البحر : مافيش غير شىء واحد مايكسرش القانون ودا القانون . واللى مايكسرش القانون يموت لأنه عرف القانون أو فهمه أو أخد صفة من صفاته .

أنا : يعنى مهما عملنا نموت .

ملك البحر : مهما عملنا .

أنا : مولاى .

ملك البحر : أنا با أقرا ف عقلك فكرة رهيبة .

أنا : أيوه فكرة رهيبة ، هانز ماكانش غلطان .. كوبلاخان ما كانش غلطان ، أنا عاوز أكسر القانون .

ملك البحر : تحب تبنى قبة السعادة ع الأرض ؟

أنا : لأ عاوز أعرف القانون .

ملك البحر : أنت مجنون . أنت عارف بتقول ايه .

أنا : عاوز أعرف القانون ..

ملك البحر : أنا باحذرك ..

أنا : عاوز أعرف القانون ..

ملك البحر : ياشعاع .

«طلبها تلات مرات» .

أنا : مولاى ..

ملك البحر : أتحد مع الشعاع .

الشعاع نفذ فى . نفذ فى الشعاع اللى سقط من سقف القبة والمعجزة حصلت بصيت لقيت نفسى جسم نورانى أو نور فى هيئتى البشرية بس ليه أجنحة والأجنحة رياشتها من النور الأزرق

وف الحلقة معاية الملايكة سابحين أى عصافير بيسبح على محيط الحلقة والحلقة ليها مركز وف المركز شفت القانون .

شفت القانون . شفت القانون متغطى بأوراق الورد . رفعت أوراق الورد وعرفت القانون . لقيت القانون كلمة ، كلمة نايمة تحت أوراق الورد . القانون قال :

– أنا الكلمة اللى مش ف أى لغة . أنا الكلمة اللى مش ف القاموس . تقدر تشوفنى لكن ماتقدرش تفهمني . أنت مشيت نص السكة بس .

قلت :

– أنا هلكت .

القانون : تقدر تخرج من الحلقة الأبدية وتقدر تستنى ف مكانك وتقدر تنام زيى تحت أوراق الورد .

أنا : وإذا طلعت من حلقة الأبدية يحصل لى ايه ؟

القانون : تعيش وتموت . يرجع لجسمك الطين ، تاخد جناحك معاك . تعيش غريب ف وسط أهلك والعالم كله يضيع عليك . تتوق للنور وتحوم حوالين النجوم زى الفراشة ما تطير حوالين اللهب والناس تتفرج على جناحك وتتعجب . العاقلين يعرفوا الحقيقة ويقولوا هللوا ، واللى مش عاقلين عليك مجنون . اللى تشتهيه ما

تنولوش واللى ماتقدرش تنوله تشتهيه .. جسمك يعذبك وجناحك يعذبك ، لكن بعد ماتموت الطين يرجع تراب والجناح يرفرف على وش البسيطة .

أنا : أبقى شاعر .

القانون : ومن وقت لوقت تحكى للناس عن حلقة الأبدية وأوراق الورد اللى شفتها من بعيد . برضه ناس تسمع لك وناس تقول مجنون .

أنا : وأقر أرجع تانى ؟

القانون : بعد ماتحكى للناس «كل» اللى شفته ف حلقة الأبدية . وأنت ع الأرض أن طفيت جناحك ف مية الدهب تهلك .. تنسى كل اللى شفته ، وجسمك يرتاح ، لكن يوم ماتموت طينك يبقى تراب ، لكن الجناح .أه .. انطفأ ف مية الدهب .

أنا : وأن ماسبتش حلقة الأبدية ؟

القانون : ايه يحصل ؟ تبقى زى الملايكة اللى انت شايفهم بيضربوا النور الأبيض بأجنحتهم الزرقا . دول كانوا ناس زيك ، دخلوا الدايرة من باب الفضول زيك . خافوا يناموا معايه تحت أوراق الورد وخافوا يرجعوا الأرض تانى . أن أستنيت مكانك ف حلقة الأبدية تقعد فيها للأبد . أمال هيه اسمها حلقة الأبدية ليه ؟

جسمك النوراني يستنى نوراني وجناحك الأزرق يهيم جوه المحيط ومن وقت لوقت تزهق وتجي تسند رأسك على أوراق الوردمن بره ويمكن كمان ترفعها وتتأمل ف الكلمة لكن تخاف وتغطيني تاني بأوراق الورد . إلى الأبد ترفرف حوالين الكلمة وإلى الأبد ترفرفر داخل المحيط . كل الملايكة بيسبحوا بالكلمة الى تحت أوراق الورد لكن مايفهموهاش .

أنا : يعني أبقى ملاك ؟

القانون : ومن وقت لوقت نبعتك الأرض برسالة .. نبعتك تهمس ف ودن شاعر أو تضرب بسيف النار جيوش الظلام .

أنا : وأن أندمجت ف الكلمة ؟

القانون : أقفل علينا أوراق الورد تعرف أنا ايه .

أنا : أنا خايف ..

القانون : خايف من ايه ؟

أنا : خايف أدخل ما أطلعش .

القانون : تقدر تخرج ، لكن إذا خرجت تبقى شيطان .

أنا : يا الله ..

القانون : تبقى شيطان لأنك فهمت سرى ومشيت . كل الشياطين كانوا ملايكة أندمجوا في وبعدين فاتوني . عشان كدا أنا ربطتهم بالسلاسل جنب بحيرة النار والكبريت .

: أنا إذن سر الكلمة مع الشيطان .

القانون : أيوه . لكن مافيش حد منهم باح بيه غير أبليس .

عشان كدا أنا عملته رئيس الشياطين مرة كسر السلسلة وهرب وباح بالسر لآدم وأنت عارف ايه حصل لآدم . مرة تانية حب يبوح بيه لفاوست لكن فاوست مات قبل ما يحطم الأكوان اللى أنا بنيتها .. عشان كدا أنا ف حرب دايمة مع أبليس ، وأن غفلت عنه دقيقة على جبل الزيتون يجمع الرياح الأربعة ويقرا عليها الكلمة والسر يبقى زى نور النهار . عشان كدا أنا با أبعت ملايكة تنام ف قلوب العباد وملايكة تحرس أحلامهم وقت النعاس وملايكة تنظم الفوضى بتاعت الوجود . تعالى أتحد مع الكلمة . كل واحد يندمج ف الكلمة يدينى قوة .

أنا : أنا خايف .

القانون : خايف من ايه ؟

أنا : خايف أضيع ف الكلمة ، وأن حبيت أمشى أصير إلى شيطان . إزاى أتحد مع قانون ما أعرفوش ؟

القانون : أنا سمعت كتير عن خوف البشر .

أنا : أنا باسميه حذر .

القانون : أنا أسميه خوف .

أنا : ماتفتكرش إنى ها أنسى نفسى وأثور لكرامتى ، لو كان دا ف طبـعى كـان زمـانى بقيت سـيـاسى ولا قـديس . أنا راجل عادى..

القانون : أرخى علينا أوراق الورد .

أنا : قول لى ع الكلمة وإن رضيت بيها دخلت عندك .

القانون : تعال وأنا أعملك حاكم على السبع أكوان .

أنا مفيستوفوليس .

القانون : تعالى أعملك حاكم على حلقة الآبدية .

أنا : فاوست ..

القانون : تعال . تعال . تعال .

أنا : لأ . لأ . لأ .

سبت أوراق الورد وطرت ف الحلقة المقفولة وأنا ف شك مريع .. هو الطين اللى عـمل كـدا . لو كنت من أصلى مـخلوق نورانى مـاكنتش شكيت . قلت «يامك البـحـر» قـال لى : «لبيك» قلت له : «عـاوز أنزل الأرض» ، قـال لى : «بأسـرع من الخـاطـر ف عـقل الراجل المحموم» . بصيت لقيت نفسى تحت البحر تانى وفوقى قبة السعادة ، وحوالى بنات البحر والفرسان وقدامى ملك البحر قاعد على عرشـه والجـوهرة ف تاجـه زى عين الثـعـبـان . حسـست على

جسمى نقيت البدلة زى ما كانت خشنة على جسمى وف أكتافى جناحين بلون الموج الغميق .

ملك البحر : فهمت القانون ؟

أنا : لأ شفت الكلمة .

ملك البحر : أنت نادم ؟

أنا : لا يامولاى ، أنا من زمان بافتش عن أجنحة وعن ملاك يغنى ف ودنى من وقت لوقت ، وخلاص لقتهم .

ملك البحر : وعن بقية قبة السعادة ؟

أنا : وعن أوندين .

ملك البحر : اللى تشتهيه ماتنولوش واللى ماتقدرش تنوله تشتهيه .

أنا : الكلمة .

ملك البحر : ماتقدرش تبنى قبة السعادة ع الأرض . أفتكر كوبلاخان .

أنا : أفتكرت .

ملك البحر : أوندين نسيت البشر ، أفتكر هانز .

أنا : افتكرت ..

ملك البحر ..

أنا : أنا ماجيتش هنا من نفسى . مولاى بعت لى رسوله ، السمكة الحمرا اللى عاملة زى رمانة النور هى اللى جابتنى ، كنت عاوز منى ايه يا مولاى ؟

ملك البحر : أبدا . احنا بس ناس كرما . لما عرفت أن مركب غرقت ، قلت لازم عندنا ضيوف جداد ، والضيوف محتاجين للمساعدة .

أنا : متشكر يا مولاى ..

ملك البحر : إن كنت عاوز تعيش ف مملكتى زيك زى بقية الفرسان دول على الرحب والسعة .

أنا : لا ، متشكر ، أنا أفضل أرجع الأرض .

ملك البحر : عاوز حاجة تاخدها من هنا قبل ما تسافر ؟ جواهر ؟ تذكار ؟

أنا : لا يا مولاى ، أنا صحيح رجعت لعقلى ، لكن مش ناوى أطفى جناحاتى ف مية الدهب ، والتذكار اللى ف عقلى يغنينى عن الفين تحفة وتحفة . بس عاوز تلات حاجات .

ملك البحر : أطلب على كيفك ، عشان لما هاتوصل الأرض كل حاجة هاتطلبها مش هاتجى لك .

أنا : أولا أنا عاوز البركة بتاعتك يا مولاى .

ملك البحر : ابراكاد ابرا . ابراكاد ابرا . ابراكاد ابرا .

أنا : آمين .

ملك البحر : ايه تانى .

أنا : كمان ابعت معايا السمكة الهادية تنور طريقى لغاية ما أطلع من مملكة أوقيانوس .

ملك البحر : وهبتك السمكة الهادية تنور طريقك لغاية ما تطلع من مملكتى ..

أنا : كمان ادينى اوندين ، الموجة العذراء تعيش معاى ع الأرض ، تلهمنى وتمسح على فؤادى الشنتيت . وكل ما أشوف شعرها الأزرق المرسل افتكر النعمة اللى بين ايدى ، وابنى لها بيت من الميه العذبة على رمل الساحل عشان ماتشعرش بالغربة .

ملك البحر : الموجة العذراء بقت أرملة من يوم عينها ماوقعت على هانز .

أنا : فهمت وكل يوم تنزل تتشمس ع الحصى ، وأجيب لها الموجة المالحة تسرح لها شعرها والموجة العذبة تغسل لها رجليها .

ملك البحر : أنت طلبت تلات حاجات وهاتخدهم ، بس عندى تلات شروط . أوندين هاتمشى وراك لحد الخط الأزرق ما يدخل ف الخط الأبيض وأن التفت لورا قبل ما تخطى حدود مملكتى اوندين هتتحاش ف شبكة اوقيانوس . قول أنا راضى .

أنا : يا الله .. الآلهة مرة قالت كدا لاورفيوس لما نزل العالم السفلى يطلب أوريديس . دا امتحان عسير يا مولاى ، لكن ها احتمل بشجاعة . أنا راضى .

ملك البحر : إذا اوندين وصلت الأرض هانز هايقوم من الأموات .. هايعرف أن مراته موجودة على سطح الأرض .. هايسأل عنها الموجة المالحة والموجة الحلوة .. هايسأل أمواج السما ، وهايسأل الصدى عن مقرها ، لكن بأمرى أنا ماحدش هايقول له . هايجوب المعمورة وهاينادى ف أركانها الأربعة . هايفتش القصور والأكواخ ويرفع الأحجار ويكشف عن عيون الميه .. هاينادى ف كل وادى . إذا سمعته اوندين أو شافته هاتفتكر كل اللى كان كان ، هيه لسه بتحبه لكن تحت ستارة النسيان . إذا اوندين شافت هانز هايرجع لها الحب العظيم وهاتسيبك وحيد وشتيت . قول أنا راضى .

أنا : يا الله . أنا راضي .

ملك البحر : لو راحت معاك اوندين هايسيبك الملاك اللى بيهمس ف ودنك ويلهمك هايغير منها ويسيبك . مش أنا اللى أمرت بكدا لكن أنا بأقول لك ع اللى هايحصل لازم تختار بين العام اوندين والهام الملاك . اوندين هاتهمس ف ودنك كل أيات الحب والملاك هايهمس ف ودنك هللويا اللى سمعتها ف حلقة الأبدية .. لكن جناحك هايبقالك وهاتقدر تعمل الأناشيد . قول أنا راضي .

أنا : أنا راضي .

ملك البحر : على خيرة الله ، على بركة الله . ف حفظ الله .

وخرجت من قبة السعادة قدامي السمكة الحمرا اللى زى الرمانة تنور طريقى وورايا اوندين همس الملاك انقطع عرفت أنه سابنى وطار . تلات أيام بلياليها والسمكة تنور قدام عينى وعينى تعبت من التحديق . ولما السمكة انطفت عرفت أن الرحلة انتهت وإنى على ساحل الحياة . صوت من ضميرى قال لى « أنت ف ملك أوقيانوس » مشيت شوية لوحدى بارتجف لحد ماشفت الأفق الأزرق اختفى تحتى والأفق الأبيض ظهر واكتمل قلت يا قدرة الرحمن ، بصيت وراى لقيت أوندين بتستريح على ساحل الأرض وبتنفض الميه المالحة من شعرها الأزرق الطويل ، ومن الفرح

صليت وباركت ملك البحر والموجة العذرا وسائر الأحياء ، بصيت قدامي لقيت هانز قاعد ع الشط وف ايده شبكة بيصطاد . قلبى ارتجف والدم هرب من وشى. تمتمت :

– المقدور .

همس ف ودنى الملاك :

– ماتحزنش . أنا أغنى لك زى اوندين .

رجع لقلبى السلام وقلت :

– الوداع يا اوندين .

اوندين ثبتت مكانها مسحورة ، وعينها المفتوحة فهمت كل حاجة . الملاك قال لى : يللا نضرب فى الرحاب وابتدا يغنى لى ع الناى . ومشينا ع الأرض السهلة لحد ما اختفى الشاطئ ، وسبنا اوندين بتفتكر وسبنا هانز بيصفى الشبكة بتاعته من الأصداف .. الراحة شاعت ف كيانى وقلت للملاكى :

« احكى لى عن الغرام اللى ماكانش وغنى لى سيرة سيرانو دى برجيراك» .

كوراس العبيد

لما نزلنا دربان شركة كوك اللي كانت متعهدة بترحيلنا لمصر من أول السكة لآخرها قدام الحكومة المصرية وزعتنا بين اللوكاندات . ناس راحوا المارين هوتيل وناس راحوا الامبريس وناس راحوا الكمبرلاند وأنا قرعتي وقعت ف البترووبرث . البترووبرث كانت أوحشهم كلهم . كانت ف وسط البلد ومافيش مناظر حواليها واللى ساكنين تحت مافيش مانع يسمعو التاكسيهات بتزن ف الشارع والعربيات الكارو بتكركب . كان فيه كمان مزلقان وخط أوتوبيس . المارين افتكر كانت أحسنهم مع إن اللوكاندات الباقية كلها كانت بتدى ع البحر . البرووبرث دى اللى كانت أوحشهم كانت بتاخد مننا بين ٥و١٥ شلن وجنيه ف اليوم الواحد - أنا مش فاكر كويس - نظير النوم والأكل والحمام وشاى خفيف الساعة خمسة وكانت أحسن من المتروبوليتان ف مصر بمراحل . حسن عزيز حسن كان معانا ف البترووبرث وماعجبوش الحال قام طلب يروح المارين قالوا له نص كروان زيادة ف اليوم ، لكن مالحقش يعزل لأن الطيارة عزلته خالص بعد تلات أيام . بقية اللوكاندات كان سعرها واحد ..

دربان أجمل من مصر . دربان أجمل من اسكندرية . مافيش شك ف كدا مصر واسكندرية بالتأكيد فيهم حتت أحسن من أى حاجة تقدر تشوفها ف دربان ، لكن أنا باخد بالمتوسط . أنا باضرب بولاق ومصر عتيقة وباب الشعرية وتحت الربع ف الزمالك وجاردن سيتي وفؤاد الأول ومصر الجديدة وآخذ المتوسط . دربان مافهاش حاجة جمالها زى جمال المعادى .. ولا لندن ولا باريس .. لندن وباريس فيهم أحياء أجمل من المعادى لكن جمالهم مش زى جمال المعادى .. لكن كمان مافيهاش حاجة زى بولاق . حتى البيوت الفقرا من بره نضيفه وداخله التنظيم وبسيطة ف تركيبها وشكلها العمومي عامل زى الخرط النمونجية اللى بتصممها وزارة الأشغال للعمال ومن جوه صحية وفيها سراير ودواليب وكابانيهات ومافيش مانع بقه أو أو اتنين ماشيين ع الحيطة أنا كان عندى فرصة أدخل أحسن بيوت وأوسخ بيوت ، عشان كدا أنا فتحت الموضوع دا . إنما بالأجمال ، إذا كنت عاوز تتصور التأثير اللى سابته مباني دربان ف نفسي تقدر تتصور ضاحية زى مصر الجديدة . الشوارع طبعا هناك أوسع والطراز مختلف شوية والبلد أكبر خمسين مرة لكن التأثير واحد ف الحالتين . أول حاجة تلاحظها ف دربان أنها بلد مبنية جديد على أحسن طراز المدن

بتاعت البحر الأبيض المتوسط فرنساوى على طليانى بس فيه مسحة أمريكية .. نهايته . ف الأول ماكنش فيه مكان كفاية قام سكنت أسبوعين أنا والأستاذ على الجريتلى ف أوده واحدة ، وف الكام يوم دول – طلعت مداهبه . كان يصحى الصبح ما يلاقيش الشبشب بتاعه وبعد شوية يبص يلاقينى راجع من الحمام وشبشبه ف رجلى .. الحقيقة هو الشبشب دا بس اللى كان موضوع النزاع الحقيقى بيننا ، لكن كان كل يوم له مأساة . كمان لاحظت أن هدومى قربت تخلص ودا كان بسبب غلطة أنا عملتها وأنا ع المادورا . المادورا لما قربت على دربان ، كوتشى خدام الكبينة دخل على وقال :

– صاحب . الرحلة انتهت صاحب . عندى مرة وتمان عيال صاحب ..

فهمت أنه عاوز بقشيش ، لكن ماعرفتش أجيب له فلوس منين ، ودى كانت حسبة كبيرة . واحد يخدمك خمسة وأربعين يوم تدى له ايه ؟ الأصول مش أقل من اتنين جنيه . مافيش اتنين جنيه رحت فتحت الشنطة وعطيت له بدلة من بدلى وجوز جزمة وطبطبت على كتفه وقلت له :

– كوتشى . ألبس دول . وإن كانوا مش على قدك بعهم يجيبوا عشرة شلن .. مافيش فلوس كوتشى ..

كوتشى أخد الهدوم وعليها شوية غيارات تحتانية لكن زعل طبعا .. أسياد ايه دول اللى بيشحتوا هدومهم .. كمان عبال ما وصلت بترووبرث هوتيل وفتحت الشنطة لقيت بدلة تانية ناقصة والمايوه يظهر إنى نسيتهم ف المادورا كمان لقيت الشبشب مقطوع رميته . وبعد يوم جالنا مندوب كوك وقال لنا ندى له كل حاجة عندنا عشان يبعتها مصر بالمركب لأن الطيارة مش هاتقبل أكتر من أربعة وأربعين رطل . النتيجة كانت أن كل واحد فينا قعد ببدلة واحدة وغيارين تلاته بس .

لكن كل الحاجات دى ماالهاش أهمية كبيرة . أول حاجة عملناها بعد ما استقرينا ف دربان عملية الاستكشاف المعهودة ودى تقريبا أخدت لها يومين . عرفنا السينمات ودرسنا خارطة البلد وعرفنا منين نشترى أمواس الحلاقة واللوازم الخفيفة وازاى نتفسح ع البحر وازاى نختصر المسافات بتقطيبه ف الحوارى وازاى نروح بنك باركليز وازاى نروح شركة كوك لكن ما انساش أقول أن فكرة أسود وأبيض كانت منتشرة ف تفكيرنا كلنا أو على

الأقل ف تفكيـرى أنا فى الأيام الأولى . مـرة مـثـلا جيت أخش سينما اسمها كنجر عشان أشوف «ذهب مع الريح» وكنت خايف طول الوقت أن البنت اللى بتقطع لى التذكرة تقول لى « أسفة» زى البارمان بتاع كاب تاون ما قال لى «أسف» ، لكن جت سليمة ، بعد كدا دخلت سينمات كتيرة وماحصلش حاجة أبدا . الحاجات دى كانت تخلينى استغرب خالص .. أنا صحيح مش أسمر قوى لكن بالتأكيد أنا مش فاتح زى الانجليز والافريكان . صحيح ممكن واحد يقول على أسبانى أو برتغالى أو طليانى لأن فيه ناس من شعوب البحر الأبيض المتوسط غامقين زى المصريين ، لكن دى عاوزة شوية خيال أولا ، وثانيا عاوزة واحد يكون اختلط كتير بأجناس الأرض . ما افتكرتش أن البنات اللى بيقعدوا ف شبابيك التذاكر بتوع السينما عندهم خيال أو اختلطوا كتير بأجناس الأرض . ف الأول قلت ف عقلى يمكن لقونا لابسين نضيف يمكن أنضف من الاوروبيين نفسهم ، قاموا اتحيروا فينا . هم ف العادة متعودين يشوفوا الأجناس الملونة ف بنطلونات مرقعة وقمصان مقطعة وأحيانا دايرين حافيين ف الشوارع لأن أغلبهم عمال يمكن . بعدين قلت ف عقلى يمكن كان باين على منظرنا أننا أغراب ،

سواح مثلا ، أو ناس بيغيروا مركب بمركب يمكن . كمان قلت ف عقلى لازم بيتكسفوا لما يلاقوا شبان باين عليهم أولاد ناس ومتربيين . على كل حال ماحدش ف المصريين صادف أى تعب بالنسبة للحكاية دى غير مرة واحدة . واحد زميلنا (١) كان ماشى فى الشارع فى منتهى الامان وبعدين قابله شاب أفريكان كان سكران ومن غير مناسبة ضربه ف صدغه وأسنانه وقعت .

تانى يوم الصبح كان فيه وفد من المصريين ف ايدهم مذكرة احتجاج وطافوا على ادارات الجرايد .. المسألة كبرت ودربان كان فيها دلوقت حوالى ميت مصرى من أحسن شبان البلد . الجرايد كلفتت الموضوع لأنه إذا انتشر يبقى معنى كدا أن عمدة دربان لازم ييجى لحد عندنا ويعتذر عن اللى حصل لكن ف نفس الوقت حلوا المسألة بشكل تانى . الجرائد الرئيسية ف البلد ناتال مركيورى وناتال ديلى نيوز طلعت تانى يوم وفيها خبر بالبنط التقيل معناه أن فيه جماعة مصريين صفتهم كيت وكيت راجعين بلدهم من انجلترا وأن أهل دربان لازم يكرموهم منين ما يروجوا وبالأخص أن مركز .

---

(١) الدكتور چاك سميكة أستاذ الاحصاء بكلية العلوم جامعة القاهرة . المنتدب حاليا خبيرا فى الأمم المتحدة «منظمة الأغذية والزراعة» .

مصر الحــربى فى منتهى الأهمية للدول المختلفة . العبارة الاخرانية دلت على ذوق مجليط لكن ماحدش من الأهالى اخد باله من الصيغة لما الخبر انتشر ف البلد زى الوباء . بعد الفصل دا الأمور انتظمت وشفنا عهد من البحبة مش هانشوفوا تانى مدى الحياة.

البلدية بعتت لكل مصرى ف دربان أبونيه مجانى على كل خطوط المواصلات بكل أنواعها جوه البلد ، من باب اصلاح الموقف طبعا . وكان عندى أحسن من ستين اعتذار . أنا شخصيا ما استعملتش الابونية دا أبدا لكن فهمت المعنى اللى فيه . بعد كام يوم ابتدينا نفكر تفكير عملى شوية . رحنا كوك عشان نعرف أمتى هانرجع مصر . قالوا لنا الطيارة بتقوم مرتين ف الاسبوع بس ومابتاخدش غير اربعتاشر راكب كل مرة . طبعا المصريين مايقدروش يحتكروا خط المواصلات الجوى مدة شهر . كوك قال نص الركاب بالتقريب حايكونوا مصريين والنص التانى ركاب عاديين ، قلنا معقول .. كوك كمان قال دفعة المانورا تستنى لحد الدفعة اللى قبلها ما تسافر و قلنا معقول لكن جا دورنا اكتشفنا أن فينا خيار وفقوس . ف الظروف العادية ماحدش كان يهتم لكن ايامــها كـانت الجـرايد كل يوم تطلع علينا بأخـبـار الحـرب .

جراتسياني دخل السلوم . جراتسياني دخل مرسى مطروح . جراتسياني دخل سيدى براني . الفكرة اللى شغلت بالنا كلنا كانت واحدة ازاى نوصل البلد قبل جراتسياني ما يدخل مصر . كوك هز كتفه وقال أنا ما أقدرش أعمل أكتر من كده . عملنا اجتماع وبحثنا الموقف طبعا على أساس أن مصر تقريبا ف حالة حرب ووصلنا لخمس قرارات :

١ - الدكاترة المتجوزين ياخدوا أول طيارة .

٢ - المتجوزين اللى مش دكاترة يأخدوا تانى طيارة .

٣ - الدكاترة اللى مش متجوزين ياخدوا تالت طيارة ..

٤ - اللى هايتطوعوا ف الجيش والمهندسين ياخدوا رابع طيارة .

٥ - الباقيين يعملوا قرعة بنمر ويسافروا على حسب نمرهم .

عملنا قرعة وطلعت طيارتى آخر طيارة ، ورحنا بلغنا القرارات دى لكوك وسلمناه النمر ، تانى يوم بصينا لقينا كل النظام اللى بنيناه اتهد ، اتهد بسبب الاستثناءات منير صبرى أبوه كان رئيس وزارة ومصطفى زهدى أبوه كان وزير دفاع وحسن عزيز حسن أبوه كان برنس وعلى صادق وأحمد صادق ماكنوش وزرا ولا برنسات لكن كان ليهم ناس بيشتغلوا ف مصر جامد ، دول كانوا

أول ناس سافروا زعلنا طبعا وعملنا اجتماع تانى ف بترورويث هويتل واتفقنا على أن الخلل اللى حصل مش لازم نخليه يلخبط النظام اللى وضعناه كان واضح أن فينا دم أزرق وشعب ، وبعد آخر نقطة من الدم الأزرق ماسابت دربان كل حاجة مشيت مظبوطة والشعب عرف ينظم أموره .

أول الجرايد ما كتبت أن فيه مصريين ف دربان ماعرفناش نلاحق ع العزايم منين ولا منين ، ف الأول جم شوية هنود وعزمونا ع الغدا ، وبعدين جم هنود تانيين وعزمونا ع الشاى .. بعدين جم هنود تالتين وعزمونا ع العشا ، تانى يوم نفس الحكاية ، تالت يوم نفس الحكاية ، رابع يوم ، خامس يوم بالشكل دا كل يوم لحد ما سافرنا الهنود استلموا المصريين اللى جم بعدنا ، أنا شخصيا مش فاكر أنى أكلت ف اللوكاندة بتاعتى أكتر من خمس أكلات طول شهر سبتمبر طبعا الدعوات دى ماكنتش كلها زى بعض .. يوم مثلا الدعوة تيجى من أفراد ، ويوم تيجى من الاورينت كلوب ويوم تيجى من الآفالون ويوم تيجى من الرابطة الاسلامية ، كمان ماكنتش كلها أكل ف أكل كانوا أحيانا يعزمونا على رحلات ف عربياتهم عشان نتفرج على منطقة الزولوو وينظموا لنا حفلة رقص مخصوص ويرقصوا فيها السكان الاصليين ، أو يعزمونا على

رحلة فـ وادى التـلال الآلف ، أو يعـزمـونا على شـرب ورقص أو يعـزمـونا على أفـلام هندية أو يعـزمـونا عـشـان نديهم خطب ومـحـاضـرات ، يوم مثـلا لقيت تلات هنود بطرابيش حمر طويلة مالهاش زر واقفين بره اللوكاندة بتاعتى وبيطلبوا مستر عوض .

– أنا مستر عوض .

– أحنا جـايين باسم الرابطة الاسـلامـية وعـايزينك تعـمـل لنا محـاضـرة .

– معلش أعفونى المرة دى ..

– لا . احنا بنرجوك أنك تعمل محاضرة للهنود ..

– انتو مين اللى قال لكم على ؟ .

– مستر بالى (قصدهم أمر الله بليغ) ..

– اتكلم فـ أى موضوع ؟

– اتكلم فـ أى موضوع ..

– أصل أنا راجل ثقافتى فـ موضـوع واحد ، أنا بتـاع أدب ، وما افتكرش أن الأدب يهم حد ..

– احنا متأكدين أن الأدب يهم كل الناس ..

– طب حددوا انتوا الموضوع ..

– لأ أنت اللى تحدد الموضوع ..

– طيب ادونى مهلة أفكر ..

– لأ .. مافيش وقت ..

– أقدر أتكلم عن الأدب والمجتمع ؟ ..

– عال قوى ، ما تقدرش تتصور قد ايه احنا ممنونين يامستر عوض .

طبعا كلامهم كان ألطف من كدا بكتير والمجاملات الهندية ليها في قلبى ركن كبير ، اتفقنا ع اليوم وبعد كدا أنا نسيت كل حاجة عن المسألة ، بعد كام يوم بصيت لقيت أوتمبيل ربط قدام اللوكاندة

– أحنا عاوزين مستر عوض .

– أهلا وسهلا ، اتفضلوا خدوا الشاى ..

– لأ .. مافيش وقت ، اتفضل اركب معانا ..

– على فين العزم ..

– على سينما أفالون ..

– ليه ؟ نتفرج على فيلم ؟ ..

– لأ .. عشانْ أنت تتكلم عن الأدب والمجتمع .. انت نسيت ؟

– لأ مانسيتش .. هيه النهاردة ؟ ..

لا مانسيتش ، وقعتكو سودا ، طبعا ماكانش عندى فكرة الجمهور بتاعى جنسه ايه .. مازعلتش قوى لأن أنا بطبيعتى أكره

التحضير والقراية من ورقة ، ف الأول كنت فاكر أني ها أروح أدى محاضرة عن الأدب والمجتمع لطلبة الجامعة وناس ف مستواهم ، عيني ضربت ف شباك الأوتمبيل لقيت اعلانات ملزوقة ع الحيطان زى بتوع السينمات وبتوع كرافن ايه وصابون بالموليف بس اسمي عليهم وأسامي ناس تانيين ، أنا ماكنتش فكرت ف الموضوع قبل كدا على أني أتكلم فيه . لكن أعرف عنه حاجات كتيرة ، غمضت عيني وحصرت أفكارى ورتبت كام تقطة ف عقلى ، ولما فتحت عيني كان صاحبي الهندى بيفتح باب الاوتومبيل ، دخلت السينما من باب الممثلين لقيت كراسي مرصوصة على المسرح وميكروفونات وجمهور راكب على بعضه ف الصالة واللوحات والبنوارات ، سود على بيض ، بلعت ريقي وقلت ياساتر استرها ، أنا ماعنديش حاجة شعبية أقولها للغنم اللى قاعدين دول عن الصلة بين الأدب والمجتمع .

قعدت ف الوسط دا وعلى يميني قعد الاستاذ صالح عبد العزيز اللى دلوقت مدرس ف معهد التربية (١) وعلى يمين صالح قعد الاستاذ شهدى عطية اللى دلوقت مدرس ف المدارس الثانوية، ف الجناح التانى قعد الاستاذ أمر الله بليغ اللى دلوقت من أعيان

(١) حاليا عميد كلية التربية .

الشرقية ، والاستاذ مصطفى عبد العزيز اللى دلوقت مدرس ف كلية العلوم وافتكر قعد مستر كادجى صاحب الدعوة ودا كان بيقولوا مليونير هندى . وشوية دخل عمدة دربان وخطب خطبة رحب فيها بالمصريين وشكرنا ع المجهود اللى كنا لسه ها نعمله وبعد ما خلص وخطب والناس سقفت لقيته سحب شوية أكاليل من الزهور البيضا زى الاكاليل اللى بيلبسوها البنات ف هونولو وراح ملبس كل واحد فينا أكليل وزق عجله، كل واحد كانت له تسقيفه ، فهمنا أن دى طريقتهم ف التحية ، أنا قعدت مبلول طول الوقت وكل ما أشوف الاكليل مدلدل على صدرى وأشوف النمل اللى ف الصالة بيبص لى أتكسف زيادة ، أنا عملت إيه عشان استحق كل دا ؟ ماعرفتش .. لحد دلوقت مش عارف طبعا ، أنا كنت مصمم أنى أمشى ف المحاضرة بتاعتى زى ما كنت حاطط تصميمها ، واللى يفهم يفهم واللى مايفهمش عنه ما فهم ، أنا كنت عارف أنى لو عملت أى تغيير ف الطريقة أو تبسيط ف العناصر ها أتلخم وهاتبقى حكاية . فى الآخر مستر كادجى وقف وقدمنى للجمهور بكلام ما استحقوش ، مع أنى ماقابلتوش قبل كدا ولا مرة ، بعد كدا اتكلمت ، شرحت كل النقط اللى كنت مرتبها ف دماغى جوه الاتومبيل ، اتكلمت نص ساعة كأنى بأحاضر ف انفتياتر بتاع

جامعة وقعدت والناس سقفت كتير ، ومستر كادجى شكرنى كمان ، أنا متأكد أن مافيش ميه فهموا الكلام اللى قلته ، لكن زى بعضه ، بعد كدا قام صالح عبد العزيز واتكلم نص ساعة عن التعليم ف الهند وبعده شهدى اتكلم عن الشرق والغرب ، والحفلة انتهت بسلام ..

تانى يوم قابلت ست يهودية صحفية اسمها دورا حاجة وناقشتنى ف الكلام اللى قلته ، وفهمت منها أنه كان فيه ف الاجتماع حوالى ألف وميتين شخص منهم ناس ف جامعة ناتال وصحفيين وأشخاص برضه بيفهموا ، اطمئنيت شوية ، بعد كدا جالى ف اللوكاندة شاب زولو اسمه بيتر تلات مرات عشان يتعرف بيه ويكلمنى ف الموضوع ، دا فصل من الفصول اللى حصلت ..

وبالتدريج بقى واضح أن المصريين ليهم رئيس ، والريس دا كان أمر الله بليغ ، تمام زى أى مجتمع تظهر فيه دواعى النظام لازم يطلع فيه ناس ياخدوا المسئولية ، بليغ كان أظهر واحد فينا وبعد يومين كانوا كل هنود البلد يعرفوه ، وبعد أسبوع كان كل الانجليز كمان يعرفوه ، بليغ كان تقريباً يرد على كل السلامات والترحيبات اللى فى الحفلات باسم المصريين ، كمان من الناس

اللى الجرايد اهتمت بيهم منير صبرى وحسن عزيز حسن ، وأنا كانت شغلتى أنى أخطب وأعمل محاضرات ، بليغ هو اللى كريسنى ف الحكاية دى الله يسامحه بقه ، لدرجة أنه فاتت على أيام كنت أضطر أتكلم مرتين وتلاته ف يوم واحد ، المسألة ف الأول ابتدت بهزار ، كل ما يحتاجوا لواحد يتكلم بليغ يقول عوض مع أنه كان فيه ناس أحسن منى كتير وأحيانا كان بيعملها من غير انذار ، يقوم عوض يدش له كلمة فارغة وكلمة مليانة ، ولما المسألة دخلت ف دور جد بليغ طلع منها زى الشعرة من العجين وسابنى لايص ، وبعد هو ماخد الطيارة قعدت أنا بالقصور الذاتى أعمل محاضرات حوالى خمستاشر يوم .

مرة مثلا نادى الروتارى عمل حفلة غدا للمصريين بتوع اكيسفورد وكامبريدج ، وكانوا كل الناس المهمين ف دربان موجودين .. أنا فاكر تمام يومها أنا فضلت اشرب نبيت أحمر لطيف مع الغدا اللطيف لحد راسي ما تقلت صحيح ، وابص ألاقى بليغ بيشكر أصحاب الدعوة وبيقول :

- دلوقت دكتور عوض هايكلمكوا عن مصر .

فقت دقيقة وسبت السيجارة تتحرق وقعدت ادش . بليغ نفسه كان مشعشع من كتر النبيت اللى شربه ، والباقين ، طبعا بليغ

كان اتفق معاى قبلها انى أتكلم وأنا كنت عارف أنه يبقى عبث لو أنا شوحت لاعضاء نادي الروتارى حالة الأدب أو الثقافة ف مصر. عشان كدا أنا اتفقت معاه أني أتكلم عن حالة مصر الاقتصادية ، وحتى يوميها الصبح اخدت أذن من الأستاذ على الجريتلى أني اتطفل ع الشغل بتاعه وطلبت منه مساعدة والراجل خدمني كتير . أنا مش فاكر أنا قلت ايه ، لكن فاكر أني اتكلمت عن توزيع الثروة ف مصر وعن مصر الزراعية ومصر الصناعية وعن موارد مصر المدفونة وحاجات تانية من اللى تلاقيها ف كتاب كراوتشلى .. لكن أغلب الوقت ف حالة غيبوبة خفيفة من النوع اللى يخليك تنسى الكلام اللى قلته لكن يدويك تقدر تفتكر الكلام اللى هاتقوله .

تانى يوم الصبح لقيت نص الخطبة منشور ، ف أول صفحة من الناتال مركيورى والناتال ديلى نيوز تحت عنوان «موارد مصر الصناعية» . حتى جرنال الهنود اللى اسمه «النداء» كتب ف الموضوع ..

لكن اللى بوخ الحكاية مسألة حصلت بعد كدا ، كنت قاعد ف الصالون بتاع بترويرث هوتيل وبعدين واحد طلبني ف التليفون .

– أنا بروفسور باروز ، استاذ علم الاقتصاد السياسى ف جامعة ناتال . أنا كنت حاضر ف الغدا بتاع نادى الروتارى وانبسطت قوى من الحديث بتاعك عن مصر . تسمح تدينا محاضرة ف نفس الموضوع ف صالة البلدية بدعوة من جامعة ناتال ؟ ..

حط نفسك ف مركزى ساعتها . تقدر تقول لأ ؟ لأ ليه ؟

– بكل سرور ، بروفسور باروز . بس تسمح تيجى تتعشى معاى بكره ف اللوكاندة بتاعتى ؟

– بكل سرور ، دكتور عوض .

بليغ عملها وطار . قال على أنى دكتور ف كل حفلة وف كل مناسبة ع الطريقة المصرية زى كل واحد ما يقول للتانى يابيه واللى يخش الجامعة يبقى أستاذ واللى يطلع منها يبقى دكتور . أهى دخلت ف الرسميات . أعمل أيه أنا دلوقت ؟

قلنا ف نوادى الهنود معلهش ، ماحدش عارف حد وقلنا ف نادى الروتارى مش مهم دول جماعة من الأغنيا ورجال الأعمال ومش هاتفرق معاهم كتير إذا كنت أنا دكتور ولا ماجستير . قلنا كمان الجرايد والاعلانات هاتتقرى وهاتترمى وكل واحد هاينسى التاريخ اليومى بتاعها ومش ها أقدر أقف وسط المحتفلين وأقول يا

اخواننا بليغ بيبالغ شوية أو أكتب تصحيح ف الجرايد وأقول ما عنديش دكتوراه ، لكن لما ترسى أنى أندس بين اساتذة جامعة ناتال بلقب علمى ماكانش عندى نبقى دخلنا ف دور الدجل . لحد الجامعة واربط . ف نفس اليوم بروفسور باروز ضرب لى تليفون تانى .

- أنا معاى سميث استاذ علم الاقتصاد ف الجامعة ويحب ييجى ع العشا . يقدر ؟

- بالتأكيد أنا لى الشرف . .

تانى يوم الصبح بروفسور باروز ضرب لى تليفون تانى وقال لى أنه فيه تلات أساتذة تانيين ف جامعة ناتال يبقوا مبسوطين لو جم ع العشا ، قلت له أنا كمان أبقى سعيد أنهم يتعشوا معاى وعشان أوفر عليه تليفون كمان عطيته ساعتها كارت بلانش أنه يدعى باسمى أى عدد يعجبه من الأساتذة ف جامعة ناتال .. طبعا أنا استغربت شوية من الطريقة دى ، وفهمت أن الناس ف جنوب افريقيا بيرفعوا التكاليف بسرعة . أنا طبعا طلعت كسبان ف الحكاية دى لأنى إتعرفت معرفة شخصية بأهم الناس ف البلد . لكن المشكلة عندى أصبحت ازاى أنا وحدى ها أقدر أكلم خمس ست نفار كلام معقول مدة ساعتين . جت لى فكرة .

لطيفة . قلت مادام كل الضيوف من أعضاء هيئة التدريس ف جامعة مصر عازمة جامعة ناتال . وفعلا ضربت تليفون لبروفسور المصريين اللى هايدرسوا ف جامعة مصر لما يرجعوا ، ويبقى اسمها جامعة مصر عازمة جامعة ناتال ، وفعلا ضربت تليفون لبروفسور باروز وقلت له ع الترتيب الجديد . إحنا كنا ستة . وأنا أغتطبت لنفسى رأس السفرة على اعتبار أنه ضيف الشرف . انتهزت الفرصة دى وفهمته إنى مش دكتور ، إنما طالب دكتوراه بس . كمان فهمته إن أنا مش متخصص إنما متطفل ع الاقتصاد وإنى مش ممكن أتكلم فى صالة الجامعة عن التطور الاقتصادى ف مصر الحديثة واقترحت عليه بدل ما أنا أتكلم ساعة لوحدى عن مصر أن الست أساتذة المصريين الموجودين يتكلموا كل واحد منهم على وجه من وجوه الحياة المصرية اللى هو متخصص فيه ، قام أنبسط من الفكرة . أنا أخترت نقطة التقدم الثقافى ف مصر الحديثة والدكتور فطين المدرس ف كلية الطب إختار التقدم الطبى والدكتور مصطفى عبدالعزيز المدرس ف كلية العلوم اختار التقدم العلمى والأستاذ عبدالمحسن بكير بتاع الآثار اختار التقدم الأركيولوجى ف مصر الحديثة والأستاذ قدرى المدرس ف معهد التربية اختار التقدم التعليمى . بعد كدا الراجل طلب منى لستة

بكل التفاصيل دى والدرجات العلمية بتاعتنا عطيتها له مظبوطة وكتبت قدام نفسى بكالوريوس ف الأدب . والحفلة نجحت تمام .

بعد كام يوم كنا ف صالة بلدية دربان بنتكلم . قبل مانبتدى جالي واحد من المصريين كان زميلى ف كامبريدج بيتنفض من الزعل وبيهز ف وشي ورقة كانت معاه ..

- خد ياسيدى اتفرج .. أنت المسئول عن كل دا ..

- إيه الحكاية ؟

بصيت ف الورقة لقيت مطبوع عليها إجراءات الاجتماع .. مافهمتش هو زعلان ليه ..

- شوف اسمى مكتوب جنبه ماجستير ف العلوم . أنت نفسك عارف أني أخدت دكتوراه كامبريدج . ليه تكتب كدا ؟

- أنا عارف أنك ها تاخد دكتوراه من كامبريدج إن شاء الله لكن لحد دلوقت أنت أفندى زيى زيك .

- ابدا أنت عارف إني سلمت الرسالة للممتحنين قبل ما أسافر والأستاذ بتاعى طمنى .

- كل دى حاجات ماتهمش . رسميا أنت ماجستير بس لحد ما تطلع النتيجة .

- اشمعنى أنت بتقول على نفسك دكتور ف كل مكان .

– أنا عمرى ماقلت على نفسى كدا . دا بليغ هو اللى عملها فيه قبل مايمشى وأنا اضطريت أبلعها ومع ذلك دكها كانت ف تهريج حفلات وأحنا دلوقت ف جامعة يا أخينا .

– أنا با أقول لك أهو . أن ماكنتش تروح لبروفسور باروز وتفهمه إنك كنت غلطان ف الدرجة بتاعتى وتخليه يصلح المسألة وهو بيقدمنى أنا مش ها أتكلم ..

فصل بارد صحيح . قعدت أشتم ف سرى . عقلية أطفال . لكن طبعا كنت خايف إنه يعملها ويبوظ الشغل . قررت إنى أضحك عليه بلعبة صغيرة .

– طيب إذا كنت مصر أنا ها أعمل اللى أنت عايزه تحت مسئوليتك . حاضر يا أفندم أدينى رايح ..

مشيت لغاية بروفسور باروز وقعدت أكلمه ف موضوعات كتيرة لكن طبعا ماجبتش سيرة لمسألة صاحبنا . لاحظت إنه بيتتبع كلامنا من بعيد وشفت ف وشه علامات الارتياح . دا بالظبط كان المطلوب أن الأستاذ يرتاح . الأستاذ افتكر إنى كلمت بروفسور باروز عن الموضوع قام ارتاح ولما جا دوره وقف ع المنصة وف ايده مذكرته وبروفسور باروز قدمه للجمهور . بروفسور باروز ما قالش إنه دكتور . الأستاذ لبسها طبعا مايقدرش يأجل الحديث

ويشـرح للموجودين إزاى إنه هو دكتـور ، الأسـتـاذ قـال الكلمـتين بتوعه ونزل ، إنما كان باين عليه عايز يفترسنى ..

الإجـتمـاع خلص ، ونجح وبروفـسـور باروز وصلنى بالعـربيـة بتـاعـته لحد اللوكـاندة بتـاعـتى . وف السكة اقتـرح على إقتـراح لطيف، أن جـامـعـة ناتال وجـامـعـة مـصـر يتبـادلوا الأسـاتذة أثناء الأجازات . لاحظ إنه لما بيكون فيـه أجازة الصـيف ف نص الكرة الجنوبى إحنا بيكون عندنا شـتـا والجـامـعـة تقـدر تسـتـفـيـد من الأساتذة الزايرين . أعكس المسألة تلاقيها مظبوطة .. وعدته إنى أكتب تقـرير لمدير الجـامـعـة بتـاعـتـى عن الموضـوع وودعنا بعض الساعة كانت حداشر تقريبا ، قمت أتعشيت وقريت الجرايد ونمت . الساعة إتنين جالى خدام من اللوكاندة وصحانى .

– تليفون ليك ..

قمت مـفـزوع ولبـست الروب وبـصـيت ف الـسـاعـة لقيـتـهـا إتنين نزلت على كـابينة التليـفون وأنا مسـتـغـرب من النـاس اللى بيـقلقوا الناس ف وش الصبح . قلت ..

– هـالو .. مين ..

– أنا فلان ..

فلان دا كان الأستاذ الدكتور إياه .

– إزيك يا فلان .. عايز حاجة ؟

– أنا طيارتى هاتقوم الساعة خمسة الصبح .

– طيب مع السلامة . أبقى سلم على مصر . أنت لازم مبسوط انك هاتسافر ؟

– إيوه مبسوط اللى ها أرتاح من دناعتك وسفالتك .

– بتقول إيه .

قفل السكة . تصور واحد يصحيك من النوم الساعة إتنين عشان يشتمك . نهايته ربنا يسامحه . لأ . ربنا يكون ف عونه لأنه أول ما وصل مصر استلم تلغراف من انجلترا بيقول له إنه سقط ف الدكتوراه ..

أنا بأحكى الحاجات دى من غير ترتيب زى ما بتيجى ف عقلى الإنجليز اللى ف دربان أكرمونا اكرام شديد وكانوا طول الوقت سهرانين على راحتنا .. مرة عملوا لنا حفلة كوكتيل لطيفة حضرها كل الناس المهمين ف البلد . ومرة أخدونا رحلة بره البلد نتفرج على مصانع السكر بتاعتهم . كان كل يوم تقريبا فيه فسحة بس اللى كان عنده وقت يروح . إحنا طبعا فاضيين للسهرات والحفلات والأعمال الاجتماعية دى لكن واجب علينا نوزع نفسنا توزيع عادل على أصحاب الدعوات . كان لازم نروح للهنود مثلا . وكان كتير

يحصل إنه الدعوات تتعارض ف الوقت لكن أنا مهما وصفت ف كرم الهنود ما أقدرش أديهم حقهم .. حفلات الهنود كانت تمتاز إنها كتير ومليانة خيرات ومافيهاش نظام وخطبها كتيره .. قد إيه الهنود يحبوا الكلام .. الشاى كان يبتدى الساعة أربعة وضرورى يخلص بعد سبعة .. كمان كان فيها نوع من الجليطة .. نوبة عزمونا ف نادى بتاعهم اسمه أورينت كلوب . دا كان أول ما وصلنا وكان ماحدش لسه لحق يسافر . اللفتنانت منير صبرى كان لسه موجود والبلد كلها كانت عارفة إنه ابن رئيس وزارة مصر وحسن أفندى عزيز كنا دايما بنسميه برنس حسن والبلد كلها كانت عارفة إنه من الأسرة المالكة . بعد ما أخدنا الشاى ، رئيس النادى قام يعمل الواجب ، لكن المسكين انتقل من تلبيخ لتلبيخ .. قال :

– إحنا النهارده حصل لنا شرف كبير لأن ضيوفنا المصريين إتنازلوا وقبلوا دعوتنا . ودا يوم خالد ف تاريخ النادى بالأخص لأن بين المدعوين فيه إتنين من أعظم المصريين . اللى قاعد هناك دا مستر منير صبرى ابن رئيس وزارة مصر وبإذن الله هو نفسه هايبقى رئيس وزارة مصر ف المستقبل القريب واللى قاعد هناك

دا يبقى برنس حسن ابن عم جلالة ملك مصر وبإذن الله هو نفسه هايبقى ملك مصر .

الهنود سقفوا والمصريين إتكسفوا وحسن وشه أحمر.. جليطة . واضح أن رئيس النادى كان عايز يجامل وماكانش فاهم هو بيقول إيه .. صبرى معلهش . حتى نتمنى له إنه يبقى صدر أعظم إذا كانت الأماني تفيد . لكن عرش مصر حاجة مش خاضعة للأماني .. الخطيب استمر .

– دى مش أول مرة النادى يستقبل ضيوف مهمين من مصر ليدى كرومر لما زارت جنوب أفريقيا شرفت النادى بتاعنا وسجلت اسمها ف الدفتر .

الهنود سقفوا والمصريين إنكسفوا وبعضهم ابتدا يشوشر .. لكن إحنا مانسيناش إننا ضيوف والشاى إنتهى بسلام . .كل مرة بعد كدا المصريين بقم يروحوا للهنود سكرانين ، ويخطبوا فيهم وهم سكرانين . نوبة الهنود عزمونا ف مكتبة غاندى .. وكانوا عاملين اجتماع حضره حوالى ألف نفس فكرتى بالاجتماعات السياسية اللى بيعملوها ف مصر أيام الانتخابات والمصريين أتكلموا فيه .. بليغ كان طبعا أول واحد اتكلم باسم المصريين قعد

يلعب ف شنبه طول الوقت وبعد ماقال سيداتي وسادتي ابتدا الخطبة بتاعته بكلام من هامات .

سمع الحتة كلها زى درس محفوظات بس بقى يقفل عنيه أحيانا من باب التمثيل ويوطى صوته ويروح معليه على غفلة زى ما بيعملوا الممثلين المصريين ويشد ف شنبه ، والهنود مبحلقين فيه وساكتين كأن على رءوسهم الطير .. أنا متأكد أن خمسة وتسعين ف المية من الهنود اللى كانوا ف الاجتماع كانوا أميين ودا اللى ستر الموقف ماحدش فاهم حاجة . والهجص بتاع بليغ اتفهم إنه علم غزير حتى المتعلمين فيهم افتكروه بيتكلم بالرموز .. بليغ قعد وصبرى قام ، صبرى صاحب الطبع النارى العسكرى اللى كان يشرب الدرامبون فى المانورا ويوقف المراوح بايده ويخبط ع الترابيزات ، قام وخطب . وخطب ف السياسة ودخل ف مشكلة الألوان وشتم حكومة جنوب أفريقيا . وشتم الهنود وقال عليهم جبنا ونسوان .. وكان القرار اللى دايما يرجع له كل كام جملة . عودوا إلي الهند . لازم تكسروا الإغلال عودوا إلى الهند . لازم تحطوا الرجل الأبيض ف مكانه .. عودوا إلي الهند لازم تشتروا حريتكم ولو بالدماء . الشعب هاج وحصل فوران . والتسقيف

العالى كهرب الجو زيادة .. كان واضح إن أغلب الناس كانوا مبسوطين من الكلام بتاعه .. لكن المليونيرات الهنود كانوا منظمين الاجتماع كانوا بيرتعشوا .. كانوا خايفين على نفسهم . كانوا عارفين أن كل اجتماع يعملوه الهنود أو الزولو لازم يبقى له جواسيس من الحكومة . ناس منهم قاطعوه صبرى . قال «أخرس» استمر ف كلامه . مستر كادجى رئيس الاجتماع حب يصلح الموقف قام انتهز فرصة سكون ووقف على رجليه وقال ..

– مستر صبرى قصده يقول :

صبرى بسرعة زقه ف الكرسى بتاعه وقال له :

– أنت تقعد أنا أعرف انجليزى زيك ..

واستمر ف الخطبة بتاعته .. دا كان اجتماع مايتنسيش .. ليلتها صبرى ارتفع ف نظرى كتير الإجتماع كمان كان مايتنسيش لأنه حصل ف مكتبة غاندى .. غاندى برضه لما كان صغير ورجع من أكسفورد جديد اشتغل محامى ف ناتال وابتدا جهاده السياسى ف دربان بالدفاع عن قضية السود ..

صحيح غاندى وصبرى ما قالوش نفس الكلام لكن الغرض كان واحد . صحيح صبرى ف الفجر أخد الطياره وأول ما وصل

ممباسا بعت تلغراف لبليغ يطلب منه تخفيف الخطبة قبل ما تنزل ف الجرايد . لكن اللى قاله كان كفاية .. اللى قاله فهم الهنود أن فيه ناس بيشعروا بآلامهم ..

دربان بلد غنية ومليانة يهود .. اليهود بتوعها مسيطرين على عدد كبير من الأعمال العامة ممولين طبعا زى العادة .. لكن مافيش مشكلة يهود بالرغم من كدا .. اتحاد جنوب أفريقيا كله مليون ونص . فيهم حوالي مليون انجليزى ومليون أفريكان ومليون هندى والباقى زولو .. أغلب الزولو طبعا بيشتغلوا عمال ف المناجم .. وف المدن تلاقيهم شيالين وعتالين وحاجات زى كدا .. تلاقيهم لابسين بدل مقطعة وبرانيط وماشيين حافيين ف الشوارع وبعضهم تلاقيه لابس الخلقات الوطنية ولابس ريش طويل حوالين رأسه ويجر عربية حنطور صغيرة - بعجلتين اسمها الركشو .. دول حالتهم تبكى بالنسبة للهنود .. على الأقل الهنود مستوردين شوية وفيهم التجار وفيهم العمال الزراعيين وف وسط الفقر الشنيع دا تلاقى الأوروبيين منغنغين .. تلاقى كل كام أوروبى عندهم أو تمبيل .. الهنود كمان عندهم أتوم نبيلات كتيرة والناس الموكوسين صحيح هم الزولو ..

دا بس سكتش لبعض الحاجات اللى حصلت لنا ف دربان أو ع الأصح دى بعض الذكريات العامة بتاعتنا . ولو تسأل أى واحد من المصريين اللى فاتوا ف جنوب أفريقيا يحكي لك أضعاف الحكايات دى .. كل واحد فينا رجع ومعاه كتاب من الذكريات اللطيفة اللى مش مكتوبة .. لكن أيام دربان ماكانتش كلها مزحومة بالشكل دا .. دربان كمان عطيتنا أيام وليالى من الدعة والراحة أنا شخصيا كنت موفق قوى ف ظروفى وأسباب السعادة كانت بتيجي لى من تحت الأرض .. مرة كنت قاعد ف الصالون بتاع البترويرث هوتيل .. وجا تليفون للأستاذ فؤاد جلال المدرس دلوقت ف معهد التربية .. جلال ماكانش موجود رحت أنا آخد الرسالة .

– هالوا .. مين اللى بيتكلم ؟

– أنا اسمى الدكتورة جونام عاوزه أكلم مستر جلال .

– مستر جلال مش هنا أقدر آخد له الرسالة ؟

– أصل مستر جلال خطب النهارده ف النادى الهندى وأنا حبيت أعزمه ع الشاى ..

– حاضر ها أبلغه الكلام دا .. أمتى وفين ؟

– أنت مين بيتكلم ؟ ..

– أنا لويس عوض ، واحد من المصريين .

– تقدر تيجي معاه ع الشاى ؟

– متشكر قوى أقدر آجى .

– كما جيب معاك تلاتة أربعة من أصحابك .. أنا أحب أتعرف بالمصريين ..

– أنا ما أقدرش أوعد إنما ها أتصل بيهم ..

– وأنا ها أفوت أخدكو من اللوكاندة بكره الساعة خمسة .

ساعتها ماكنتش عارف إنى ها أقابل واحدة ست من أحسن الستات اللى قابلتهم ف حياتى ..

قلت لجلال .. جلال كان مشغول بعزومة . عرضت الدعوة على كام واحد مالقيتش غير مصطفى عبدالعزيز وعبدالمحسن بكير .. تانى يوم العصر كنا إحنا التلاتة ف عربية دكتورة جونام وهيه بتفسحنا ف البلد .. أخدتنا بيتها اللى على مرتفع بره البلد وعرفتنا بأمها وبقية عيلتها .. أخدنا الشاى وسمعنا شوية مزيكة وبعدين أخدتنا العيادة وعطت كل واحد فينا كام جن ولايم .. وبعدين ساقت بينا .. على حتة خلوية ع الساحل وركنت .. كان فيه أتومبيلات تانية راكنة وناس جوه الأتومبيلات بيشموا الهوا زينا وبيسمعوا هدير المحيط .. أول يوم ماشفتش ف دكتورة جونام

أى حاجة مش عادية لكن انتهزت الفرصة وعزمتها ع العشا تانى يوم من باب رد الجميل .. طبعا ماكانش ممكن إنها تتعشى معاى ف اللوكاندة لأنها هندية قام أخدتها ف رستوران هندى أو على الأصح هى اللى أخدتنى .. ع العشا قعدنا نتكلم ف السياسة والإجتماع وأمور الدنيا . ابتديت أحس إنى مع شخص ناضج . شخص يمكن بيفهم كل حاجة .. عرفت منها إنها عاشت سبع سنين ف أدنبرة بتدرس طب وإنها كانت تعرف بعض المصريين هناك وأن عمرها تلاتين سنة .. ماكانش فيه ف دربان غيرها .. فهمت منها إنها بتعبد حاجة اسمها مصر .. حسيت من نبراتها أنها ف منتهى التعاسة ولما أتصاحبنا أكتر قالت لى إن مصدر عذابها . المقيم هو الحواجز اللى البيض عاملينها بينهم وبين السود .. بعد سبع سنين من الحرية والمساواة ف اسكوتلانده رجعت تتبهدل ف بلدها .. دكتورة جونام باينه ع البعد دلوقت زى روح متألمة حايمة حوالين المكان .. وأنا هناك كانت باينه لى أنها أذكى شخص ف دربان كلها وان ثقافتها أوسع من ثقافة أى إنسان تانى ف البلد كل الهنود كانوا يشتكوا من المعاملة الزفت بتاع البيض . لكن دكتورة جونام عمرها ما اشتكت دكتورة جونام

كانت تشتم وتلعن من غير ماتخاف .. ودا اللى عجبنى فيها .. كانت تشتم الحكومة وتشتم الانجليز وتشتم الافريكان وتشتم الهنود . كانت تتكلم ف أى حاجة وتدور وترجع للسياسة . طبعا كل الناس كانت تعرفها ف دربان . الهنود والزولو والانجليز لكن ماحدش من الكبار كان يحبها .. شفت المليونيرات بتوع دربان كلهم بيتملقوهم لكن الابتسامة الصفرا ما تخفاش على حد . الهنود كانوا يكرهوها عشان صراحتها والانجليز كانوا يكرهوها عشان أفكارها .. ما فيش غير أنا اللى حاولت أفهمها .. لولا دكتورة جونام كنت قعدت شهر ف دربان أتصفح وشوش آلاف العباد من غيرا ما قرا السراير .. هيه اللى حكت لى حكاية السود والبيض على حقيقتهم ..

– تعرف فلان دا ؟ دا بيتاجر ف مليون جنيه وعامل زعيم الهنود هنا .. تعرف دا عمل فلوسه ازاى ؟ كان ف الحرب اللى فاتت بيورد انفار سود للحكومة . وياخد عن كل نفر تلاتة جنيه يحط اتنين ف جيبه ويدي النفر جنيه ..

علشان اكرمنى كتير . عشان كدا ما أقدرش أقول على اسمه فلان دا كان يمسك سماعة التليفون ويطلب دكتورة جونام ويقرا

عليها رباعيات من عمر الخيام وكل ما أخدها ف بيته يوطى على ايدها يبوسها .. واحد يعمل كدا يديك فكرة انه بنى آدم عنده شعور وعواطف لكن الأعمال اللى بيعملها ف حياته الخاصة والعامة كانت توقف الشعر .. أنا طبعا ماشفتش حاجة بنفسى .. لكن دكتورة جونام قالت لى على كل حاجة .. مرة بس كان عازم ست سبع مصريين على حفلة ساهرة شفت كل الناس بتشرب بصراحة وشفته بيشرب الويسكي سك ف فنجان شاى يومها شرب عشرين فنجان شاى والعرق كان بينقط من خدوده لكن ماضاعش اتزانه لحظة واحدة بلا وعى .. من يومها عرفت انه شخص اتقن فن النفاق .. فلان كان مسلم وبيلبس طربوش طويل من غير زر زى كل الهنود المسلمين بتوع جنوب افريقيا . ولما سألته عن فناجين الشاى اللي بيشربها وطى على ودنى وقال : اذا بليتم فاستتروا .

لكن دى كلها مسائل شخصية ماتهمش حد .. فلان حياته العامة كانت انجس من حياته الخاصة .. جزم الانجليز كان يمسحها لكن بتمن عالى الجزمة بألف جنيه .. يقولوا له الجيش عاوز هنود .. يقول بكام .. يتفقوا ع التمن وتانى يوم صاحبنا

ينظم حملة سياسية عشان البهايم يتطوعوا .. اجتماعات ف كل بلد . وف الاجتماعات اعلام ورع الاعلام نداءات . انصروا الديمقراطية .. أنقذوا الحرية .. والسياسة تتخلط ف المسألة واللى يحقق ف الأعلام يلاقيها شيكات قدام الهنود يسميها سياسة عليا وقدام الانجليز يسميها خدمات اجتماعية لكن عند دكتورة جونام وعندى وعند مدير البنك بتاعه كلنا عارفين انها تمن الخيانة .. تمن يهودا ..

هنود جنوب افريقيا ليهم زعماء كتار بالشكل دا وكلهم من أصحاب الملايين وهم الزعماء دول اللى كانوا بيعزموا المصريين ويكرموهم والمصريين ما يعرفوش حاجة عن الموضوع.واحد منهم كان مستر كادجى واحد تانى كان اخوه .. كمان كان فيه مستر رستم جى .. الباقين مش فاكر اساميهم .. طبعا ماكانوش كلهم بيشربوا الويسكى ف فناجين الشاى .. لكنهم كلهم مسئولين عن انحطاط الشعب الهندى ف جنوب افريقيا .. كانوا كلهم يقدروا يعملوا حاجة لكن ما عملوش .. أما ما أقدرش الوم البيض بس ..

الدكتورة جونام حطت البويك بتاعتها تحت تصرفى لحد ما ركبت الطيارة . كانت ف النهار تعرفنى بالحياة الهندية وبالليل

تفـسـحنى ف البلد أو عند خلجـان المحـيط الهندى .. أو على المرتفعات جنب بيرمان درايف اللى فيها القرود والاحراش ..

وكل يوم يفوت كان يقربنا من بعض لدرجة أننا تعبنا قوى يوم ماجيت اسافر .. ليلتها اشترينا قزازة جن وسهرنا للفجر وفى الفجر انتهت افراح دربان وانطوت مآسيها . وأخذتنى بالعربية بتاعتها لحد المطار .. وشاورنا لبعض وزعلنا .. لكن لما لقيت نفسى ب اشاور لدربان كلها من الجو عضنى الألم ف قلبى .. لأنى كنت عارف انى مش ها أرجع لها تانى مدى الحياة .. سمعت كوراس العبيد بيغنى ف ودنى والصوت جالى زى لحن حزين من ألحان بول روبسون مخلوط بوش الطيارة .. امتى تتفتح أبواب السجون والآلهة الغضبانة ترضى عن البشر ، امتى ينزل العفو السماوى عن الملايكة اللى وقعوا غلط ف أطباق الجحيم ؟ امتى تنزل اليد الخفية وتفك السلاسل التقيلة ودكتورة جونام تلاقى نفسها تانى بتمشى على صدر الأرض الواسعة رأسها مرفوعة وبتتنفس نسيم الحرية ؟ كل ما افكر ف الماضى افتكر احزان الكوكب المنحوس بتاعنا لكن أعزى نفسى بأنى اعرف انسان واحد ع الأقل ف نص الكرة الجنوبى اتحققت فيه صفات الانسانية : الدكتورة جونام ..

لو كنت روسو كنت كتبت العبيد انجيل حروفه نار وصحايفه بلون الدم الصبيب لو كنت بايرون كنت سليت سيف العدل والجهاد وماغمدتوش قبل ما أشوف بعينى عملاق الظلم مضرج على سهول بريتوريا ..

لو كنت شلى كنت غنيت مع الصبح ومليت الآفاق بأناشيد الخلاص .. لكن أنا ضعيف وروحى مكسورة وريشتى هزيلة ودمى مهدور ف خدمة الأحرار ..

الوداع يا جنوب افريقيا . يا بلاد الجمال والكرم اللى مالوش نظير والغنى المجوج والقلوب الحجرية ..

مصر مرة ثانية

الطيـارة كـانت مـائيـة ، سندر لاند ، من خطوط شـركـة المواصلات الامبراطورية دى كانت أول مرة أركب فيها طيارة . قبل ما أحط رجلى فيها كنت فاكر أنه هايملانى شعور غريب أول ما اتشعلق ف الهوا .. لكن دى فكرة بتيجى للواحد من عدم الاختبار . الواحد وهو ع الأرض كل ما يشوف طيارة ويتصور حالة الناس اللى فيها ، وبالأخص الناس اللى سايقينها بيتهيأله ان دا عمل عايز قلب حديد ويمكن نوع من البطولة . ف الواقع المسألة مش محتاجة لحاجة من دى .

تصور نفسك ف أتومبيل . حتى بمجرد ما حصل الارتفاع أنا كنت أقدر أنسى بسهولة انى ف طيارة حتى الشعور اللطيف انك بتعمل عمل عظيم يروح منك ف الوقت المناسب برضه يجى لك الملل. تحس طول الوقت أنك راكب ف عربية دملر وماشى ف طريق مرصوف . ومن وقت لوقت تفوت ف مطبات الهوا والطيارة تقع بيك امتار على غفلة . ف أول مطب قلبك يقع ف معدتك لأنه بييجى من غير انذار لكن بعد كدا تحس انك راكب ثور نيكروفت هلكان من أتوبيسات الحرب وأنه وقع بيك ف حفرة . مطبات

الهـوا دي مـجـرد طبـقـات من الـهـوا تـخلخلت بسـبب اخـتـلاف درجات الحرارة .

الحقيقة انك طول ما أنت فوق ما تعرفش انك بتتحرك ، تحس أن الدملر واقفة ع الأرض . الواحد بيعرف أن القطر اللي هو فيه بيتحرك لأنه بيشوف عواميد التلغراف بتظهر وتختفى والغيطان بتنطوى والبيوت والقرى عـلامـات ف السكة . الواحـد بيـتحـرك بالنسبة ، ولو غمضت عنيك الحركة تنتفى لكن ف الهوا مافيش علامات ف السكة تدى فكرة الحركة . الدمار ثابتة ومريحة ، حتى لما تبص للأرض على ارتفـاع عشـرة آلاف قدم وتشوف الغابات والافيال فيها زى الكلاب ماتحسش أنك بتتحرك بسرعة تلتميت ميل ف الساعة . تتفرج ع الفيل أو تنظر على حزمة شجر ويتهيألك أنك فوقها بالضبط والشجر ما اتغيرش . ماتعرفش أنك بتتحرك غير لما تفوت ف سحب وتشوفه زى الدخان الأبيض اللى بينفخه وابور السكة الحديد وتطلع منه ، أو تفوق فوق سحاب وتتفرج عليه عامل أحيانا زى القطن الطبى وأحيانا زى لحاف رمادى بيتغطوا بيه المردة .

مسحنا افريقيا بالطول ف خمسة أيام . كل يوم نطير كام ساعة وبعدين ننزل ف محطة كنا دايما نقوم ف الفجر ونطير لحد

الضـهـر – من ستة لواحدة تقريبـا – ونبات ف آخر نقطة نرسى فيها . أول يوم قمنا من دربان ونمنا ف موزمبيق قدام مدغشقر ، تانى يوم نمنا ف كيسومو من أعمال كينيا ، تالت يوم ف الخرطوم ورابع يوم ف الأقصـر . خـامس يوم نزلنا مع الضـحى ف روض الفرج . دى المحطة الكبيرة لكن بين كل محطة والتانية كان فيه محطات صغيرة نزلنا فيها ربع ساعة ع الماشى عشان بنزين وتشحيم والذى منه . قبل ما نوصل موزمبيق فتنا على لورنزو مركيز وبيرا وبعد موزامبيق نزلنا ف دار السلام وف أوغندا نزلنا ف بورت بل ولما دخلنا السودان نزلنا ف جوبا وملكال . حتى ف الدر نزلنا . كنا تقريبا كل ساعتين ننزل ونطلع تانى .

ف موزامبيق نمنا ف عوامة كبيرة بتاعت شركة المواصلات الجوية الامبراطورية والطيارة نامت جنبنا ع الميه زى بجعة كبيرة مالهاش قلب . ماكانش فيه حاجة نعملها حتى الكوتشينة مالقيناهاش .. وأنا لاحظت أنى ف حالات عدم الاستقرار دى مخى بيقف خالص . حتى صور الماضى ما أقدرش استرجعها ومن باب أولى التفكير ف المستقبل بيبقى عندى مستحيل .. أما الحاضر فمش موجود . سواعى كنت أرقد ع السرير وأتأمل شوية ف حالتى ، وسواعى كنت أطلع على سطح العوامة وأبص مشرق

ف الأمواج اللى بتغسل سما الأفق واضغط على جفونى يمكن أقدر أشوف مدغشقر ، لكن قالوا لى أن احنا على ساحل افريقيا والبوغاز أوسع شوية من صورته اللى ف الاطلس . وان بصيت مغرب ما أشوفش حاجة . الاقى القارة كلها زى ما تقول غرقانة ف المحيط ..

ف موزامبيق الناموس بس اللى تعبنى . لكن فى كيسومو شفت الويل . كيسومو على خط الاستواء واحنا كنا ف سبتمبر يعنى الشمس نفسها كانت فوق روسنا على طول ، يمكن جوا الاود بتاعتنا بالذات . لكن الدنيا ماكانتش حر من الجحيم . الحر كان يخنق لكن زى مصر افتكر عشان الحتة كلها عبارة عن هضبة عالية كذا ألف قدم عن سطح البحر . شوف كتاب الجغرافيا بيقول ايه .. الطيارة رسيت زى العادة فى الميه مية فيكتوريا نيانزا واحنا شحنونا ف اوتومبيلات لغاية اللوكاندة الوحيدة ف البلد .. اللوكاندة كانت على قد الحال ، لكن واسعة الجماعة كلهم حجزوا الأود اللى هم عايزنهم وأنا اتأخرت شوية قام الست الانجليزية اللى ف المكتب عرضت على أنى أنام ف «بنجالو» ملحق باللوكاندة بينه وبينها جنينة متوحشة مافهاش مسالك واضحة . قلت مافيش مانع .. قالت لى كمان ان مافيش

غير ساكن ف الملحق دا قلت برضه مافيش مانع .. ساعتها الدنيا كانت نهار وصحيح ماكانش فيه مانع . لكن لما دخل الليل عرفت معنى الندم. عرفت انه كان أحسن لي ميت مرة أني أنام ف حضن واحد صاحبي على سرير واحد . قعدنا العصرية كلها ف الصالون اللى كان مدروز ظباط انجليز ، والحر خنقنا . لما الشمس اتكسرت طلعنا نستكشف ف الادغال اللى حوالينا لكن ماوصلناش بعيد . من باب اللوكاندة لحد البحيرة كان فيه طريق ضيق معفر يدوبك يفوت عربية واحدة ، وعلى وطول الطريق وحوالين اللوكاندة كان فيه أشجار من نباتات السفانا ما أعرفش كانت بتعمل ايه عند خط الاستواء . حوالى فدانين سفانا ويعدين تلاقى الأحراش المخيفة المظلمة وأنواع الشجر اللى بتقرا عنه ف كتب الجغرافيا ، الشجر التخين والشجر العالى اللى أوراقه أكبر منه والشجر اللى بياكل البنى آدمين اذا كان دا ممكن . وكل دبانة أشوفها أقول تسى تسى . وكل زنجى اشوفه عريان وبشفاتير أقول نيام نيام . قالوا لنا أن اللوكاندة بعيدة قوى قوى عن البلد ، كمان قالوا لنا أن أقرب مركز للمدينة كان على بعد أربعة كيلو واللى يحب يخرم فى الغابات أو يعوم فتكوريا نيانزا . كان معاى الاستاذ فؤاد جلال والأستاذ عبدالمحسن بكير

والأستاذ عبدالعزيز المراغي وقعدنا نمشي رايح جاى ع الطريق المعفر لحد الليل مادخل .. الليل دخل واحنا برضه بنمشي ماكانشي فيه نور عشان الانجليز كانوا لسة بيحاربوا ف الصومال الايطالى .

الليل دخل واحنا بنتكلم ف الموضوع الوحيد المناسب ، موضوع الخوف . طبعا ماحدش فينا جاب سيرة أبو رجل مسلوخة ولا البعبع . المناقشة كانت علمية ناشفة وماحدش كان مرعوب . واحد يقول الخوف غريزة ، التانى بين الايجو والسوبر ايجو ، المراغي يقول دا تخريف . لكن الأمثلة كلها كانت على نمط ليه الإنسان بيخاف من التعابين ، «اذا طلع علينا دلوقت تعبان نعمل ايه ؟» الموضوع كان طبيعي وكل خاجة حوالينا أوحت بيه من غير ما ناخد بالنا حتى أنا ما أخدتش بالي من كدا غير تاني يوم ف الطيارة وأنا باحلل الموقف زى العادة . لكن لو كنا عاقلين كنا بصينا لبعض من سكات واتحاشينا الكلام فيه قبل النوم ع الأقل ، زى راجل ومراته ما يغلطوا ف حق بعض عن معرفة وبعدين يتجنبوا المناقشة والعقاب ، والأزمة تفوت من نفسها ..

احنا ماكناش عاقلين لكن أنا لوحدى اللى دفعت التمن .. الليل اتقدم ورحت أنام . الساعة حداشر ونور النجم مش كفاية ، مشيت ف الجنينة اخبط ف تكعيبة وأطس ف زهرية واحضن الأشجار وأخلص هدومى من النباتات المتسلقة . ماشى وراى عبد شايل شمعة . المغفل كانوا باعتينه يورينى السكة . قلت له يمشى قدامى بالشمعة قعد يبرطم بالسواحيلى لغة كينيا ، عرفت أن مافيش فايدة ، بقيت ماشى وايدى ممدودة لقدام بتحسس الطريق .

وصلت السلم الخشب اللى قالوا لى عليه وطلعت وعديت تالت باب وفتحته . اتفتح . العبد سابنى ورجع ، والأودة كان فيها لمبة كهربا ضعيفة وعريانة وعليها تراب . قفلت الباب ورايا بالمفتاح ، وبصيت ف زوايا الأودة لقيت سرير زهر مقشر عليه ناموسية وكومودينو مخلع ومراية سليمة بس قديمة وشباك كبير مغطى بسلوك قلت كويس . ضمنا أن التسى تسى مايدخلش قلعت ورقدت وطفيت النور ، والافكار ابتدت تخبط ع الباب وتخش واحدة واحدة من غير اذن . قبل كدا أنا ماكنتش خايف انما كنت متضايق من حظى الزفت ف اختيار الأودة ومن القرف اللى شفته ف الجنينة .. لكن بعد الافكار ما خبطت ع الباب ودخلت قفلت الباب وراها ابتديت أخاف . كل المناقشة اللى حصلت عن الخوف

رجعت لي حرف حرف .. دفنت راسي تحت المخدة مافيش فايدة . لكن يظهر اني نمت من الاختناق لأني بعد شوية صحيت مفزوع بكابوس وأول حاجة عملتها كانت زر الكهربا طبعا . ف تلات ثواني بالظبط كنت جوه البدلة زى ما يكون ، ونزلت أجرى ع السلم الخشب وف الجنينة ، لغاية ما وصلت باب الصالون ، اطمأنيت وابتديت أفكر ف الكابوس اللى جالى . الحلم كان قصير قوى .. كان عبارة عن حية قطرها قد المسطرة وطولها تلات أمتار كسرت الشباك السلك وابتديت تزحف علي ..

بصيت ف الساعة لقيتها واحدة ونص . وبعدين ، ايه العمل ؟ أرجع الأودة تانى ؟ مستحيل . اترميت على فوتيل ف الصالون وقعدت أفكر . بعدين قمت ع المكتب وابتديت أكتب جوابات لمصر وجنوب أفريقيا. كتبت تلات سطور ف تلات جوابات وبعدين لكلكتهم ورميتهم ف السبت. الغفير جا ع الخشخشة. كان عملاق أسود لابس بالطو أصفر من بتوع السلطة ع اللحم وعلى راسه طربوش جريان من غير زر ولا خوصة. وقف قدامي.. بصيت له شوية واستمريت ف الكتابة. ما اتحركش بصيت له تانى واستمريت ف الكتابة. الغفير ماقالش ولا كلمة لكن فضل واقف

قدامى بمنتهى الثبات. ما اعرفش ايه اللى كان بيدور ف عقله ساعتها. ارتبكت شوية وفى الآخر قلت له بالانجليزى وأنا بابتسم عشان اتملقه هو بالتأكيد كان سيد الموقف. ايده كان فيها عكاز واسنانه كانت بتلمع..

- أنت عاوز حاجة؟

الغفير ضحك، مش فاهم ليه، وقال:

– نو.

لكن ماتحركش. ابتديت أخاف شوية. صحيح ضحكته ماكانش فيها أى شر. كمان وقفته والتعبير اللى على وشه كانوا هاديين قــــوى.. كنت أقدر ابتدى معاه سين وجيم، «طب واقف ليه؟» «ماتروح حتة تانية»، «أنا كمان مش عاوز حاجة». لكن قلت بلاش الحاجات اللى تجيب الشكل، ابتديت استعمل كل الملكات اللى عطيتها لى أمنا الطبيعة عشان حفظ الذات. طلعت نص كراون وحطيته ف ايده وقلت له:

– روح هات لى علبة سجاير بحارى من فضلك.

الغفير حط الفلوس ف جيبه وقال:

– نو.

«نو» يعني ايه؟. ابتديت أشك أنه يعرف انجليزى شاورت على جيبه وابتديت أكلمه انجليزى بطريقة وست.

- مى سيجاريت.

هز راسه لكن ما اتحركش، رحت مطلع علبة سجاير بحارى من جيبى وقلت له تانى:

- سيجاريت. زى دى.

الراجل ماردش انما قلد صوتى تمام من غير مايبان ف حسه انه فاهم حاجة..

- سيجاريت..

ومشى. خرج من الصالون ومارجعش. على العموم دا اللى كنت عايزة. أنا ماكنتش عايز سجاير أنا عطيته الفلوس عشان يمشى، حتى انبسطت شوية انه مارجعش لأنى اتصورت الموقف الغريب دا ازاى هايتجدد إذا رجع وف ايده علبة السجاير. برضه ها أقول له «مرسى» وبرضة هايستنى واقف زى اللوح. بعد مامشى اترميت أنا على كنبة وقعدت أفكر ف الحكاية دى. خطر لى أنه شك فيه وافتكرنى حرامى، ومادام هو الغفير بتاع اللوكاندة يبقى معنى كدا انه لازم يقف جنبى طول ما أنا قاعد ف الصالون.

ما أعرفش بعد نص ساعة عيني تعبت وحسيت بنعاس شديد.. ماقدرتش أرجع الاودة بتاعتي وقررت أني أنام ف الصالون ع الكنبة زي ماكنت. لكن خفت انحس تروح على نومة والطيارة تفوتني.. قلت لازم أشوف واحد يصحيني. مشيت لآخر الصالون ادور ع الغفير تاني مالقيتش حد، رجعت مكاني وقعدت وسندت خدودي بايدي من شدة التعب وبعدين بصيت لقيت واحد اسود تاني جاي على. دا كان طويل برضه زي الغفير لكن كان لابس جلابيه بيضاً بتلمع على جتته السودا اللى بتلمع عرفت أنه واحد من الخدامين. لما وصل عندي مد لي ايده وفيها شلن وستة بنس. قلت الغفير دا لازم أمين اشترى السجاير وباعتها لي مع الراجل دا هيه وبقية النص كراون اخدت الفلوس وانتظرت شوية وضحكت عشان افهمه اني ممنون، ماعطانيش حاجة تاني.. قلت له:

- فين السجاير. الفلوس دى باقي النص كراون.. فين السجاير؟

يظهر أنه مافهمش لأنه ماردش خالص. قلت:

- أنت تتكلم انجليزى؟

قال لي:

- كاكا.

ماعرفتش «كاكا» دى تطلع ايه. أفرض أن معناها «ايوه» أو «شوية» طلعت السجاير بتاعتى ومديت ايدى وقلت له:

- سيجاريت..

ماردش خالص.. فكرت شوية وخطرت لى فكرة.. يمكن الغفير افتكرنى عايز اشترى له هو علبة سجاير قام راح اشتراها لنفسه وبعت لى الباقى. معقول. لكن دا يبقى تفكير معقد خالص وفيه عملية رياضية.. لكن برضه معقول لأنه شاف معاى علبة سجاير ومافيش حد بيشيل علبتين أو يمكن افتكرنى حرامى وعاوز ارشيه بعلبة سجاير. طيب ورجع لى باقى الفلوس ليه؟ دا يبقى شخص غير عادى.. نهايته قفلت الموضوع. حاجة تدوش الدماغ صحيح. قلت للخدام:

- أنا عاوز أنام. صحينى بعد ساعة.

قال لى:

- كاكا..

ابتدت «كاكا» يبقى معناها ايوه واللا لأ؟ وابتديت أنا أعبر بالاشارة شاورت عليه وقلت «أنت» وهزيت نفسى بايدى وقلت

«تصحيني» وشاورت للساعة وعملت له تلاتة بصوابعي وبعد ماخلصت العملية المتعبة دي قال لي بكل هدوء:

– كاكا..

قلت بالعربي: يخرب عقلك.. كاكا ف عينك.. ورحت متمدد ع الكنبة وعطيته ضهري وقلت اللي يحصل يحصل بقي غالبا الدوشة بتاعة الجماعة ف الصالون لما يصحوا هاتصحيني.. وفعلا صيحت ع الدوشة وف ربع ساعة كنا كلنا ف الطيارة لكن مالحقتش أغسل وشي قبل الخرطوم.

لما نزلنا ربع ساعة ف جوبا حسينا لأول مرة أننا على أرض مصرية لقينا البلد عبارة عن كشك زي اكشاك المهندسين عايش فيه شاب متخرج من اكسفورد جديد وشاب سوري مستوطن.. أهو دا عمره مايكتب جوابات للرياسة بتاعته مليانة شكوى زي الموظف المصري لما يحدفوه.. جنب الكشك حتة من النيل كانت بتجري ف حجم الترعة الإبراهيمية بس فيها تماسيح بتقب وتغطس، وبعدين تلاقي صحاري وأشواك وأقرب نقطة للمدينة كانت عشش السودانية على بعد خمسة كيلو. أجدادنا كانوا بيحسبوا أن النيل بينبع من الجنة. أنا اللي شفت منابع النيل يعني جوبا والبحيرات أقول لك أن النيل نازل من الجحيم.

ولما نزلنا ربع ساعة ف ملكال حققت كويس ف النيل والبيوت والطبيعة لأن أبويا كان بيشتغل باشكاتب المديرية هناك من قيمة عشرين سنة لقيتها مش أحسن من جويا كتير.. بس بدل الصحارى كان فيه أعشاب سفانا وبدل الترعة الإبراهيمية فيه نهر كبير مش منتظم ماشى ازاى عامل زى البحيرة البيضاء اللى قعرها واطى وسايحة على نفسها وأعشاب طويلة مالية الميه وباينة فوق السطح زى غيطان الدره الشامى لما يغرقها النيل وقت الفيضان وبيوت السودانية زى خمسين قمع طين مرصوصين جنب بعض.

نزلنا ف الخرطوم بعد كدا وكان لازم فيها. قوارب شركة الطيران الامبراطورية خطفتنا من الطيارة لغاية شاطئ النيل. واتومبيلات الشركة خطفتنا من الشاطئ لحد البلد. دخلنا اللوكاندة وعنينا مكبوسة تراب لقينا الظباط الانجليز ف الصالون بيشربوا بيرة. أنا خرجت على طول ودرت ألف ف البلد. مشيت ع النيل وسألت عن البيت اللى اتقتل فيه غوردون باشا ودلونى عليه. كما زرت نادى لطيف عاملينه لموظفين المصريين ف الخرطوم وكل الناس لطاف لكن برضه مافيش فايدة. مشيت ف الشوارع اتفرج

ع البيوت الوسخة والبيوت الفقيرة والعفار منين ما أروح يملا جزمتي ويخش ف شرابي.. الخرطوم ليها معنى عندى أكثر من أغلب الناس لأني عشت فيها خمس سنين على بعض أول خمس سنين ف حياتي. حتى كان لينا بيت ف الخطروم وبعناه لما رجعنا مصر أيام ثورة ١٩١٩ تقريبا. الحاجات دى رسيت ف ذاكرتي لكن طبعا ماسابتش تفاصيل ماكانش معاى عنوان وخارطة البلد ماكنتش فاهمها لكن كان عندى إحساس طول الوقت اني لو شفت بيتنا أعرف بالالهام. مشيت ف الشوارع أجهد ذاكرتي واستحضر صور ماضي سحيق زى يوم الميلاد لكن طبعا عرفت بعد شوية أنه مافيش فايدة من التجول دا. رجعت اللوكاندة لقيت أصحابي العبطا اللى خدوا حمام ساعة ماصلوا بياخدوا حمام تاني. أنا استنيت بترابي لحد المغرب ماجا وأتأكدت أنه مافيش خروج تاني. حتى قبل ما استحمى عملت حسابي أنه اشوف أم درمان واقف عند ملتقى البحرين واتفرج ع المناظر المشهورة ماكانش فيه منظر مشهور، تاني رجعت أودتي وقلعت ومليت البانيو ميه باردة ونزلت فيها وطلعت منها مفزوع. الميه الباردة كانت بتغلي بس ناقصه الحركة والبخار. افتكرت أن واحد صاحبي حب يهزر قام قفل

الحنفية السخنة، وفعلا رحت زعقت لهم كلهم لكن ف الآخر فهمت أن دا من عمل الطبيعة مش من عمل الإنسان. أنا عـايز أ.ب. هربرت الخرطوم عشان يكتب مقاله عن حماماتها وطرق اصلاحها زى ما عمل مع حمامات لندن.

مافيش فايدة أنى اكلمك عن الحرف الخرطوم.. الشمس كانت فوق خط الاستوا لكن هلكتنا تحت مدار السرطان. كيسومو كانت زى المطهر جنب جحيم الخرطوم، وبورت بل كانت مصيف جنب جوبا..

انتهت المذكرات

كلمة كنارى الثانية

.... واخيرا سلمت الكتاب

لم أكره فى حياتى مثلما كرهت هذا الرجل ذلك اليوم فقد كان غريما لى. جاء ينازعنى حضانة ولد عاش معى قرابة ربع قرن من الزمان. لقد كنت أعرف أن الولد غير لقيط، وأن له أبا، ولكنى كنت حللت من هذا الولد محل أبيه. إلى أن جاء اليوم الذى فيه فضحت نفسى، وكشفت أمرى فجاء الأب الشرعى ينازعنى فى ولد تبنيته عشرين عاما من الزمان.

فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٥ تعرفت بقلم شاب كان يكتب بعض الكلمات المتفرقة، على صفحات جريدة «منبر الشرق» التى كنت أعمل محررا فيها. وما أن تبودلت بيننا بعض الرسائل حتى كلفنى بأن أقدم له أوراقه ليدخل كلية الحقوق بالأسكندرية. لقد كان حلمه أن يصير محاميا، ولكن ظروف حياته منعته من تحقيق هذا الحلم، فاشتغل موظفا صغيرا فى الرقابة، وكان لزاما عليه لتحقيق أمنيته أن يجرب حظه فى جامعة القاهرة. وكان لزاما عليه

أن يتـردد علـى الاسكندرية. وكانت موارده لا تسـعفه بمصـاريف النزول فى فندق. أى فندق كان.. فكان أن اتخذ من بيتى فندقا.. وكـأنما أحس بعـد أن تكررت زيارته لي أن الواجب يقـتضـيـه أن يحمل هدية للمضيف يرد فيها جميل الضيافة ولكنه كان فقيرا كما قدمت..

فلمـا جـاء إلى ذات يوم فى إحـدى زياراته المتكررة حـمـل إلى هدية قـدر إمكاناته انهـا.. كتاب مكتوب على الآلة الكاتبـة، ومـجلد سنة من إحدى المجلات الخاملة الذكر.. وقال لى فى حياء ظاهر.

أعرف أنك صـحفى وأديب، تحب القـصص، وهذه قصة لعلها أمتع ما قدم لنا فى الرقـابة، كمـا أن هذه المجلة قد يكون خـلا منها متحفك الصحفى..

وكنت فى هذه السـنة أعانى فى نفسـى فراغـا أضيق به. فـمـا كـانت تنتهى آخر ليلة من عام ١٩٤٤ حتى أخذت معـهـا صـديقا شـابا كـان توأم روحى فى الأدب والحيـاة، مات عن ثلاثة وعشرين ربيـعـا. فكنت فى عام ١٩٤٥ أبحث جـاهدا عن صديق يـملأ على فراغا تركه فى نفسى صديقى حسين محمد عبدالخالق.

وذات ليلة جلست على سريرى اتصفح الهدية التى حملها إلى صديقى الجديد. لقد كانت تجربة باللغة العامية. ولكن أى تجربة..

لقد بدأت أقرأ أولى صفحاتها فشعرت بشئ يشدنى إليها ويربطنى. وإذا بى أطوى الصفحة أثر الصفحة حتى تنبهت إلى أنى قطعت ثلثى الليل وأن على أن أستريح ساعة قبل أن يطلع النهار. وكأنى أخشى أن ينتهى حديث هذا السمير الجديد. ومن يومها وذلك الكتاب أصبح سميرى. آنس إليه، والوذ به كلما استوحشت روحى إلى انيس..

قرأتـــه مرة، فمرة. ثم تحفظت عليه. لا أفرط فيه. وكتمت سره على جميع من عرفت من الأصدقـــاء فـلا يستعيره منى أحد، ولا يعلم بمكانـــه أحد فكم من الكتب أعرتها فلم استرجعها من المستعمير. وكم من كتب لم أعرها ولكنى افتقدتها لخفة يد صديق.

ومرت الأيام والسنون، وأنا أنتقل من بيت لبيت، ومن حال إلى حال وذلك الكتاب لا يفارق مكمنة عندى، وتزوجت وأصبح لى أطفال وشغلتنى مشاغل العيش عن الكتب لم، وأصاب أطفالى معظم كتبى بالتلف. ولكن نجا من عبثهم هذا الكتاب. وجاء يوم، رأيت فيه أن أنزح إلى الحجاز بعد أن ضاقت فى وجهى وجوه العيش فى الإسكندرية وكان على أن أخفف حملى، واختزل مالدى من

كتب، واتخلص مما ليس له شأن عندي. وراجعت كل كتبى فأهدى منها ما أهديت.. وبعت منها ألا هذا الكتاب الذى لا أعرف سر الرابطة التى بيني وبينه.

وقبل أن أعود من الهجرة. سبقتني زوجتى إلى الإسكندرية لتنقل أثاثنا من المخزن إلى البيت الجديد. وجئت لأفحص كتبى فافتقدت كتبا عزيزة علي. لعلها. سرقها الحمالون. لعلها سقطت من سيارة النقل. لعلها نسيت فى المخزن. افتقدت ديوان وطنيتي الذى أهدانيه أستاذى على الغاياتي. افتقدت قصيدة مطبوعة نادرة «الحقوق الضائعة» أهدانيها صديقى الشاعر الكبير أحمد محرم. ولكنى وجدت هذا الكتاب.. كان هذا الكتاب سميرى. لم أعد إلى قراءته قط. ولكن أحداثه كلها كانت فى قلبى. أعيش فى فيوض منها.. وأذكرها كلما ذكرت شبابى، ولم يكن فى ذهنى قط أنى أملك نسخة لا يملكها أحد سواى.. اذن لسارعت إلى استئجار خزينة فى بنك مصر لأودعها فيها. ولا أقول فى ذلك هزار فانى مولع بالتحف من الكتب والصحف.. وأحتفظ بجرائد اللواء والمؤيد وحمارة منيتى والهلال وسركيس والمجنون والمسلة والأهالى والأفكار وغيرها.. وغيرها.. من الصحف والمجلات التى

لا يعرف عنها شيئا أبناء هذا الجيل.. والتى لا يحتفظ بشئ منها من لم يزل من قرائها على قيد الحياة..

ومات أخى الشاعر محمد محمود حسنين وقبضت أمه وزوجته مبلغا كبيرا من المال من شركة التأمين إلى جانب المعاش الشهرى.

وقلت لامرأة أبى. ساعدينى على نشر ديوان أخى فإن هذه كانت آخر أمنية له فى الحياة فقالت الأم : «ما عندناش فلوس» قلت : لقد دفعت لك شركة التأمين مبلغا يقرب من الألف جنيه. قالت المرأة: «يوه .. سددنا بيها الديون .. اللى قلبه على أخوه ينشر له ديوانه وسكت» .. وتأملت نفسى .. غدا يحضر صديق لى من القلة القليلة بقيت لى من الأصدقاء يقول لزوجتى أشرى ديوان كنارى .. كنارى الذى قال فى أخريات عمره :

قــريتنى الأيام من آخــر الشــو
ط فـــمــرحى سلخت جل نهـــارى
وغـــدا يقـــبل الظلام .. فـــيطفى
غلـة المتـــعب الشـــديد الأدوار

يحـــــمل النوم للكليل المعنى
قلة أعــــشــــيت .. من الابصـــــار
قـــد قطعت الطريق .. الا قليــــلا
فـــاعـــزفى يا طيــور .. لحن انتـــصــــارى
فى غـــد تقــبل الوفـــود تعــزى
ويقـــــول الرعــــاة .. مـــــات الكنارى
ويقــوم الهـــزار يحـــتل عـــشى
وأنا ســـاخـــر لحـــمق الهــــزار
هذه قـــصـــة توالت كـــثـــيــرا
... وعلى مـــســـرح .. قـــديم الســـتــــار

وترد زوجتى مرددة ما قالته امرأة أبى. ترد زوجتى مرددة ما قالته زوجة عبد الحميد الديب. وما قالته زوجة فلان وفلان من الشعراء. وحسبت ما ستقبضه زوجتى من تأمين ومعاش فهالتنى الأرقام واستبشعت الجريمة. وأمسكت ورقة صغيرة كتبت عليها «دار النشر للجميع» وبدأت العمل.

أخرجت أول ما أخرجت كتيباً صغيراً. «مقال ترجمته عن الأمريكية» ثم أتبعته بمنشور ثان. قال آخر ترجمته عن الأمريكية

كذلك. أما ثالث منشوراتى فكان ديوانى ايناس. طفلتى الحبيبة المدللة التى قتلت نفسها قبل موت أخى بخمسين يوما. ثم .. توقفت هل استمر فى نشر مؤلفاتى .. إذن ما هو نصيب هذا الشعار من دنيا الحقيقة .. «دار النشر .. للجميع» لا دار أذن على الاطلاق ولا مجد لها على الإطلاق .. اذن فعلى أن أغير الخطة، وأن أنفذ مفهوم التسمية. إنها دار نشر للجميع. ولكن أى جميع هل هناك من يعطينى مؤلفه أنشره هدية بلا أتعاب. وتذكرت على الغاياتى . أن أحدا لم يذكره حتى الآن .. وهو أيضاً لم يذكر لى أنه ألف كتباً غير ديوانه القديم : «وطنيتى» وديوانه الجديد .. «هجرتى» وانى لى هذا الديوان ..

وتذكرت ذكرياته التى نشرها تباعا فى منبر الشرق، قبل وفاته تحت ضغط مريديه وأصدقائه الأصفياء. فعمدت الى هذه الذكريات فجمعتها ونشرتها فى كتاب «فجر الثورة» ساعدنى بقليل من المال مرسى العصافيرى المحامى أحد تلامذة الغاياتى .. وصدر الكتاب .. طبعت منه ألفى نسخة كلها عادت الى من شركة التوزيع .. وضاقت بها دواليب البيت .. ولكن انتبه الى أهميتها قليل من النقاد ..

وجلست أفكر من جديد. ما هو الكتاب التالي. وكان حافظ البحيرة وجيه أباظة يستعد للاحتفال بمهرجان أحمد محرم في دمنهور . فأعلنت عن أخراج رسائلة . وقيل في ذلك يؤمئذ ما قيل ولكنى أخرجت الكتاب . أنه يكشف عن مرحلة حرجة في تاريخ الأدب .. مرحلة تبين أزمة الضمير. ولم أعط «رسائل حرم» الى شركة توزيع قد تلقيت منها في التجربة الأولى درسا لن أنساه.

فوزعت الكتاب بالطريق الشخصي، وبقى عندى من الألف نسخة بضع مئات، زادت في بيتى من أزمة التخزين، وسوء التفاهم بينى وبين إمرأتي التي لا تعرف ماذا أصاب زوجها . فلا يخرج مؤلفاته فتقول انه يعمل لنفسه .. ولا هو يربح من مؤلفات غيره فتقول إنه يعمل للكسب . ولكنها خسارة تلو خسارة ليس وراءها شرف .

وفرغت من رسائل محرم لأبحث عن الكتاب التالي. قلت ليكن ديواني «القط» الذى كان متوقعا أن يكون أول دواويني .. لو لم تقتل نفسها .. طفلتي ايناس ، وكتب لي صديقي الدكتور حسن ظاظا أستاذ الساميات بجامعة الأسكندرية مقدمة للديوان الجديد

إن كنارى يمجد القط. ليخسأ بعض بنى آدم من لم يصلوا فى مجال النفس الى رتبة هذا الحيوان .. ومع ذلك فهو بلا شك وكما قال صاحبه .. شعر انسانى» ..

وأعددت العد لنشر هذا الديوان ودفعت به الى المطبعة .. وصفت المقدمة . ثم وقع بينى وبين المطبعة خلاف . أقول للرجل لقد أتفقت معك على التشكيل «فيقول» تشكيل ايه يا أستاذ مطبعتى ما فيهاش تشكيل . . ثم الشعر المشكول بقى مودة قديمة . قلت أنا أريد ديوان القط يخرج كديوان تذكار ايناس . شعراً عمودياً مشكولا .. وقد اتفقنا علي هذا فلا داعى لتغيير الاتفاق. وسحبت الكتاب من المطبعة . وذهبت الى المطبعة التى أخرجت فى أناقة ديوان ايناس .. ولكن الرجل غالى في الثمن. فتوقفت عن الطبع . وأخذت أتحين الفرصة لطبع الديوان .

وفجأة تذكرت هذا الكتاب. «مؤلف لويس عوض» ،هالتنى الفكرة. إنها ضربة بارعة . فلتعقد محاكمة لهذا الرجل الذي استبد برأيه فى الفن والأدب. لقد أجرى تجربة ثم حكم عليهات بينه وبين نفسه وأصدر حكمه فيها بالاعدام. لم يشرك فى حكمه أحدا من الأدباء أو النقاد . اذن لا بد من محاكمة هذا الرجل أمام

الرأى العام واثارة قضية هذا الكتاب الحبيس والمعارضة فى أمر حبسه، والمطالبة له بالافراج.

وأعددت العدة للطبع. ولم أعلن السر إلاّ لصديق واحد الناقد السكندرى نبيل فرج .. ثم خشيت من ثرثرة هذا الأديب الشاب. وزادت خشيتى عندما تذكرت أن شقيقة الفريد فرج على صلة وثيقة بملف هذا الكتاب الذى أزمع طرح قضيته على القراء .. قلت أرجوك يا نبيل احفظ على هذا السر لا تذعه لالفريد .. إنى أخشى أن يوقفنى عن النشر لويس عوض بخطاب وصى عليه .. أو بانذار على يد محضر .. أنذركم بعدم التعرض لى وعدم نشر كتابى والا فسأحملكم كافة المسئوليات .. وارتعدت خلجاتى . أعوذ بالله. يا ساتر أستر .. يارب ... أرجوك يا نبيل .

وبعد يومين جاءنى نبيل : صديق شيبوب (١) بيقول لويس عوض يمكن يرفع عليك قضية .. قلت هو ده السر اللى لك عليه .. يخرب بيتك حتخرب بيتى يا شيخ . وطلبت من نبيل أن يقسم على الأنجيل لا يعود الى اذاعة السر .. حتى أفرغ من طباعة الكتاب

---

(١) الأستاذ صديق شيبوب كان أحد دعائم الحياة الأدبية فى الإسكندرية زهاء خمسين عاما .. وقد فقده الأدب يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٦٥.

.. ولكنه راوغنى فى القسم .. أقسم يا نبيل قال مش لاقى الإنجيل ..

أما الشخص الثانى الذى كان يعرف هذا السر فهو زوجتى .. وذهبت المرأة لزيارة أخيها كامل حمادة المحامى وعادت الى ببشارة .. أخى يحذرك من التعرض لهذا الكتاب والا عرضت نفسك لقضية جديدة يرفعها عليك المؤلف . أعوذ بالله .. ما فيش حد يجيب لى بشارة خير .. ولكنى مع ذلك مضيت فى النشر . وانتهى الكتاب بالصورة التى أردتها ..

على أنه اذا كان استهتارى بحق التأليف ربما يجره على من متاعب وإشكالات لا أحصل فيها على البراءة الابعد دفع غرامة يقبضها منى المحامون. الا أنى لست مستهترا بسمعتى الادبية وذوقى الفنى .. فماذا يكون موقفى فى قضية أدبية موضوعها الدفاع عن كتاب لا يستحق القراءة .. هذه هى المشكلة الحقيقية .. أما حقوق التأليف فهى مثار خلاف وجدال .

ونزلت الى الناس فى المصنع. فى المكتب. فى البيت . فى المدرسة أعطيهم صفحات من الكتاب وأضع وجوههم وخلجاتهم تحت المراقبة أثناء القراءة . قراء من جميع المستويات أطلعتهم

على ثلاث صفحات فقط من صدر الكتاب .. خريج الآداب .. وخريج الحقوق .. والعامل الذي لا يكاد يفك الخط الا بالجهد الجهيد .. وربة البيت التى لا يتسع وقتها لتصفح كتاب .. وتلميذ المرحلة الابتدائية .. لقد أجريت على تلك الصفحات هذا المسح التجتماعى العريض .. وكلهم أجمع على الرغبة فى قراءة كل الكتاب ومتابعة الرواية .. وعندئذ شعرت بأنى كسبت القضية الأولى .. وهى أهم القضيتين .. وخرج الكتاب. كان يتضمن اثنتين وعشرين صفحة فقط من المخطوط .. وأرسلته اى المؤلف .. وعليه أن يصور لنا بقية القصة من جانبه .. أما بقية القصة من جانبى .. فإن الكتاب كان يلتهمه القراء وتابعت كثيرين منهم وضعتهم تحت الملاحظة فكانوا كلهم بلا استثناء يقرءون هذه الفصول القليلة فى جلسة واحدة .. ثم بدأ يتصل بى القراء .. انهم يريدون أن يعرفوا هل أدرك صاحبنا الباخرة أم بقى تائها فى شوارع جنوه يسأل – بالانجليزية تارة وبالفرنسية تارة أخرى ولا يتلقى على أسئلته سوى «ابتسامة» إجابة بالطلياني .. ثم انصرف » ...

وبعد أيام جاءنى نبيل فرج ليقول الفريد عاوز الكتاب .. قلت وما شأن الفريد .. أنا لا أسلم الكتاب الا الى كاتبه .. ودارت بينى

وبين نبـيل مـحـاورات .. وتلقى نبـيل على الأقل أربع أو خـمس مكالمات تليفونية من القاهرة . وهو يتردد وبينى وبين التليفون كل يوم مرتين أو ثلاث مرات . الى أن جاءنى يوم يقول .. لويس عوض سيكلمك الليلة ..

ودق التليفون فى بيت نبـيل .. وقـالت السنترال .. نبيل فرج يكلم لويس عوض .. وكانت هذه أول مرة يكلم فيها نبيل الدكتور لويس . وسأل لويس عن كنارى . فـقال نبيل لسـه ما وصلش يا دكتـور .. وقـبل أن تثـور ثائرة المؤلف الذى يتـحرق شـوقـا لرؤية الكتاب .. دخلت ألهث لقد عطلتنى المواصلات .. هالو كنارى .. أنا حابعت أطلب استمارة سفر من إدارة المطبوعات .. لا .. لا .. دى مسألة تطول .. أنا جاى يوم الخميس ..

وانتـهت المكالمة .. وغـادرت دار نبيل لأعـود الى بيـتى .. وبدأت أحس بشـئ من الضـيق .. بعـد يوم واحـد لن أصـبح مـالكا لهـذا الكتـاب .. بعد يوم واحد سيغادر بيتى هـذا الصاحب العزيز الذى صاحبنى عشرين عاما أو تزيد .

وحل الخمـيس . ودق جرس الباب .. ودخل الضيوف نبيل فرج يصـاحبه شقيقه الفريد . .. الدكتور لويس .. ودخلوا الصالون .

ولعلهم شعروا أول ما شعروا بخيبة أمل فى «دار النشر للجميع» التى ليس فيها مكتب ولا سكرتير ولا حتى فراش .. ودخلت وبدأ الحديث. وتناولنا كل الظروف التى أحاطت بهذا الموضوع من ساعة أن وقع فى يدى الكتاب حتى خروجه من المطبعة وكلما انتهينا من القصة عدت أسردها من جديد والدكتور لا يستقر فى قعده الا بجهد ظاهر .. أنه يريد أن يرى كتابه بعد غيبة ثلاثة وعشرين عاماً .. وكنارى يتلكأ ويراوغ .. لقد كان الدكتور لويس يتوقع أن يرى كتابه بمجرد روية كنارى .. ولكن كنارى لم يكن عند حسن ظن الدكتور .. فلا مناص للدكتور من التصريح .. وسأل عن الكتاب . وقال كنارى . الكتاب مش عندى .. هو عند ناس .. وإذا أستأذنتهم فى نقل بعض نصوص منه .. قال الدكتور . ومن هم هؤلاء الناس . قلت هذا مصدر صحفى . وأنت بلا شك تعرف واجب الصحفى فى المحافظة على سر مصادره .. وثار الدكتور . وتغيرت لهجته .. لقد أدرك أنه اصطدم بمشكلة .. وأن عملية تسلمه الكتاب أصبحت مسألة تحتاج الى صراع .. صراع فى أقسام البوليس . فى المحاكم .. فى نقابة الصحفيين .. لانه لا بد له من طلب اذن النقابة فى مخاصمة زميل .. مسألة شرحها يطول..

وقـــل لويس وقد علت طبقـــة صـوته خمس درجات . أنا قبل ما أجي استـشـرت مـحـامين .. كنت فـاكر فـيها غرامة .. قـالوا الحبس واجب .. وقلت له .. على إيه يادكتـور . دي مـسألة عندي بيها انذار .. ومعمول لها ألف حساب .. قال لا .. يمكن أنت ما تعرفش القانون .. قلت لقد سبقني الى العمل محمد طلعت حرب .. عندما أخـرج قـاسم أمين كتابه تحرير المرأة .. فلم يجد لقـاسم أمين يدعو فيه الى الحجــاب، وجحظت عين الدكتور لويس وتبادل مع الفـريد النظرات وضـحكت أنا .. لقـد أطلعتـهم على أمـر لم يكونوا عـارفيه .. وقـــال الفـــريد عجيبـة طلعت حرب كـان ضد حرية المرأة .. مع أنه في آخر أيامـه كـان بيـوظف البنات في بنك مصر .. أما الدكتـــور لويس فقـال في اشمئزاز .. لا ده بقى كـان لازم قـبل قـانون حـمـــاية حـقـوق المؤلفين .. وعندئذ تعـرض لأخطر مـراحله .. هذا الكتاب مـرحلة الصـراع بين الأب الشـرعي والأب المتـبني .. لقـد تعـرض الولد في هذا المرحلة للمـوت .. ان لويس عـوض لم يحكـــم أعـصـــابه فـهـددني بالحبس وثارت في نفسي ثائـــرة التـحدي وثورة التحطيم .. قد راودتني أنئـذ فكرة حرق الكتاب .

ولكن لم يكن فى نيـتى أن أفلتت قلبى حـزنا وأنا أحطم قلب لويس عوض أسفاً على كتابه .. فأنا مؤلف وأعرف مكانة الكتاب فى نفس صاحبه .. ولكنه كان إحساساً عجيباً أشعر به سلوكا أسلكه بلا ارادة .. سلوك يعانيه أى رجل التقط طفلا من الشارع .. فتبناه وصاحبه نصف عمره .. ثم إذا به يفاجأ بالاب الشرعى وجها لوجه يطالبه بضم الولد .. وهأنذا اليوم الأب المتبنى أواجه بالأب الشـــرعى يطالب بالولد .. وأنا أريد أن أدخل مع الوالد الشرعى فى نزاع أمام المحكمة .. أريد أن أدفع بسقوط حقه فى حضانة الكتاب لأنه أب مهمل مقصر في حق أولاده ، ولما ضاع منه كتابه وأصبح عرضه لأن يتناثر بين ايدى المشترين كل صفحة منه تتحول الي قرطاس يعبأ فيها اللب والترمس والفول .. ثم .. يلقى بها على الأسفلت لتدوسها الاقدام .

قلت للدكتور لويس إني ذاهب لاحضر الكتاب. ولكن فلنتناول طعام الغداء .. قال لا.. أنا عاوز الكتاب .. لقمة خفيفة يادكتور الساعة اتنين ونص وأنا مافطرتش .. لا .. أنا عاوز الكتاب، وكانت الكلمات تخرج من فم لويس بغضب ممزوج ويقلق وشوق يشوبها شئ من الارتياب غير قليل ..وخرجت لاتناول الكتاب من يد

زوجتى وأسرع به الى الشارع وكأنما يطاردني شبح يريد أن يخطف منى الكتاب .. أين أذهب وماذا أريد .. لا أعرف .. سرت أحتضن الكتاب .. شعور عجيب لا أستطيع تصويره للقراء .. سرت على قدمى .. ثم ركبت الاتوبيس الى جهة الرمل .. ثم .. نزلت .. وعدت أسير في الطريق .. ثم .. ركبت الترام ثم نزلت من الترام وعدت أسير في الطريق .. ثم ركبت الأتوبيس لاعود . الي البيت .. شعور عجيب . وتصرف أعجب .. والكتاب أمسكه بشدة أضمه الى صدرى .. أينا أحق به يا ناس .. أنا .. الذى حافظت عليه عشرين عاماً لا أفرط فيه .. أم هذا الذى كتبه لينساه فى الترام .. فى القطار .. فى المطعم .. فى أى مكان والسلام ..

«كنارى»

رقم الإيداع
٢٠٠١ / ١١٢٠٨
977 - 07 - 0800 - 3

الفهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول . الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

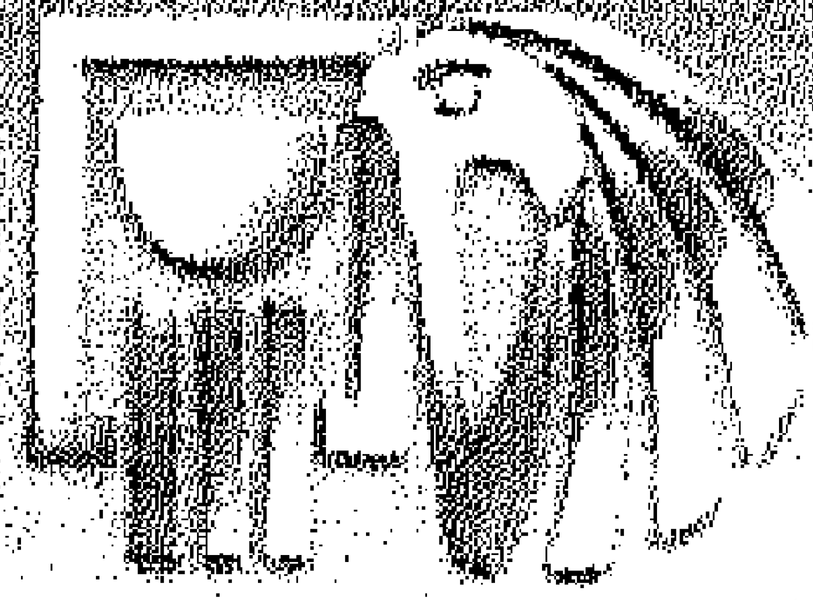
«مذكرات طالب بعثة» عمل فنى رفيع المستوى للدكتور لويس عوض احد رواد النهضة وحركة التنوير الحديثة.. تميز بمنهجه الفكرى، فشق دربا متميزا، أيده فيه الكثيرون وعارضه كثيرون، ولكن الجميع اتفقوا على انه ظاهرة فكرية شديدة الخصوية والعطاء والايمان بما يدعو إليه.

وهذا الكتاب قطعة من الأدب الرفيع.. كتبها الدكتور لويس عوض عام ١٩٤٢، ولم يعثر عليها بعد فقدانها فى دهاليز الرقابة الا عام ١٩٦٥.

ومذكرات طالب بعثة اول تجربة فى الكتابه بالعامية خاضها المؤلف على غرار تجربة بيرم التونسى فى كتابه المعروف «السيد وخبراته فى باريس». الذى صدر فى الثلاثينات.

والتجربة العامية فى مذكرات طالب بعثة لا تنتمى إلى الفن الخالص بل الى جانب من فكر لويس عوض وهو الفكر الذى يتكامل مع مضمون تلك المذكرات التى سجلت الواقع الخاص والعام بجرأة حيث اختار العامية أداة لتشكيل تجربة الاغتراب الأولى عن الوطن حينما ابتعث طالبا للدكتوراه فى انجلترا، فجاءت المذكرات سردا كميا متتابعا للزمان والمكان من داخل الزمان والمكان دون أية مساحة تفصل بين صاحب المذكرات واحداثها.





مفهوم ذهبي جديد

A NEW GOLDEN CONCEPT

بطاقة ماستر كارد مصر للطيران
البـ ـــــــــية

أكبر بهذه الدرجات :

* خـ لى .
* ئال الأعمال .
* سياحية .

أ و الخدمات :

* ياتك بهذه البطاقة
الطائرة .
ن الخدمات العلاجية

ية :

في سحب شهري .

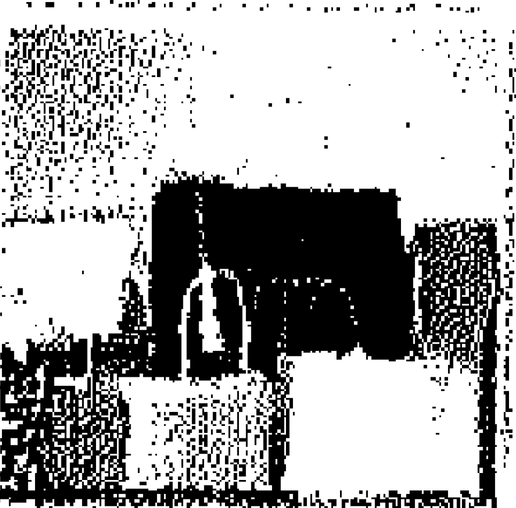














الأسماء الكبيرة .. مزاياها كبير

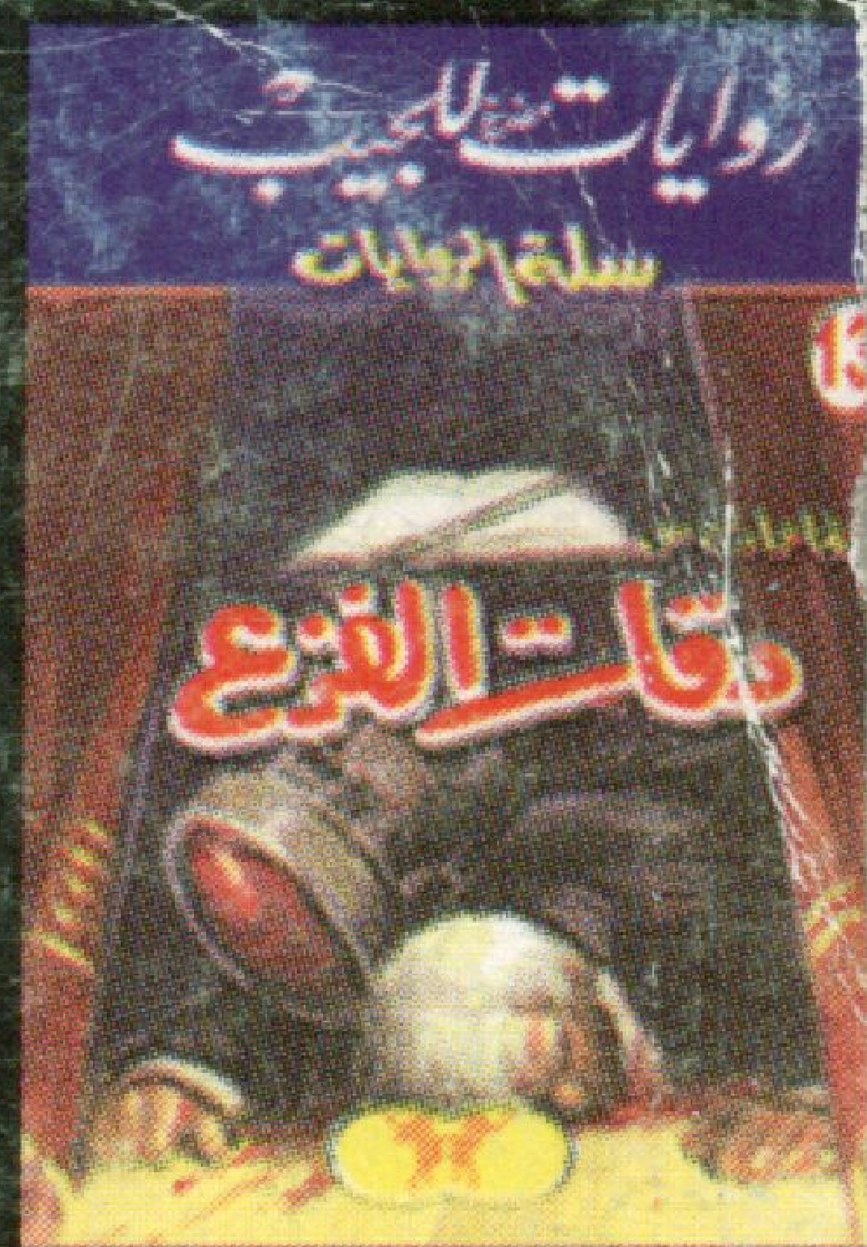


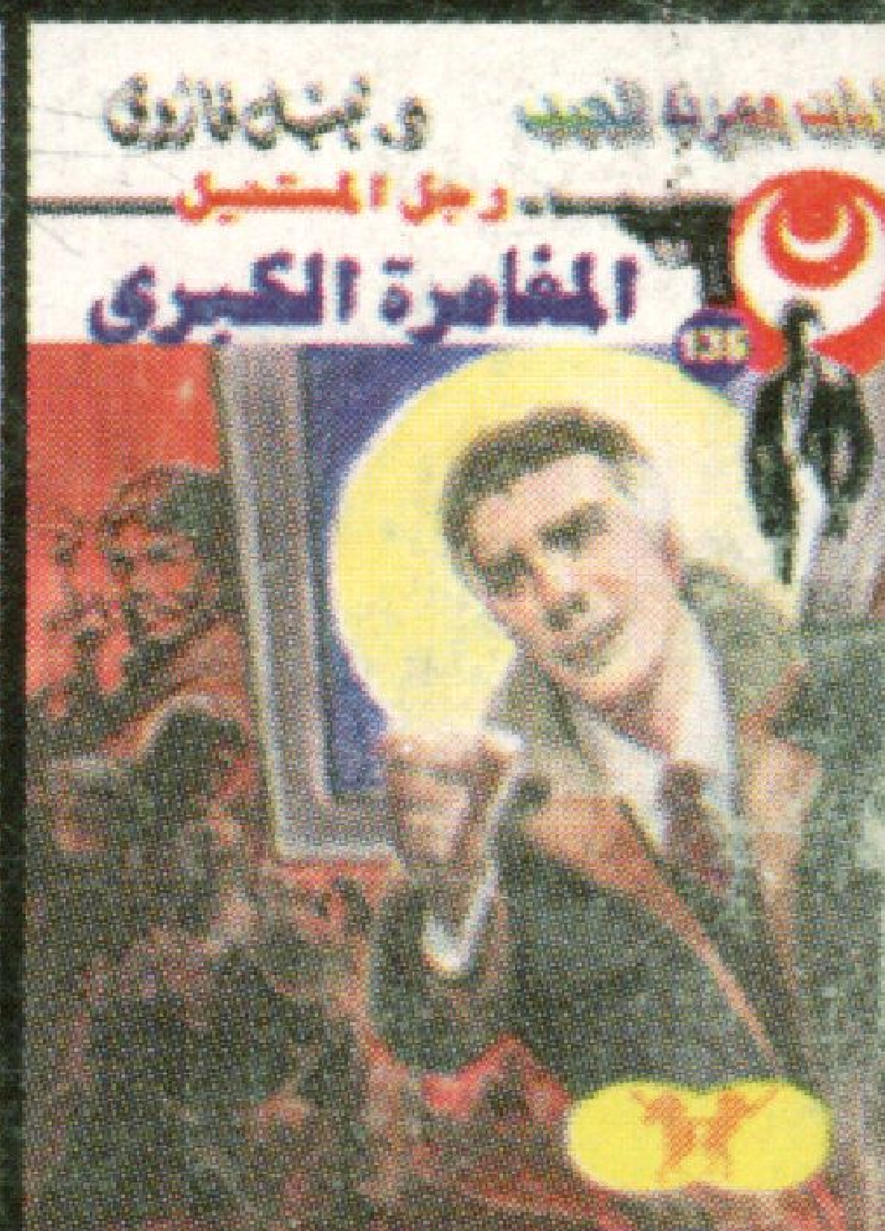


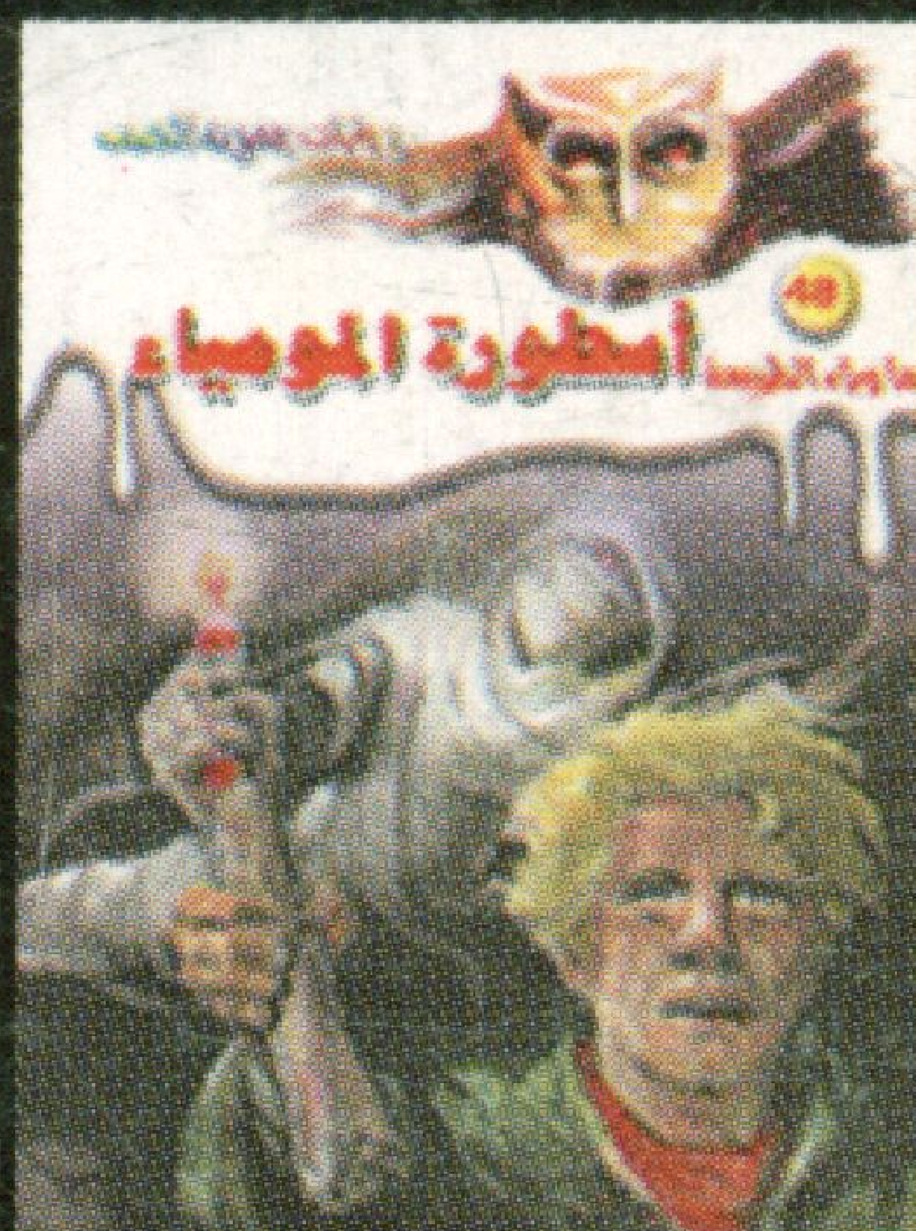
NATIONAL BANK OF EGYPT

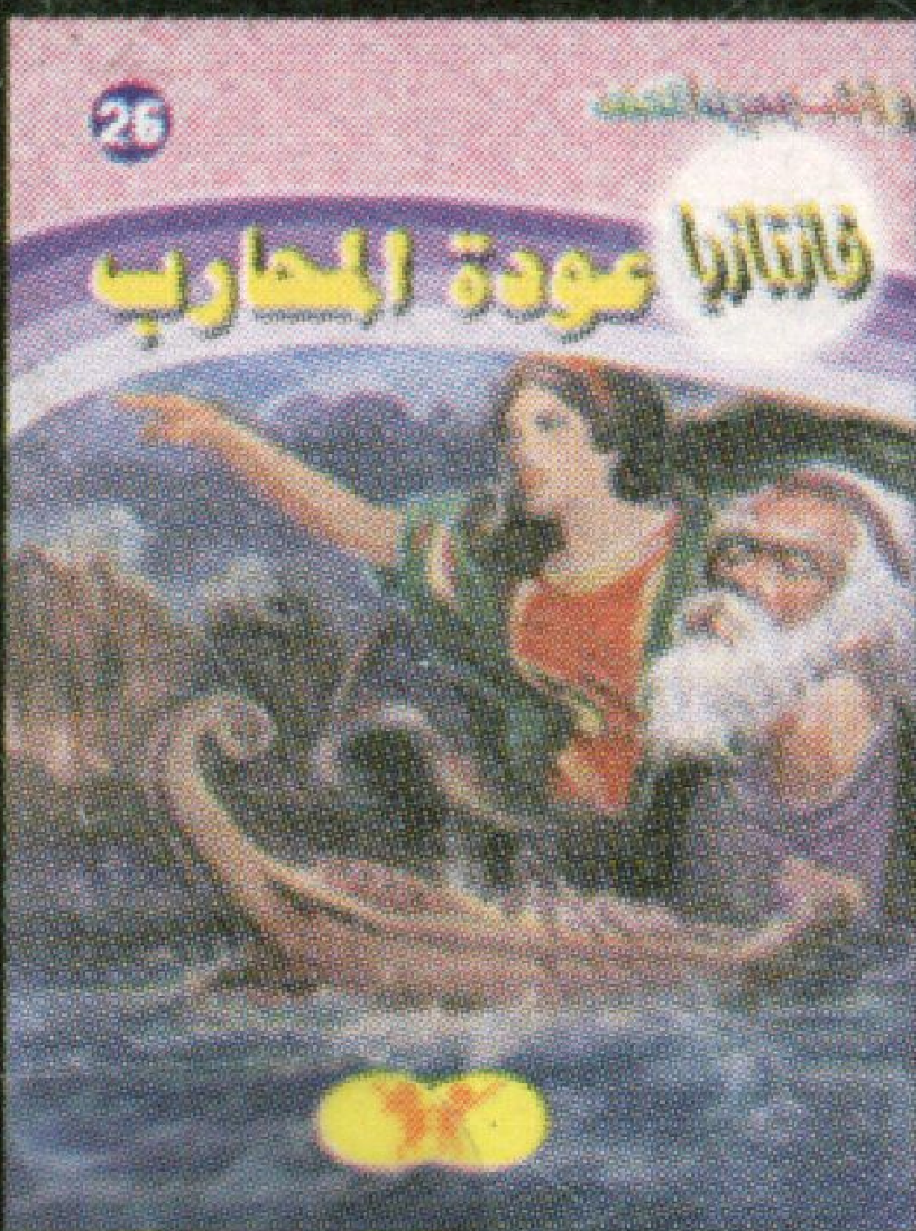
روايات مصرية للجيب

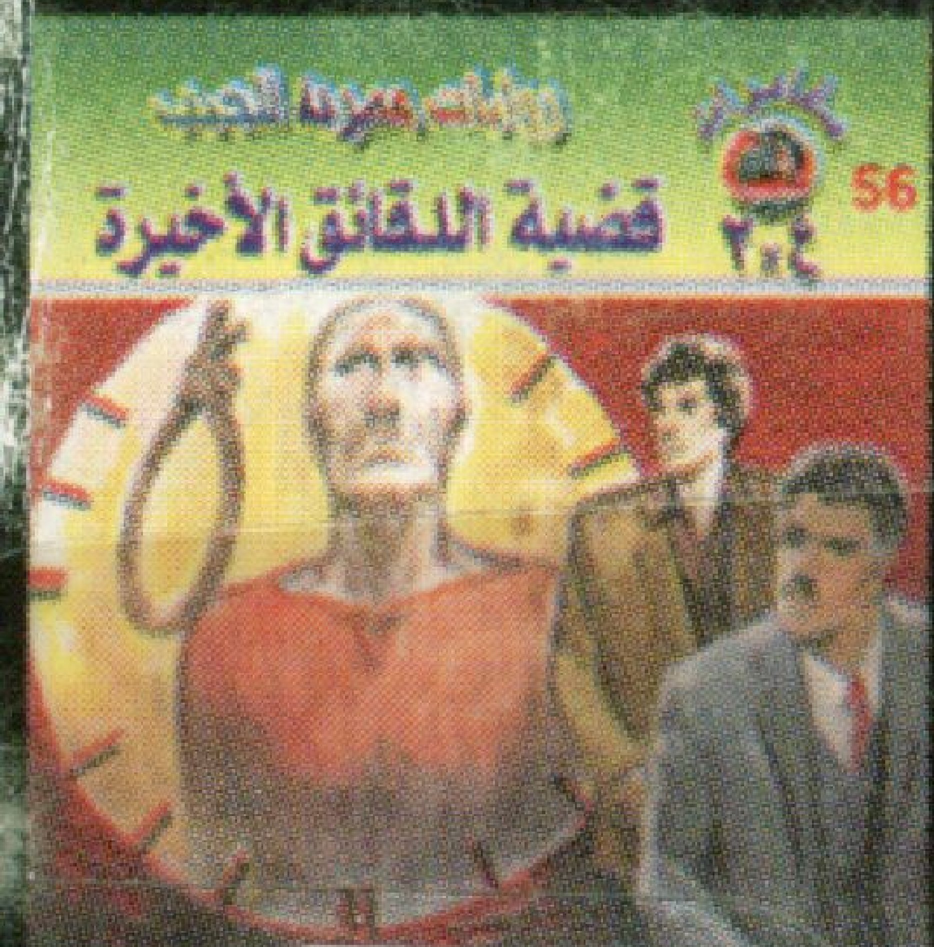
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات

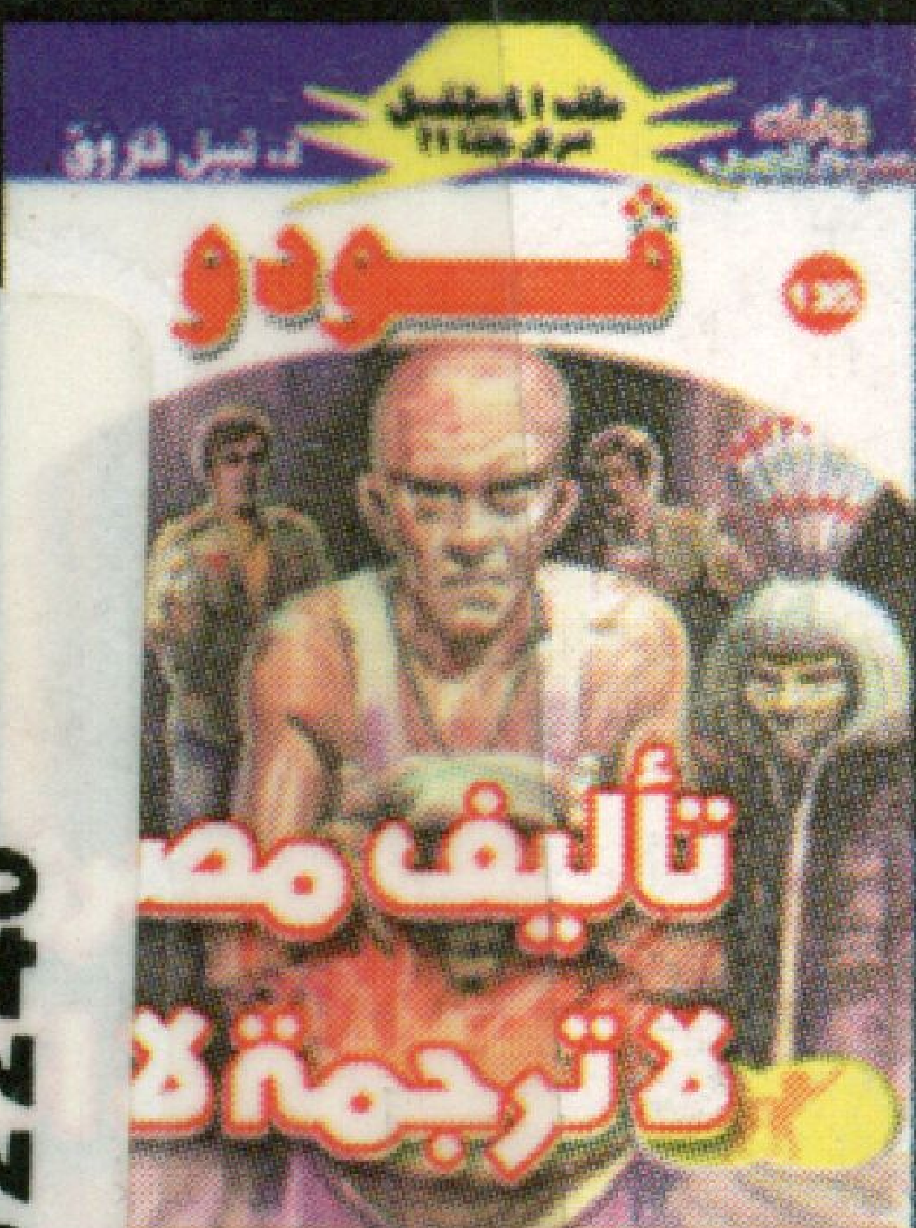






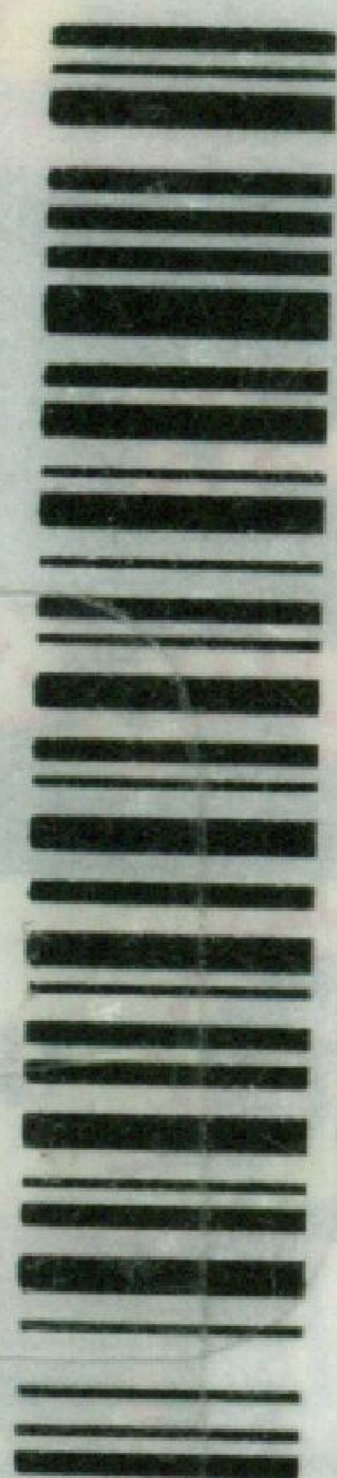






روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب العالم العربي
من مشرقه إلى مغربه











طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٧٧٠٠٢